سلسلة عالم الثقافة

12

بقلم

الأزرق بن علو

بحوث ومقالات

من فضاء السبعينات

بحوث ومقالات من فضاء السبعينات

سلسلة عالم الثقافة 12

بحوث ومقالات
من فضاء السبعينات

إعداد

الأزرق بن علو

الناشر
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

اسم الكتـــاب: بحوث ومقالات من فضاء السبعينات

اسم المـؤلـف : الأزرق بن علو

سنة النشـــر : 2013 م

رقـم الإيـداع : 2007/21954م

الترقيم الدولى : 4 - 09 - 6240 - 977 - 978 .

الناشـــر

دار قـــباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

www.qubaaelhadetha.com

الإدارة : (16) عمارات العبور - شارع صلاح سالم - الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 2/22621365 تليفون : 02/24025777

محمول : 01223140315 - 01223171722

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

2013م

الإهــداء

إلى الصحفيين الأحرار، إلى فرسان الكلمة، والقلم، والصورة، إلى كل كاتب، وشاعر، وفنان، وخطيب، وواعظ، وإلى كل مسؤول، بل إلى كل إنسان حرّ وشجاع نطق بكلمة، أو كتب سطرًا، أو رسم صورة... دفاعًا عن حق الإنسان في حرية التعبير ، وعن حق الشعب في أن يعرف، وأن ينهض، وأن يريد.

إلى كل صحفي وصحفية ناضل من أجل إعلاء كلمة الحق، والدفاع عن الحرية والعدل وكرامة الإنسان أينما كان.

إلى جميع هؤلاء أهدي هذا الكتاب.

الأزرق بن علو

*****

الفهـــرس

الموضوع | رقم الصفحة

* المقدمة 11
* تمهيد ....

*****

القسم الأول

الروح، العقل ، الجسم

*****

- العقل السليم في الجسم السليم ....
- المشاعر والصحة ....
- الانفعالات المَرَضِية ....
- تحقيق الذات ....
- الهدف ....
- التصور، الخيال والإيحاء ....

*****

القسم الثاني

انطباعات حول التربية والتعليم

*****

- انطباعات حول التربية والتعليم ....

الموضوع رقم الصفحة

- في سبيل حياة أفضل ....
- التعليم والمعلمون ....
- حول التربية والأطفال ....
- الطفل النشيط هدف الرعاية ....
- التعليم والمعلمون ....
- الطفل والمحيط العائلي :
  - اختيار الشريك ....
  - السنوات الأولى ....
  - الجو العائلي ....
  - الظروف الملائمة ....

*****

القسم الثالث

انطباعات حول المجتمع الأمريكي

*****

- لماذا نجح اليهود في أمريكا؟ ....
- المجتمع الأمريكي
  - المرأة: رفض قوانين التناسل الطبيعية ....
  - الرجل : نريد زوجات طائعات ....
- أزمة الطاقة تواجه أمريكا ....
- النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة ....
- اكتشاف الفضاء : ماذا بعد أبولو 17؟ ....

الموضوع رقم الصفحة

- الحلقة الأولى الأمريكان السود : بين العبودية والحرية .....
- الحلقة الثانية الأمريكان السود يعقدون مؤتمرًا قوميًا ....
- الحلقة الثالثة عن حياة السود في أمريكا: العبودية وما بعدها ....
- الحلقة الرابعة عن حياة السود في أمريكا: العبودية وما بعدها ....
- الحلقة الخامسة عن حياة السود في أمريكا: العبودية وما بعدها ....
- الحلقة السادسة عن حياة السود في أمريكا: العبودية وما بعدها ....

*****

القسم الرابع

أضواء على المشاكل الدولية

*****

- البحر الأبيض المتوسط ومشكلة التلوث ....
- سياسة البحار من المشكلات الدولية الهامة ....
- الدول النامية والمحافظة على المحيط الطبيعي ....
- التسلح وتجارة الأسلحة ....
- العلاقات الأمريكية المكسيكية ....
- حول العلاقات بين كندا والولايات المتحدة ....
- دور النفط ومستقبله ....

الموضوع رقم الصفحة
- اليابان والولايات المتحدة ....
- السياسة المالية والضغط الديبلوماسي ....
- هيئة الأمم المتحدة وقضية السلم والتعاون ....
- الدول اللاتينية والعلاقات مع كوبا ....
- واشنطن تسعى لتحسين أبولو "17" (وتحسين علاقاتها مع موسكو) ....
- الأمم المتحدة بين الأمس واليوم ....
- الولايات المتحدة والمجموعة الاقتصادية الأوروبية ....
- معجزة اليابان - أو حكمة رجل الشرق وتكنولوجيا الغرب.
- نظام النقد الدولي (إمبراطورية الدولار) ....
- العلاقات الاقتصادية بين أمريكا وكندا ....
- بترول - انشغال في الغرب: حقائق ومزاعم ....
- الوعي القومي يضاعف النشاط الاقتصادي في عدد من دول أمريكا الجنوبية ....
- التنمية الاقتصادية بين البلدان المصنعة والنامية ....
- أضواء على نظام النقد الدولي ....
- تدخلات واشنطن في الشيلي ....
- بعض عوامل التنمية الاقتصادية ....
- التسلح وتجارة الأسلحة ....

*****

الموضوع رقم الصفحة

القسم الخامس

الرياضة المفيدة: أيْروبيكْسْ

*****

- الحلقة الأولى ....
- الحلقة الثانية ....
- الحلقة الثالثة ....
- الحلقة الرابعة ....

*****

نصائح وإرشادات في قيادة السيارات

*****

- العوامل النفسية في قيادة السيارات ....
- إنْتَبِهْ للمحيط! ....
- نصائح عملية (1) ....
- نصائح عملية (2) ....
- كيف ومتى تتجاوز سيارة أخرى؟ ....
- الدراجات والسيارات ....
- إنتبه جدّا للمشاة! ....

*****

الموضوع رقم الصفحة

القسم السادس

موضوعات متنوعة

*****

- تصور الإنسان لبدنه وتأثير ذلك على تصرفاته ....
- البقاء: سبعة أسئلة حول المستقبل ....
- البقاء: سبعة أسئلة حول المستقبل ....
- صدمة المستقبل ....
- المجتمع السليم ....
- مشاهدة أفلام العنف وتأثير ذلك على الجمهور ....
- بين الأرض والقمر ....
- ولد يوم 4 يوليو (جويلية) ....
- الأمم المتحدة ....
- ميثاق جامعة الدول العربية ....
- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ....

*****

مقدمة

في سنة 1971 قررت أن أواصل الدراسة بهدف الحصول على دكتوراه في ميدان «العلاقات الدولية». قدمت استقالتي إلى وزارة الخارجية، وعدت إلى الولايات المتحدة، وانتسبت إلى جامعة جوْنزْ هوبكينز (JOHNS HOPKINS) في واشنطن.

بعد مرور سنة طرأت ظروف منعتني من مواصلة الدراسة. ثم حصلت على عمل مع شركة تصدر الحبوب إلى البلدان العربية.

كنت في أوقات فراغي أقوم ببحوث في مكتبة الكنغرس حول موضوع سلوك الإنسان وما يؤثر على حياته من انفعالات إيجابية وسلبية. وكانت نتيجة هذه البحوث تأليف كتاب «الإنسان والقلق».

وقمت بنشاط مواز فركزت اهتمامي على كتابة مقالات في موضوع كان يهمني «العلاقات الدولية». نشرت قسمًا منها في جريدة الشعب في العاصمة الجزائرية. ومن الموضوعات التي تناولتها في هذه المقالات ما يلي :

- دور الأمم المتحدة.

- صندوق النقد الدولي.

- المجموعة الاقتصادية الأوربية.

- مشاكل التنمية في البلدان النامية.

- علاقات الولايات المتحدة مع عدد من البلدان.

- مشاكل البيئة والتلوث.

- الصراع الدولى حول النفط والطاقة.

- سياسات البحار.

- تجارة السلاح.

- نجاح اليهود في السيطرة على سياسة أمريكا.

- حياة الأمريكان السود في الولايات المتحدة.

وما زالت هذه القضايا تطل علينا من نافذة سبعينات القرن الماضي، وما زالت المحافل الدولية تهتم بها، وتسْعى لمعالجتها، وما زالت وسائل الإعلام تركز عليها وتتشغل بتطوراتها. فهذه البحوث والمقالات تمثل حلقة في مسلسل الحوادث التي تربط بين الأجيال باعتبارها جزءًا من تاريخ القرن الماضي، فهي «نافذة على الماضي الحي».

وبصدد الحديث عن التاريخ يقول العلامة ابن خلدون :

«فنّ التاريخ في ظاهره لا يزيد على الإخبار عن الأيام والدول... وفي باطنه نظرٌ وتحقيق... وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق».

*****

تمهيد

الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 90).

1 - حق الحياة:

أمر الله تعالى باحترام الحياة وأن لا تزهق إلا بالحق... ولا يجوز لأحد أن يعتدي عليها، قال تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: 32) ولا تسلب هذه الحياة إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها.

كان الإنسان - معصوم الدم - المادي والمعنوي محترمًا، تحميه الشريعة في حياته، وبعد مماته، ومن حقه الترفق والتكريم، في الحياة وبعد الموت.

2 - حق الحرية:

(أ) حرية الإنسان محترمة - كحياته سواء - والناس أحرار في الأصل، خلقهم الله على الفطرة، عبوديتهم لله وحده، وفي

الحديث: «**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة**». وفي الحديث القدسي (**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**) بمعنى أن الإنسان يولد مستعبد لله وحده، وهي مستصحبة ومستمرة، ليس لأحد أن يعتدي عليها، ولا تقيد إلا وفق أحكام الذي وهبه هذه الفطرة، ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرّها.

(ب) لا يجوز الاعتداء على حرية شعب بغير حق، وللشعب المعتدي عليه أن يردّ العدوان ويسترد حريته بكل السبل الممكنة: ﴿**وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**﴾ (الشورى: 41). وعلى الناس مساندة كل شعب يجاهد من أجل التخلص من العبودية للطواغيت البشرية، ويتحمل المسلمون في هذا واجبًا عالميًا: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (الحج: 41).

ويجب على المسلمين السعي لمنع استعباد الإنسان للإنسان. ومنه استعباد القوى الكبرى للشعوب المستضعفة، وأن يجاهدوا لمنع الطواغيت من استعباد البشرية، بفرض مناهجها على الناس بدل منهج الله خالق الإنسان، وهذا الفرض على الأمة الإسلامية باق إلى قيام الساعة، وهو جهاد الكفاية، لا يسقطه شيء، وكل ميثاق عالمي يشتمل على إسقاط هذا الفرض، باطل وتقديمه على نصوص الكتاب والسنة من قبيل التحاكم إلى الطاغوت.

3 - حق المساواة:

(أ) **الناس جميعًا أمام أحكام الشريعة سواء**، جاء في الحديث «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقُطعتْ يدها» ولا تمييز بينهم إلا وفق هذه الشريعة.

(ب) **الناس كلهم في القيمة الإنسانية في الأصل سواء**: «**كلُّكم لآدم وآدمُ من تراب**»، وإنما يتفاضلون بحسب إيمانهم بربهم وعملهم في طاعته، ولا يجوز تعريض شخص لخطر أو ضرر بأكثر مما يتعرض له غيره بغير حق، والمسلمون أمة واحدة، ولا يستوي من يحقق هدف وجوده بعبادة الله، ومن يجحد هذ الهدف ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (القلم: 35) و«المسلمون تتكافأ دماؤهم». وكل فكرة وكل قانون وكل وضع يسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس أو العرق أو اللون بما يخالف شريعة الله تعالى، هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام.

(جـ) **لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع** من خلال فرصة عمل مكافئة لفرصة غيره: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ (الملك: 15). ولا يجوز الظلم بالتفرقة بين الأفراد في الأجر ما دام الجهد المبذول واحدًا، والعمل المؤدَّى واحدًا كمّاً وكيفًا، إلا ما كان من فضل مال يتصرف فيه صاحبه وفق الشريعة بغير ظلم.

(د) **المساواة بين الرجل والمرأة من كل وجه، ظلم لكل منهما**، وإفساد للفطرة الإنسانية، وتخريب المجتمع، ذلك أن الله تعالى خالق الإنسان قد ساوى بين الرجل والمرأة في أحكام، وخالف بينهما في أحكام أخرى، وقد خص الرجل بخصائص ميّزه بها عن المرأة، وخص المرأة بخصائص ميّزها عن الرجل، ليكمّلا ببعضها، ويكمّلا معًا تكوين الأسرة، والرجل أعلى درجة من المرأة، وله عليها القوامة من حيث العموم، ويمتاز بالقدرة على تولي الولايات العامة، والمناصب التي تحتاج إلى ما اختص به من الصلاة وقوة الرأي والحزم وتغليب العقل على العاطفة، والمرأة أخص بالوظائف التربوية الأسرية لما ركب الله فيها من الحنان والسكن والعطف والصبر على تنشئة الأولاد وتربيتهم في مراحل العمر الأولى، وحياة الإنسان لا تستقيم إلا وفق هذا التقسيم الفطري لوظيفة المرأة والرجل في المجتمع.

وأي قانون من شأنه أن يخرب هذا التقسيم فإنه يعرض المجتمع لضرر اجتماعي محقق يبدأ بالأسرة وينتهي بانتشار الأمراض الاجتماعية في المجتمع بأسره.

4 - حق العدالة:

(أ) **حق العدالة من حق كل فرد** ويجب عليه أن يتحاكم إلى الشريعة الإلهية، وأن يحاكم إليها دون سواها: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (النساء: 59). ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ (المائدة : 49)، وإجبار الناس على التحاكم إلى غير

الشريعة الإلهية كفر وظلم وفسوق وهو من أعظم أسباب الفساد في الأرض.

(ب) **من حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم:** ﴿**لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾ (النساء: 148). ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك: وفي الحديث (**انصر أخاك**).

ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتنصفه وتدفع عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم، من قبل أي طرف كان، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة، ويوفر لها الضمانات الكفيلة باستقلالها ، فإن لم يفعل فهو ظالم غاش لرعيته.

(جـ) **من حق الفرد - ومن واجبه - أن يدافع عن حق أي فرد آخر**، وعن حق الجماعة، من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن إن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه، وذلك أضعف الإيمان، وذلك وفق الأحكام الشرعية بما لا يؤدي إلى فتنة ومنكر أكبر.

(د) لا تجوز مصادرة حق الفرد في الدفاع عن نفسه تحت أي مسوَّغ وفي الحديث «**إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبيّن لك القضاء**».

(هـ) ليس لأحد أن يُلزم مسلمًا بأن يطيع أمرًا يخالف الشريعة، وعلى الفرد المسلم أن يعصي من يأمره بخلاف الشريعة، أيّاً كان الأمر حاكمًا أو محكومًا، وفي الحديث (**إذا أمَر بمعصيةٍ فلا سمعٌ ولا طاعةٌ**).

ومن حقه على الجماعة أن تحمي رفضه تضامنًا مع الحق: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**».

5 - حق الفرد في محاكمة عادلة:

(أ) البراءة هي الأصل: وفي الحديث «**كُلُّ أمَّتي معافى إلا المجاهرين**»، وهو مستصحب ومستمر حتى مع اتهام الشخص، ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية.

(ب) لا تجريم إلا بنص شرعي.

(جـ) لا يُحكَم بتجريم شخص ولا يُعَاقَب على جرم إلا بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تَقْبل المراجعة، أمام محكمة عادلة: ﴿**إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ (الحجرات: 6)، ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ (النجم: 28).

(د) لا يجوز - بحال - تجاوز العقوبة التي قدرتها الشريعة للجريمة: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾ (البقرة: 229)، والحدود تدرأ بالشبهات.

(هـ) لا يؤخذ إنسان بجريرة غيره: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ (فاطر: 18). وكل إنسان مستقل بمسؤوليته عن أفعاله: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ (الطور: 21). ولا يجوز بحال أن تمتد المُسَاءلة إلى ذويه من أهل وأقارب، أو أتباع وأصدقاء، ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ**﴾ (يوسف: 79).

6 - حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فرد الحق في الحماية من تعسف السلطات معه، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه ولا توجيه اتهام له إلا بناءً على قرائن معتبرة شرعًا، تدل على تورطه فيما يوجه إليه.

7 - حق الحماية من التعذيب:

(أ) لا يجوز تعذيب المجرم فضلاً عن المتهم، وفي الحديث «**إن الله يعذِّب الناس في الدنيا**». كما لا يجوز حمل الشخص على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، وكل ما ينتزع بوسائل الإكراه باطل: «**إن الله وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

(ب) مهما كانت جريمة الفرد، وكيفما كانت عقوبتها المقدَّرة شرعًا، فإن إنسانيته، وكرامته الآدمية تظل مصونة، فلا يعاقب إلا وفق الشريعة.

8 - حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

عرض الفرد وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها: وفي الحديث (**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**)، ويحرم تتبع عوراته، ومحاولة النيل من شخصيته وكيانه الأدبي: ﴿ **وَلا تجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ (الحجرات: 12)، ﴿ **وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ** ﴾ (الحجرات: 11).

9 - حقوق الأقليات:

(أ) الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة: 256). وقد حرم الإسلام الظلم، وأمَرَ بالإحسان إلى الناس ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل:90).

(ب) الأوضاع المدنية، والأحوال الشخصية للأقليات تحكمها شريعة الإسلام إنْ هم تحاكموا إلينا: ﴿**فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾ (المائدة: 42).

10 - حق المشاركة في الحياة العامة:

(أ) من حق كل فرد في الأمة أن يعلم بما يجري في حياته، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة، «**الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله: قال لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»، وعليه أن يشارك فيها بقدر ما تتيح له قدراته ومواهبه إعمالاً لمبدأ الشورى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ (الشورى: 38). وكل فرد في الأمة أهل لتولّي المناصب والوظائف العامة متى توافرت فيه شرائطها الشرعية وعمادها على القوة والأمانة، ولا تسقط هذه الأهلية أو تنقص تحت أي اعتبار عنصري أو طبقي، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم.

(ب) الشورى أساس العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكامها، بإرادتها الحرة، تطبيقًا لهذا المبدأ، ولها الحق في

محاسبتهم إن حادوا عن شريعة الله: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»، وقال الصديق: (إن أسأت فقوموني).

11 - حق حرية التفكير والاعتقاد والتعبير:

(أ) لكل شخص أن يفكر ويعتقد، ويعبر عن فكره ومعتقده، دون تدخل أو مصادرة من أحد ما دام يلتزم الحدود التي أقرَّتها الشريعة، ولا يجوز إذاعة الباطل، ولا نشر ما فيه ترويجًا للفاحشة أو تخذيلاً للأمة: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**﴾ (الأحزاب: 61 - 60).

(ب) التفكير الحر - بحثًا عن الحق - ليس مجرد حق فحسب، بل هو واجب، ولا يجوز لأحد حتى الحاكم أن يلزم غيره باتباع رأيه في مسائل الاجتهاد.

(جـ) من حق كل فرد ومن واجبه: أن يعلن رفضه للظلم، وإنكاره له ، وأن يقاومه ، دون تهيُّب سلطة متعسفة، أو حاكم جائر، أو نظام طاغ.. وهذا أفضل الجهاد: «**سئل رسول الله ﷺ : أيّ الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند سلطان جائر**».

(د) لا حظر على نشر المعلومات والحقائق الصحيحة، إلا ما يكون في نشره خطر على المجتمع الإسلامي: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (النساء: 83).

12 - حق الحرية الدينية:

يسمح للأشخاص بحرية الاعتقاد ، وحرية العبادة وفقًا لمعتقداتهم تكون وفق أحكام الشريعة الإسلامية، إلا المرتد فيقام عليه حكم الله.

13 - حق الدعوة والبلاغ:

(أ) لكل فرد الحق أن يشارك - منفردًا ومع غيره - في حياة الجماعة: اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا، إلخ، وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وأن ينشئ من المؤسسات ويصطنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ (يوسف: 108).

(ب) من حق كل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاونًا على البر والتقوى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ (آل عمران: 104)، ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ (المائدة: 2)، وفي الحديث «**إنَّ الناس إذا رأوا الظالم لم يأخذوا على يديه أوْشَكَ أن يعمّهم الله بعقاب**».

14 - الحقوق الاقتصادية:

(أ) الطبيعة - بثرواتها جميعًا - ملك الله تعالى ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ** ﴾ (المائدة: 120). وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الإنتفاع بها: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**

مِّنْهُ﴾ (الجاثية: 13). وحرَّم عليهم إفسادها وتدميرها: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: 60). ولا يجوز لأحد أن يحرم على آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء: 20).

(ب) لكل إنسان أن يعمل وينتج ، تحصيلاً للرزق من وجوهه المشروعة: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: 6)، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: 15).

(جـ) الملكية الخاصة مشروعة - على انفراد ومشاركة - ولكل إنسان أن يقتني ما اكتسبه بجهده وعمله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (النجم: 48). والملكية العامة مشروعة، وتوظف لمصلحة الأمة بأسرها: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: 7).

(د) لفقراء الأمة حق مقرر في مال الأغنياء، نظمته الزكاة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: 24). وهو حق لا يجوز تعطيله، ولا منعه ، ولا الترخص فيه من قبل الحاكم، ولو أدى به الموقف إلى قتال مانعي الزكاة: «والله لو منعوني عقالاً، كانو يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم عليه».

(هـ) توظيف مصادر الثروة ووسائل الإنتاج لمصلحة الأمة واجب، فلا يجوز إهمالها ولا تعطيلها: «**ما من عبد استرعاه الله رعيّة فلم**

يُحطْها بالنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنّة». كذلك لا يجوز استثمارها فيما حرمته الشريعة، ولا فيما يضر بمصلحة الجماعة.

(و) التزام قيم الإسلام وأحكام الشريعة، ورعاية مصلحة الأمة، هما القيد الوحيد على النشاط الاقتصادي في مجتمع المسلمين.

15 - حق حماية الملكية:

لا يجوز انتزاع ملكية، نشأت عن كسب حلال، إلا للمصلحة العامة: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾ (البقرة: 188). ومع تعويض عادل لصاحبها: «**من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقّه طوق به يوم القيامة إلى سبع أرضين**». وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشدّ لأنه عدوان على المجتمع كله، وخيانة للأمة بأسرها: وفي الحديث «**ومن استعملناه منكم على عمل فكتمنا منه مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**».

16 - حق العامل وواجبه:

حق العامل:

1 - أن يوفي أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه**».

2 - أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.

3 - أن يمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ (التوبة: 105).

4 - أن يجد الحماية، التي تحول دون غبنه واستغلال ظروفه. عن أبي هريرة مرفوعًا قال الله تعالى: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**».

17 - حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة: من طعام وشراب وملبس ومسكن، ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه وعقله من علم ومعرفة وثقافة في نطاق ما تسمح به موارد الأمة. ويمتد واجب الأمة في هذا ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل بتوفيره لنفسه من ذلك.

18 - حق التربية والتعليم:

(أ) التربية الصالحة حق الأولاد على الآباء، كما أن البّر وإحسان المعاملة حق الآباء على الأولاد: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ (الإسراء: 23 - 24).

(ب) التعليم حق للجميع. وطلب العلم واجب على الجميع ذكورًا وإناثًا على السواء: وفي الحديث «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم**»، والتعليم حق لغير المتعلم على المتعلم: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ**

أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: 187).

(جـ) على المجتمع أن يوفر لكل فرد فرصة متكافئة ليتعلَّم ويستنير: وفي الحديث «**مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدِّين**»، ولكل فرد أن يختار ما يلائم مواهبه وقدراته: «**كُلُّ ميَسَّرٌ لِما خُلِقَ له**».

19 - حق الفرد في حماية خصوصياته:

يحرم التفتيش عن دخائل الناس، فسرائرهم إلى الله وحده، ولا يجوز امتحان الناس لمعرفة ما يضمرون ، وفي الحديث «**أفلا شققت عن قلبه**». وخصوصيات الناس حمى، لا يجوز التجسس: ﴿**وَلا تَجَسَّسُوا**﴾ (الحجرات: 12)، ولا يحل لأحد تتبع عورات الناس: «**يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من تتَبَّع عورةَ أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومن تتبَّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رَحْلِهِ**».

20 - حق حرية الارتحال والإقامة:

(أ) من حق كل فرد أن تكون له حرية الحركة، والتنقل من مكان إقامته وإليه، وله حق الرحلة والهجرة من موطنه والعودة إليه دون ما تضييق عليه أو تعويق له: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ (الملك: 15). ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ (الأنعام: 11). ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ (النساء: 97).

(ب) لا يجوز إجبار شخص على ترك موطنه ولا إبعاده عنه تعسفًا أو دون سبب شرعي: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ (البقرة: 217).

(جـ) دار الإسلام واحدة، وهي موطن لكل مسلم، لا يجوز أن تقيَّد حركته فيها بحواجز جغرافية أو حدود سياسية، وعلى كل بلد أن يستقبل من يهاجر إليه أو يدخله من المسلمين استقبال الأخ لأخيه: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر: 9).

(د) للمسلمين جميعًا الحق في أن تشملهم دولة واحدة، وأن يكون لهم إمامة واحدة، تحوطهم وتحميهم وتحمي دينهم، وتحفظ أعراضهم ودماءهم وحقوقهم في الأرض، ومن يعتدي على هذا الحق، فيسعى في تفريقهم، طلبًا لهوى ملك أو زعامة، أو متاع الدنيا، فهو من أعظم المحادين لله ورسوله، الساعين في المسلمين بالفساد والإفساد(*).

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

*****

(*) المصدر : شبكة «الإنترنت».

القســـم الأول

العقل السليم في الجسم السليم

النفس ، العقـل ، والجسم

العقل السليم في الجسم السليم

اهتمام الإنسان بصحته، ومرضه، ونشاطه، ومتاعبه، وراحته، وشفائه، قديم. وقد تحدث في هذا الموضوع الطبيب، والفيلسوف، والساحر، والمشعوذ، والرجل العادي. ونُسِبَتِ الأمراض لتأثير الأرواح الشريرة حينًا، ولفقدان توازن «المواد الأربعة» في الإنسان طورًا، وللأحوال النفسية والجراثيم والوراثة تارة. وكان الإنسان يستعمل أنواعًا من العلاج اختلفت باختلاف العصور والمعتقدات .

وجعلت عنوان الموضوع «العقل السليم في الجسم السليم»، لأن التأثير متبادل بين الجسم والعقل . وكيف يكون الجسم سليمًا إذا غدا العقل عليلاً، والفكر مضطربًا. ولا يخفى مدى تأثير التصورات العقلية السلبية والعواطف الضارة على صحة الإنسان وتوازنه. كما لا ينكر تأثير الجسد الذى اعتلت أعضاؤه وتوترت أعصابه على سلامة التفكير.

وإذا كان تقُّدم مجتمع ما وازدهار الحياة فيه يتوقف على سعادة الأسرة ونشاطها وإنتاجها، فإن سلامة الأسرة وقوتها مبنية على مدى الانسجام والتفاهم بين أفرادها ، وعلى صحة أجسامهم وسلامة أفكارهم وعواطفهم ونجاحهم فيما يقومون به من أعمال.

فعجز الفرد ومرضه وفشله وخسارته لا تقتصر على شخصه

وعائلته وأقربائه فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى المجتمع الذى يحيا فيه هذا الفرد. فإذا أخذنا كمثال حوادث الاصطدام، أو حوادث العمل، أو حوادث الحريق أو الفيضان التى يتسبب فى وجودها إهمال الإنسان أو التي تكون نتيجة الإعياء وعدم القدرة على التركيز، مثل هذه الحوادث هي خسارة للفرد والعائلة والمجتمع.

ولنأخذ مثال التغيب عن العمل . كثيرًا ما يحدث هذا بسبب أنواع من الأمراض الناتجة عن مشاكل نفسية عندما تسيطر على الإنسان عواطف ضارة أو يعيش فى جوّ عائلي شقي. فإذا تغيب عن العمل نصف مليون عامل، يومين فقط في السنة، فإن إنتاج المجتمع وتقدمه يساوي ناقص مليون يوم عمل بالإضافة إلى المصاريف الباهظة التي تدفع للأطباء والأدوية والمستشفيات .

فصحة الفرد وسلامة فكره وأخلاقه إذا، أمر يهم المجتمع ككل. والشخص إمّا أن يكون عضوًا صالحًا، نافعًا ومنتفعًا أو يكون عالة وعبئًا. وكيف نتوقع منه أن يصبح صالحًا ومنتجًا ومربيًا، إذا كانت حياته تعسة وجسمه عليلاً وعقله مضطربًا. معلوم أن وجود فرد من النوع الشاكي المتشائم والمتبرم بالحياة يؤثر على حياة العائلة ويخلق جوًا من الشقاء في نفوس أفرادها .

ولهذا كان من واجب التربية أن تساعد على تكوين المواطن الناضج بأن تخلق انسجامًا بين عواطفه وجسده، وأن تقوده في طريق التفكير السليم. ولذلك جاءت الديانات تدعو للمحافظة على الأبدان، وتدعو للاعتدال وعدم الإسراف وتأمر بالأخلاق الفاضلة .

ومن أقدر على تحمل مسؤولياته والقيام بواجبه نحو العائلة والمجتمع وفي مجال التعليم والإنتاج والدفاع، ومن أقدر على التفكير الواقعي فيما يعترضه من مشاكل، أهو الشخص الساخط الكئيبٓ الفاشل القلق؟ أم الذى امتلأت نفسه بالمحبة والإيمان، بالحياة والاطمئنان والرضى. وأود أن أشير هنا إلى أن تناول الحياة الفردية بالدراسة والتحليل من الأهمية بمكان سواء من الناحية الصحية أو العاطفية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. لأن الفرد نقطة الانطلاق في الحياة العائلية والاجتماعية . فهو و(هي) يلعب دوره كأب أو أخ أو أم أو زوجة... بالإضافة إلى دوره كمعلم أو شرطي أو فلاح أو موظف أو عامل. وهو يحمل عاداته ومزاجه معه ويتأثر به خلال ممارسته لأعماله في المكتب أو الحقل أو الشارع أو المنزل .

*****

المشاعر والصحة

إن عـددًا كبيـرًا من الناس لا يعـرفـون إلا القليل عن مـدى تأثيـر المشاعر الضارة على الجسد. ويؤكد الأطباء أن الظروف العاطفية التي يمر بها الإنسان تترك أثرًا في حياته، سطحيًا كان هذا الأثر أم عميقًا، تبعًا لنوع الانفعالات وقوتها. فإذا أخذنا كمثال للتوضيح عاطفة الخوف مثلاً (وهي من العواطف الضارة) فإننا نلاحظ على الإنسان الخائف ظواهر الارتجاف، اتساع العينين، قبض اليدين، توتر في العضلات... كما يحدث تغيير في التفاعلات الكيميائية داخل جسمه فتزيد بعض الغدد في الإفراز، ويرتفع ضغط الدم، وتزداد دقات القلب إلى غير ذلك.

ويسبب هذا التغيير البيولوجى الداخلى كثيرًا من المتاعب والآلام، إذا تكررت مثل هذه العواطف الضارة ولازمت الإنسان. وحتى عندما لا تلحق بالجسم ضررًا مباشرًا، فإنها (الانفعالات) تجعله أكثر تعرضًا للأمراض، بإضعاف وسائل الدفاع ومضاعفة توتره العصبى. وهذا مما يزيد في حساسية المصاب ويجعله عرضة للقلق والوسواس فيقل نومه وتزيد متاعبه .

ألم يحدث أن شاهدنا كيف تغيرت وساءت صحة أشخاص تحت ضغط ظروف قاسية، فظهرت عليهم علامات الضعف والشيخوخة

والعجز قبل الآوان، لأنهم استسلموا للحزن واليأس، ولم يستطيعوا أن يتغلبوا على المشاكل ولا أن يجابهوا الحياة بعد النكبة بصبر وعزم، فغُلِبوا على أمرهم وأنهكت الهموم قواهم .

وإذا كانت التغيرات البيولوجية المشار إليها تؤثر بصفة مباشرة على توازن العمليات التي تجرى داخل الجسم، فينتج عن ذلك خلل في نظام الجسم ، فإنه لا يخفي ما يلحق هذا الخلل إن دام بقاؤه من ضرر بالصحة. فالمشاعر السلبية تتعب الفكر وتحدث توترًا عصبيًا يجعل صاحبه يشعر بالإعياء والهياج والألم وعدم الكفاءة، وهي تزيد من شعوره بالخيبة، وكل ذلك يؤثر في الجهاز الهضمي بأن يدفع بمقدار من الدم في اتجاه آخر مثلاً، فلا يصل منه المقدار الكافي للمعدة، أو بأن يؤثر في عمليات الهضم الأخرى من امتصاص وإفراز وغيره.

ويمكن القول بأن قوة تأثير العواطف الضارة تختلف من شخص لآخر، فلو أخذنا ظروف الامتحانات وما يصحبها من أنواع المشاعر عند الطلاب مثل: شك في النجاح، خوف من السقوط، انتظار النتائج، غموض، قلق، فإننا نجد تأثير هذه المشاعر السلبية يختلف من طالب لآخر، وذلك تبعًا لما يتمتع به كل من العادات الإيجابية والمزاج السليم. فالثقة بالنفس والأمل والشجاعة والإيمان تساعد بعض الطلاب على اجتياز فترة الامتحانات، سواء نجحوا أم سقطوا، بدون الشعور بالتوتر والأرق وقضم الأظافر وأخذ المسكنات.

وإذا أخذنا كمثال للتدليل على مدى تأثير العوامل النفسية على صحة الإنسان رجلاً ظلم وانتزع منه حقه ولم يستطع الدفاع عن نفسه،

ولم ينس أو يصفح بل استولت عليه عاطفة حب الانتقام والحقد ، وعاش زمنًا طويلاً يَتَحيَّنُ الفرصة للإيقاع بمن ظلمه فعاش في ارتباك وخيبة الأمل ، فإن هذا الرجل سيدفع عاجلاً أم آجلاً ثمنًا باهظًا من صحته وهدوئه إذا استمرت هذه الإحساسات السيئة تغمره وتقلق حياته.

ويقول الأطباء إن 90% من أحوال الشعور بالغازات فى الأمعاء راجع إلى عوامل نفسية . ألم تشعر يومًا بعد غضب شديد بجفاف الفم؟ بل هناك من تصبح رائحة فمه كريهة نتيجة الغضب والجفاف أو كثرة الجدال المثير والمناقشة المزعجة.

ولماذا يصعب الهضم عندما يؤخذ الطعام في ظروف مؤلمة من حزن أو خصام أو أي توتر عاطفي؟ وما ظاهرة إفراز اللعاب عندما نشاهد الطعام بل وعندما نشم رائحته أو نفكر فيه؟ ولذلك كانت الكيفية التي يقدم بها الطعام من الأهمية في التأثير على الشهية والهضم، لا تقل عن طريقة إعداده.

ويكثر في بعض البلدان ما يدعي بـ «غداء الأعمال» يلتقي فيه شخصان أو أكثر لعقد صفقة أو حل مشكلة أو التحقيق وجمع المعلومات إلى غير ذلك. ويسود هذا الغداء عادة جو يشغل الفكر عن الاستلذاذ بالطعام أو حتى عن التفكير فيه. وإذا كان ذلك مفيدًا فيما يتعلق بالأشغال والنشاط المهني، فإنه من الناحية الصحية غير مستحب لأن الشخص ينبغي أن يكون مرحًا، مسترخيًا، بعيدًا عن جو المناقشات والمعاملات والصفقات والتقارير عند أوقات الأكل. ولكن

الناس قد تعودوا فأصبح وقت الغداء فرصة تستغل للاتصالات ومزيد من الأعمال.

وكما أن الإحساسات والمشاعر الضارة تحدث خللاً في توازن عمليات الجسم من مقاومة وإفراز وهضم، فإن المشاعر الإيجابية اللطيفة تحسن الحالة الصحية وتساعد الأعضاء على أداء مهماتها الحيوية. وإذا فكرنا في القول السائر «العقل السليم في الجسم السليم» وجدنا أن العكس صحيح وأن الجسم الصحيح مع العقل السليم. تظهر حالة الإنسان النفسية، صحيحة كانت أم عليلة في طبعه وسيرته وأخلاقه، تمامًا كما تبدو حالته الصحية في بنية جسمه. والتأثير لا ريب متبادل بين الصحة والمزاج وبين العقل والجسد.

لقد عرفت أناسًا لا يأكلون لمدة يومين أو ثلاثة بعد ثورة غضب، بل منهم من إذا جاءه خبر بالسفر يذهب نومه وتقل شهيته، ومن يتأثر كذلك بمشهد أليم أو قصة مثيرة فتمتلئ عيناه بالدموع ويسوده جو من الكآبة. ومن المؤكد أن أنواعًا من الأمراض الجسدية مثل القرحة وأوجاع الرأس وبعض الأمراض الجلدية والقلبية إلى غير ذلك تكثر نسبتها عند من يستمر شعورهم بالخيبة وتطول همومهم وتبرمهم بالحياة. ومن قبيل التأثير المتبادل أيضًا أنّنا نشاهد أناسًا ينقص وزنهم أو يبيض شعرهم تحت تأثير أنواع من المشاكل النفسية .

يحكى أن شجرة ضخمة ظلت تجابه الأعاصير والرطوبة ولم يثن لها غصنًا ثقل الثلوج، لفترة تزيد على مائة عام. وذات يوم، أحاطت بها أنواع من الحشرات، فراحت تحفرها وتأكل من داخلها رويدًا، حتى

أضعفتها وقضت على نضرتها. وما الحسد والخوف والحزن والقلق والانزعاج وحب الانتقام وغير ذلك من قائمة العواطف الضارة إلا حشرات ومكروبات تأكل باطن الإنسان وتنهك أجهزته الحيوية وتقضي على شبابه ونشاطه. فهل يبدو الآن جليًا مدى الضرر الذي يلحقه الفرد بنفسه عندما يتعود على عادات سيئة ويسمح للانفعالات الخبيثة بالسيطرة عليه؟ وهل يمكننا أن نتصور الآن ما يمكن أن تحدثه من ضرر وخلل تلك الإفرازات الكيميائية داخل الجسم إذا استمرت طويلاً؟

ويحضرني هنا، بمناسبة ذكر الحزن، ما يحكى عن رجل كان له ابنة يحبها حبًا جمًا، لأنه لم يرزق سواها. ومرضت الفتاة الصغيرة طويلاً، أحضر الأب لها عددًا كبيرًا من الأطباء، ولكن الفتاة العزيزة ماتت، فغلب الحزن على أبيها، وأصبح منعزلاً كثير البكاء. وذات ليلة رأى في منامه أنه في الجنة وشهد استعراضًا كبيرًا للفتيات الصغيرات، وكانت كل منهن تحمل شمعة مضاءة، والأب يحدق لعله يرى فتاته، وبينما هو كذلك شاهد فتاة تحمل شمعة منطفئة فاقترب منها وإذا هي ابنته فاحتضنها وقبلها باكيًا وسألها عن سبب انطفاء شمعتها. أجابت الفتاة «يا أبتي إنه كلما أشعلتها الملائكة أطفأتها دموعك» .

ومن قبيل تأثير العاطفة السلبية على الصحة ما يشير إليه المثل العامي القائل «نظرة العدو تقلل البصر». بل إن رؤية العدو تفعل أكثر من ذلك إذا كانت نفس الناظر تجيش بالحقد وتحترق رغبة في الانتقام. إنك لا تجني من الشوك العنب، ولا من الهم الصحة

والطمأنينة. وإذا تعود امرؤ على عادات هدامة مثل الانتقاد والخجل والانطواء والتشاؤم وغير ذلك من العادات التي لا تقل ضررًا بالصحة من عادات السكر والتدخين، فإنه من الصعب على الطبيب أو على أقربائه وأصدقائه أن ينقذوه، أو يقدموا له يد المساعدة إلا إذا شارك هو في العمل على إنقاذ نفسه .

ومما يسبب الكثير من المتاعب ما يشعر به بعض الناس من صراع نفسي داخلي بين جزئين من شخصية واحدة، جزء يمثل النزعات الخيرة الصالحة من سماحة وكرم ومحبة ولطافة وعطف، والآخر يمثل النزعات الشريرة من عدوان وسيطرة وكراهية وأنانية... ويمكن وصف النزاع بين القسمين بأنه أشد من الحرب الباردة، لأن الصراع يحدث داخل جسم واحد فينهكه ويسلبه الراحة والهناء.

ولا مناص للخروج من هذا المأزق إلاّ أن يعيد الإنسان تربية نفسه فيتعلم عادات صالحة ويراقب أفعاله ويساعد ما فيه من خير وقوى إيجابية على طرد الشكوك والشرور التي يمثلها الجزء السلبي من شخصيته.

ولا ينبغي للمرء أن يستسلم للإيحاءات الانهزامية، ولا أن ينظر للفشل الذي يمني به أكثر من أنه خطوة أو محاولة لا بد منها لتعلم الطريقة الصحيحة والوصول للهدف المنشود. ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يسمحون لصورة غلطة ما ارتكبوها أن تبقى عالقة بأذهانهم، أو لذكرى انهزام ما أن يبقى عالقًا بمخيلتهم. وتكون النتيجة سيئة عندما يتحول ذلك إلى شعور بعدم الثقة بالنفس ويصبح عائقًا لهم عن

الإقدام على مشاريع، أو القيام بأعمال وتعلم أشياء جديدة إلى غير ذلك. ومن قبيل العمل على محو صورة الفشل ما يحكى من أن الطيار عندما تختل طائرته أو تحترق في الجو فإنه يؤمر أن يطير فور نزوله سالمًا من الطائرة المحطمة. ويمكننا أن نعمم هذه القاعدة مع الطفل الذي تعلم السباحة، ثم ارتكب غلطة في سباحته، أو الطفل الذي أصبح يخاف من الظلام لأنه ترك وحده في غرفة مظلمة، وكذلك الحال عند تعلم القيادة أو فنون الرياضة أو القيام بتجارب في المخبر أو تعلم مهنة ما... والمقصود هو أن لا يفسح المجال للفرد أن يركز تفكيره على فشله. فالتفكير في الشر شر وتأمل العيب عيب، كما قيل.

فالإنسان وحدة متكاملة وعالم في حد ذاته مزود بالقوة التي تساعده على التغلب على الضعف والمرض، شريطة أن يؤدي الجسم والعقل واجباتهما على أكمل وجه، وأن ينسجم الفكر والخيال ويتعاونا على الخير. هذه القوة الحيوية الكامنة في الإنسان هي التي تسهر على أن تقوم مختلف أعضاء الجسم بوظائفها بصفة منتظمة، وهي التي تجعل الجرح يندمل وتوقظ وسائل الدفاع عند الشعور بالخطر. وعندما يحدث خلل يجعل هذه القوة عاجزة أو مقصرة على القيام بدورها تظهر على الجسم إشارات الخطر من حمى وصداع وإغماء، منذرة صاحبها بالانتباه مثلما يفعل السائق عندما يرى الضوء الأحمر في الطريق. وعندئذ يأتي دور المعالجة الذي يهدف إلى تنشيط دفاع الجسم سواء بالراحة أو الأدوية أو غير ذلك.

وقد أكد الأطباء أن الشخص الذي تجرى له عملية جراحية أو

يدخل المستشفى للمعالجة تتماثل حاله وتبرأ جروحه في وقت أقصر، وتكون مقاومته للمضاعفات أقوى، إذا كان من الذين امتلأت نفوسهم بالإيمان وقلوبهم بالابتهاج والرضى والانشراح، وكانوا ذوى مزاج متفائل وروح مفعمة بالخير والأمل. وكأنّ رغبة المريض في النهوض من سريره، واعتقاده بأنه سيشفى يشجع تلك القوة الحيوية ويدفعها للعمل على تحقيق ما يرغب فيه ويؤمن به. وهذا يزيدنا وضوحًا وتأكيدًا للدور الذي يلعبه التفكير الإيجابي والعواطف المهذبة والعادات الحسنة في تسيير نشاط الإنسان ومدى تأثيرها في صحته وتوازنه.

وإذا ساءت حالة الإنسان النفسية فإنه تسوء علاقته مع نفسه. وماذا نتوقع أن يحدث في علاقاته مع أفراد عائلته ، وزملائه في العمل ورفاقه في الشارع ، إنّ عواطفنا السلبية تكلفنا غاليًا. ولا أدل على ذلك مما نشاهد في المستشفيات من مرضى هم ضحايا التوتر العصبي، وما يسود كثيرًا من العائلات من جو مليئ بالخصام والانتقاد وسوء التفاهم. وقد هدم الشقاء أركان عدد من العائلات لأسباب تافهة كان يمكن تجنبها لو ساعدت التربية على خلق سلوك ناضج. ولا ينبغي أن ننسى ما يدفعه المجتمع من جراء ذلك لأن العلاقات الاجتماعية المثمرة لا يمكن أن تنمو إلا في جوّ من الانسجام والتفاهم والتعاون .

*****

الانفعالات المَرَضِية

إن التربية الصالحة تعلم الإنسان كيف يتصرف لحل مشاكله ومشاكل من كان مسؤولاً عليهم، وأن يعيش في انسجام مع العالم، وأن يكون تصرفه وسلوكه ناضجًا بحيث يكفل له الهدوء العاطفي، ويبعد عنه القلق والارتباك. وبالرغم من أننا نعرف أن الهم والخوف والتردد يمنع الفرد من التمتع بالحياة فإننا نستمر على ما ألفنا من عادات سيئة.

وبما أن اكتشاف الداء نصف العلاج، وتشخيص حالات وأوصاف الأشخاص الذين ترجع آلامهم وأمراضهم إلى أسباب عاطفية هي من اختصاص الأطباء، فإنه لا بأس من محاولة تقديم بعض الملاحظات والتحليلات بخصوص أولئك الذين يعانون أوجاعًا لم يجد لها الطبيب دواء . وسبق أن قلت أنه من الأهمية بمكان أن يتعرف المرء على نفسه. ربما تبدو فكرة تعرف المرء على نفسه ومالها وما عليها شيئًا غريبًا للبعض، ولكن الواقع أن كثيرًا مِنّا يحس بنوع من الغموض والبلبلة، ويتردد تجاه بعض المواقف... ويقوم بأعمال أو يحجم أمام أفكار، ولا يجد لذلك تعليلاً حاضرًا.

وغالبًا ما تكون مساعدة الطبيب النفسي للمريض أن يعرفه على نفسه بطريقة التحليل . ويطلب منه أن يسترخى كليًا وأن يتحدث

بحرية عن أسراره الدفينة والمشاكل التى يعانيها. وهذا يجعله يضع مخاوفه ورغباته في جمل وكلمات ويخرجها من ظلام الغموض والفوضى، ويكتشف الطبيب العقدة أو العقد التى كانت تقلق حياة المريض من مخبئها .

ولنبدأ بالقول أن الشكوى الرئيسية لمن كان مصابًا بمرض الانفعالات الضارة هو التعب والآلام الجسمية التي «لا يعرف لها سببًا» لأنه يصعب على كبريائه أن يعترف بوجود عواطف سيئة، وبالعكس من ذلك نجد أن الشخص الذي يشكو من مرض ناتج عن تخمة أو فقر دم أو مكروب أو غير ذلك من الأمراض العضوية الصرفة، نجده يشير بالضبط لمكان الوجع ويعرف أوصافه بدقة. والشخص الأول ينتبه لأقل الآلام لأنه ذو إحساس رهيف. وهو سريع التأثر إذا وجد نفسه في مواقف غامضة.

وهذا الشخص يحمل ظنونًا سيئة تجاه الناس فيزيد ذلك من متاعبه وعزلته، وينتج عن ذلك أن يزيد انتقاده لمن حوله فلا تكاد تقع عيناه على شيء يستحق الشكر. ويصعب على مثل هذا الشخص أن يركز طويلاً على عمل معين، ولا يستمر عادة في مشاريعه حتى النهاية، لأنه يملك مقدارًا محدودًا من الصبر . وهو لا يعترف بغلطاته أو نقائصه لأنه كمن يسكن في بيت من زجاج كل انتقاد يبدو له كأنه حجرة تحطم مسكنه، بل كأنه هو نفسه رُكّب من زجاج يحدث أقل اللوم انشقاقًا في كيانه ويفسد أقل المزاج مزاجه فتنقص قيمته أو هكذا يعتقد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض هؤلاء المصابين بمرض نفسى يبدون هادئين، وقد لا توحي إلينا مظاهرهم بالانفعالات الداخلية فهم أشبه بالسيارة ما ينفك محركها يشتغل وإن كانت باقية في مكانها، وهذا أحد الأسباب التي تجعلهم لا يستفيدون من أوقات راحتهم وعطلهم حتى ولو كانوا يمضونها جالسين ، متسكعين، لأن فكرهم في سباق وغليان وانشغال مستمر ، يقوم الواحد منهم بحسابات حول الحوادث الماضية ، وتخمينات تجاه المستقبل، ومقارنات لحالة معينة، وتفسير لما فعله أو قيل له في حادثة معينة، وكيف كان ينبغي أن يتصرف تجاه مسألة كذا، وأنه لو فعل كذا لما حدث كذا... ومثل هؤلاء منطوون على أنفسهم، يركزون اهتمامهم حول شخصهم، وهم قليلو الصلة بالعالم والناس من حولهم. غير أن هذا لا يعني أنهم لا يرغبون في لفت الاهتمام والأنظار إلى أنفسهم لأنهم في الواقع متعطشون للشكر والتقدير والاعتراف، ذلك لأنه في أعماقهم يعتقدون أن الحياة لم توفهم حقوقهم، وأنهم مهملون وأن الناس لم يقدّروا مساعيهم ومجهوداتهم، ويقول الأطباء أن مثل هؤلاء المتوتري الأعصاب يشعرون بالتعب في الصباح لأن النوم لا يجلب الراحة لجميع أجزاء الدماغ.

ومن المتعبين نفسيًا من يمكن وصفهم بأنهم «كماليون» لأنهم يتشددون في محاسبة أنفسهم وغيرهم على أقل الصغائر. وهم يجعلون حياة أقربائهم وأصدقائهم جحيمًا بسبب تدفق الملاحظات والنصائح واللوم والإرشادات والانتقاد حتى فيما يخص أصغر الهفوات. وهم يتشددون في المحافظة على المواعيد (بالدقيقة)، وتدفعهم الوساوس إلى الإفراط في مراعاة وسائل النظافة كغسل

اليدين بعد كل مصافحة، كما تجرهم ظنونهم السيئة بالناس إلى الانزواء واختيار العزلة؛ لأن النفس العليلة لا تتحمل لقاء الجماهير وتشعر بأن النشاط الاجتماعى عبئًا ثقيلاً.

يشتكي بعض العصبيين من عدة أمراض في آن واحد. إنَّ المشاعر المزعجة المزمنة إذا طالت ولازمت الإنسان فإنه يألفها كما يألف القهوة أو الشاي، ولا ينتبه للأخطار إلا قليلاً، ولكنها خلال ذلك تعمل في خفاء وهدوء فتصيب معناوياته وقلبه وبصره ومعدته وأعصابه ومفاصله وأجهزته الحيوية الأخرى.

والطبيب الخبير لا يرسل بمثل هؤلاء إلى غرفة العمليات لأن حالتهم تستدعى تشخيصًا خاصًا ودقيقًا، وهم أجدر بأن يوكلوا إلى معالج نفسي، إذ أنَّ الذي يحتاج للعلاج ليس مكانًا أو عضوًا معينًا فقط بل الشخص ككل. ويمكن للشخص الذي كان وما زال يشكو من الآلام هنا وهناك في جسده، وإذا كان تاريخ هذه الأوجاع يعد بالسنوات، وكان يتصف ببعض الصفات المتقدم ذكرها ولم تنجح الأدوية والأطباء في تحسين حالته، يمكنه أن يطمئن قليلاً وأن يتقبل نفسه ومصيره ويعترف بأن ما ورث عن أجداده من استعدادات جعلت معدنه ضعيفًا حساسًا، وما عليه الآن إلا أن يعيش مع نفسه ضمن حدود طاقاته ومؤهلاته . ومما يساعده كثيرًا أن يغير نظرته للحياة إن كان من أولئك الذين يتلقون كل نازلة بالتمرد والسخط والتشاؤم، لأن هذه الصفات لا تزيد حالته إلا سوءًا . إن الأمل والشجاعة والرغبة الصادقة في الشفاء، وشعور المريض بأنه لا بد أن ينهض من فراشه أو يخرج من المستشفى قريبًا لأن عائلته ومشاريعه والمجتمع في حاجة إليه ، كل ذلك يسرع به نحو الشفاء . وكثيرًا ما تتحسن حالة مريض

عندما يحصل على عمل كان يرغب فيه أو بعد قيامه بسفر ممتع أو بمجرد زيارة أشخاص تسره معاشرتهم .

وجدير بالملاحظة هنا أن الأكثرية ممن تصيبهم الأمراض العصبية وتسيطر على أفكارهم المشاعر السلبية هم غالبًا من المثقفين والموسرين والأذكياء ذوي الإحساس المرهف. إن الجهاز العصبي عند هؤلاء يعمل بدقة أقوى وانسجام أعمق ولذلك نجدهم أكثر تنبهًا لما حولهم وتأثرًا به. ويمكن القول أن الفلاح والقروي أكثر قناعة ورضى بحياته البسيطة ودخله المحدود. وهو لا يزور الطبيب بانتظامٍ يشكو من الأرق أو سوء الهضم ووجع الرأس كما يفعل الموظف مثلاً. ولا نرى الفلاح يحمل مهدئات الأعصاب ومسكنات الأوجاع. وقد يرجع ذلك إلى اختلاف نمط الحياة وظروف العمل. ولا مجال للتعميم في هذا المجال.

وبخصوص الأفراد ذوي المشاعر اللطيفة المرهفة والضمير اليقظ الذي كثيرًا ما يقسو في محاسبتهم، يمكن القول أن هؤلاء متفانين في خدمة الصالح العام، وهم إذا وجدوا من يثق بهم ويعترف لهم بالفضل (وهذه نقطة ضعف) مستعدون للتضحية لخدمة الغير. وهذا الاستدراك ينفي القول بأن ذوي الحساسية الذين يعانون بعض المشاكل النفسية لا يقدرون على خدمة المجتمع . بل إن كثيرًا من العظماء والكتاب والشعراء والمخترعين كانوا أشخاصًا أشد إحساسًا وأسرع تأثرًا بما حولهم من حوادث وأصوات وألوان وأشكال وأفكار.. وهم يتمتعون بخيال وذكاء أدق من غيرهم ولذلك يصبح ضغط المؤثرات الخارجية على أعصابهم أعمق وأقوى .

*****

تحقيق الذات

خلق الله الإنسان في أحسن صورة، ومكنه من الحياة ليحقق هدفًا ما ويلعب دوره . والناس يأتون إلى هذا العالم وهم في الغالب يكسبون آلات متساوية ومتشابهة من أيد وعيون وعقل ومشاعر... إلخ وقد يعترض القارئ الكريم قائلاً بأن الوراثة تهب لأناس ما تحرم منه آخرين. والواقع أن العبقرية أو الذكاء الخارق ليسا بشرط ضرورى للسعادة. وتبدو الصورة المثلى في المساواة الإلهية فيما وهب المرء من قوة داخلية خلاقة واختيار في التصرف يمكناه من تغيير عاداته من عادات سيئة إلى عادات صالحة . وكذلك، إن أحسن استعمال هذه القوة، فإنه يمكنه أن يحيا حياة سعيدة حتى ولو أن الظروف لم تسمح له بالحصول على ثقافة واسعة أو الثرى أو الجمال أو السلطان. وكم شاهدنا من جبان وخجول عاش حياة الخمول وفجأة في مناسبة ما أو بعد حادث ما (معركة، كارثة، حادث مهم..) اكتشف أنه أشجع أو أقدر أو أجرأ أو أكثر قيمة مما كان يعتقد، وعمل على تغيير نمط حياته، وكم من شخص كان مهملاً أو منسيًا ، امتحنته الظروف وألقت عليه بالمسؤولية فأتى بما لم يكن يتوقع منه .

وهذه القوى الخلاقة موجودة فى الإنسان، كل إنسان، وهي سند كبير وكنز لا ينفذ. ولكن لا بد لاستغلالها أن يؤمن المرء بنفسه ويحسن بها ظنًا، وأن يعتقد فيها القدرة على تحقيق ما يطمح إليه، وأن يقدرها

حق قدرها. ومعنى هذا أن لا يحلم أن يصبح بطل العالم في الملاكمة إذا كانت قواه الجسمية لا تسمح له بذلك، أو متنبي القرن الرابع عشر، أو ابن خلدون العصر الحديث إذا كان لا يعرف شيئًا عن الشعر والتاريخ والفلسفة. ومعنى ذلك أيضًا أن لا يسيء الظن بنفسه ويفقد ثقته بها. والإنسان الناضج هو الذي لا يبالغ في تقدير وجوده وإطراء إمكانياته متجاوزًا حدود المعقول، ولا ينقص من قيمته فيفقد الثقة بنفسه ويضيع الفرص بشكه وتردده. فالذي يقدر نفسه حق قدرها يكون قد قطع شوطًا كبيرًا نحو النجاح المادي والعاطفي.

وإذا كان الإله قد خلق الناس متساوين في آلاتهم وقواهم الخلاقة ولم يخلق إنسانًا عبثًا، وسمح لهم بحرية التصرف فيما وهبهم من نعم ومزايا وملكات، فإننا نشاهد من يستعمل ذلك للهدم والشر، ومنهم من يستخدم ما وهب للخير والبناء .

والأمثلة كثيرة على الذين أساؤوا استعمال ملكاتهم أو لم يستعملوها البتة، أولئك الذين يعمدون في حياتهم إلى التقليد أو التصنع والتكلف. وتأتي أعمالهم وتصرفاتهم غير طبيعية ومن ثمة غير خلاقة، لأنهم ضائعون يكيفون حركاتهم وأحاديثهم وتصرفاتهم وحتى ملابسهم على الصورة أو النمط الذى يعتقدون أنه يعجب الناس.

وهؤلاء يقدرون أراء غيرهم فيما يأتون من أعمال أكثر من اللازم ويتلهفون للمديح. وهم عند ما يقلدون الآخرين لا ينتبهون أو لا يفكرون بأنهم يقتلون تلك القوى الداخلية الفردية الخلاقة ويقضون على استقلالهم الشخصى.

وكيف لا يكون المرء شقيًا عندما يدفن منابع نفسه ويسيئ استعمال مواهبه ويضيع مجهوداته محاولاً أن يكون شخصًا آخر، ولو شاء الله لخلق شخصين متشابهين في الطبع والعواطف والصفات الأخرى. والحقيقة أن هؤلاء المقلدين يملكون من الإمكانيات والمواهب والطاقة الذاتية ما لو أحسنوا استعماله لكانوا مثالاً يحتذى.

وهذا طبعًا لا يشمل من التقليد ما كان مؤقتًا كمصدر للإلهام، والذي يقود الشخص تدريجيًا إلى اكتشاف نفسه والتعبير عن شخصيته وتجاربه. فالإنسان في هذه الحالة يسترشد ويحاول أن يأخذ ما هو مفيد وموافق لظروفه ومزاجه. وهو في محاولته هذه لا يلبث أن يضفي طابعه على ما أخذ بما يضيف من إنتاج، فيصبح الكل ذا صبغة جديدة معبرًا عن شخصيته وملائمًا لظروفه. والفرق بيّن بين تقليد يذوب الإنسان فيه سواء كان التقليد في المنظر أو في الفكر، وبين تقليد يتخذه الإنسان كوسيلة تساعده على اكتشاف مواهبه. فبينما يقبل الأول بالتسليم والانقياد، يعتمد النوع الثاني على مقابلة الإنتاج بما يشابهه أو يفوقه، وقبول الفكرة أو النموذج أو غير ذلك من أجل التبديل والتغيير والمقارنة لا من أجل الإعجاب والتصفيق فقط: ومن لم يكرم نفسه لَمْ يُكَرّمِ .

لكل منا طاقات ومؤهلات أكثر مما نظن. ومن الضروري أن نعمل على كشفها واستعمالها في مجال تقدمنا الفكري والصحي والاجتماعي. والإنسان كما قيل عندما يبلغ الأربعين إما أن يصبح حكيمًا أو فاشلاً، أي أنه لابد أن يعرف من هو وما يساوي على الأقل عند بلوغ «سن النبوة».

ومن نتائج جهل الإنسان لنفسه، وإساءة استعمال مواهبه ما نلاحظه عند بعض الأفراد الذين يفشلون في تحقيق ما يطمحون إليه، ولا يوفقون حتى في الحصول على المآرب التي هي في نطاق الممكن. نلاحظ أنهم يأتون بأعذار غير منطقية لتغطية فشلهم وللاحتفاظ بكرامتهم (حسب ظنهم طبعًا) ظانين أنهم أقنعوا الناس من حولهم بتعاظمهم الخيالي وما يخدعون إلا أنفسهم لو كانوا يعقلون.

وهذا العطف على النفس يجعل صاحبه يلوم فشله على أسباب مختلفة، ويغطي غلطاته تارة بسوء الحظ وآخر بعدم استعداده للمناسبة، وهو من جماعة «السيارة لم تشتغل، الظروف لم تساعد، لو لم يكن كذا لوقع كذا... إلخ» وهي أعذار خيالية يراد بها تبرير الموقف وتغطية الضعف والتظاهر بالكمال. ويمكن القول بصفة عامة أن الإنسان يميل إلى التفاخر والتباهى بأن مسؤولياته أصعب وأعماله أهم لأن معنى هذا أنه هو أشجع وأذكى إن نجح في مهامه، أما إذا فشل فيساعده ذلك على القول «لو قام بها غيري لكان مصيره مثلي أو أسوأ». ويذكرنا هذا بالطفل الذي كان يطبع واجباته المدرسية على الآلة الكاتبة وعندما سأله المعلم على الغلطات أجاب بأن الآلة هي المسؤولة على الأخطاء .

اعتراف الإنسان بمواطن ضعفه أول خطوة نحو إصلاح نفسه، ذلك خير مِمّنْ يخفي متاعب نفسية ومادية خوفًا من أن يكتشف الناس حقيقته. فهو يحاول أن يبدو مطلعًا ولكن بتكلف، ويحاول أن يلبس

أجمل من جاره ولكن بالاستدانة، ويحاول أن يحتفظ بمركز معين أو مستوى معين ولكنه لا يملك الوسائل الكافية. فالعطف على النفس عقدة نقص تضعف العزم وتجعل صاحبها من فئة «لو كان»، غير مسؤولين مباشرة عن أى شيء أو عمل إلا ما كان فيه ناجحًا موفقًا، وكما نعلم لا ينجى النعامة أن تدس رأسها في الرمل.

وعقد النقص هذه ككثير من العقد، كثيرًا ما تنشأ في عهد الطفولة أو بعدها عندما يجتاز الشاب فترات عسيرة من حياته العائلية، يكون حظه من العطف والاهتمام فيها قليلاً، فينطوي على نفسه ويعوض عن ذلك بالعطف عليها كخطة للدفاع عن كبريائه ووجوده.

ويعتقد بعض الناس أن أجسامهم تعمل مثل الآلة أو المحرك، لا تؤثر فيها التيارات العاطفية، فنراهم وقد تقبلوا شقاوتهم كأمر لا مناص منه. وهم يدفعون بأنفسهم في مسابقات ومنافسات بدون هوادة ولا رحمة، ويتبعون عادات تتنافى مع القوانين الطبيعية التي تسير الحياة. وقضت المحكمة الإلهية (أو قوانين الحياة لمن لا يؤمن) أن يكون الجزاء من جنس العمل وأن يحصد الإنسان ما زرع، ومن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره. ذلك لأن الفرد مزود بإرادة ذاتية تمكنه من اختيار موقف معين سلبيًا كان أم إيجابيًا نظريًا أم عمليًا.

إنما الأعمال بالنيات. فمن كان مدفوعًا في منافساته ومزاحمته للآخرين بروح التناحر والتفاخر الأناني فإنه يجعل منافسته مشاحنة ومعاندة ونوعًا من المقاتلة بسلاح العواطف وهذا يؤدي للعداوة والتنابذ

والتحاسد والتعاسة . أما المنافسة المحمودة فتكون في ميدان الصالح العام. ويهدف صاحبها للتقدم والربح دون حسد ولا محاولة للنيل من مصالح الغير . وهذه المنافسة تكون حافزًا لزيادة الإنتاج ومنشطة لقوى الإنسان المبدعة.

وهناك التاجر الذي يرغب في تحطيم تجارة شخص آخر، والموظف الذي يسعى بجهده لمنع موظف آخر من الحصول على رتبة أعلى منه، والشاب الذي يلجأ للحيلة والمخادعة لمنع شاب آخر من الزواج بفتاة أحلامه، والزوجة التي لا تنفك تحدث زوجها قائلة: سيارة جارنا أجمل من سيارتنا، أثاث بيت فلان أحسن من أثاثنا، جارتي تشتري كل شهر ثوبًا جديدًا، فلان عنده تلفزيون... إلخ ففي كل هذه الأمثلة وآلاف أخرى من حياتنا اليومية توجد بذور المنافسة الضارة التي تنمو شجرتها في جو من الأنانية والكبرياء الجوفاء، وتسقيها الغيرة والحسد والغباوة. ومن يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة. والثمار التي يجنيها ذوو المنافسة المنحرفة هي القلق النفسي والشعور بالخيبة. وكثيرًا ما ينقم الزوج على زوجه والموظف على زميله والتاجر على جاره لأن المساعي التي يقومون بها وإن كانت تصحبها الرغبة في تحسين الوضع، فإنها مساعي النفس الجشعة ورغبة ممزوجة بالجشع والأنانية والأثرة.

وكم من شخص كد واجتهد وماطل ونافس للتغلب على خصمه أو تحقيق رغبته، ووجد نفسه في نهاية المطاف لا يتمتع بالطمأنينة والرضى عن النفس المنتظرين. بل تركته مشاحناته وطموحه الأنانى

يَرْزَحُ تحت أنواع من العلل النفسية والجسدية مثل القرحة والصداع المستمر والقلق والتوتر. وتبدو هذه الحالة جلية في البلاد المتقدمة ذات النظام الرأسمالي والمنافسة الحرة. هناك نجد رجال الأعمال يطمحون للسيطرة على السوق وتوسيع محور نفوذهم التجاري، غير مبالين بالنتائج التي غالبًا ما يدفع ثمنها المستهلك من الناحية المادية، والتي تنتهي ببعض أرباب العمل على كرسي طبيب النفس أو يدفع ثمنها جهاز الهضم والقلب والأعصاب .

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى نوع من الناس منهم عادة عمال وموظفون، يأخذون الحياة بجدية تتجاوز الدور الذي يقومون به. فهم يشعرون مخلصين ولكن في شيء من البلاهة، أن العمل جميعه متوقف على ما يقومون به، وقد يكون هؤلاء ممن يشعرون بالمسؤولية ويقدرون، الواجب حق قدره. وهم يطمحون للمشاركة بشيء نافع للبلاد أو للإنسانية ، غير أنهم ينطلقون من نقطة مخطئة وهي أنهم يجب أن يراقبوا كل شيء، ويطلعوا على كل شيء بأنفسهم حتى ولو كان ذلك خارجًا عن نطاق اختصاصهم.

والشيء الذي يساعد هؤلاء ويخفف من متاعبهم هو أنهم يجب أن يثقوا بمن حولهم من مساعديهم وأن يوكلوا لهم قسمًا من العمل. ولا شك أن المسؤول الذي يرغب في أن يراجع كل ما قدم إليه من عمل يشك في معاونيه فلا يترك لهم زمام المبادرة في حل المشاكل التي لا تستدعي اهتمامه، مثل هذا المسؤول ينهك نفسه ويصبح إنتاجه ضعيفًا وسطحيًا لأنه في محاولته القيام بكل شيء يبعثر مجهوداته بدلاً من أن يركزها على القضايا المهمة.

والإفراط في العمل إلى درجة الإجهاد لا يعود بالخير على العمل في حد ذاته . فالمرء تزداد غلطاته وتقل قدرته على التركيز عندما يواصل العمل في المنزل وهو متعب أو يأخذ المنبهات. ثم إن الذي يدفع الإنسان لبذل مجهودات مرهقة وهو متعب قد يكون شعوره بعدم كفايته لهذا النوع من العمل، أو شعوره بالنقص وتخوفه من المسؤولية. ولا ريب أن المسؤولية تستلزم بذل جهود إضافية وتضحية وعناية زائدة، غير أن العمل الإضافي الذي يقوم به صاحبه في استرخاء وثقة غير مصحوب بمشاعر الخوف والتلهف والتوتر لا يتعب. ومع ذلك فلابد من فترة للراحة الكاملة يبتعد فيها الإنسان عن التفكير في عمله وذلك مما يساعده على القيام بمهمته خير قيام.

ولنتصور ما يحدث عندما يذهب الإنسان في الصباح إلى عمله وهو في حالة تعب وإرهاق. إنه لا يستطيع أن يركز تفكيره على شيء معين لمدة طويلة، وإن فعل فإن تفكيره يكون غير منسجم وغير واضح، وسرعان ما يكتشف أنه يخبط خبط عشواء، وأن أعصابه متوترة وأنّ إمكانياته الفكرية غير قادرة على الاستيعاب. وفي مثل هذه الحالة يكون الشخص متحفزًا قلقًا سريع الغضب لا يتحمل من يخالفه. ومن الأفضل له أن يذهب لينام، وإلا فإن توتره وشعوره بالعجز يزداد . وهذه الانفعالات إذا تكررت هي التي تخلق حوادث العمل، وصعوبة الهضم، ونوبات القلب والصداع إلخ. ويؤكد الخبراء أنه لا بأس بوجود جزء محدود من الضغط العصبي لأن ذلك نتيجة تجاوبنا مع المحيط في حياتنا اليومية، غير أن المتاعب تبدأ عندما يسمح الشخص للتوتر

العصبي أن يستمر ويبلغ درجة من القوة ، بحيث يؤثر في المعطيات الفيزيولوجية العادية داخل الجسم .

وليس من داع لأن يعتبر فرد نفسه محور الأرض، فالواقع يثبت أن كل إنسان يمكن الاستغناء عنه. فالذي يتصرف وكأنه يحمل هموم العالم على كتفيه، ويحمل مفتاح المشاكل في جيبه، إنما يفعل ذلك بداع من حب التظاهر والتعاظم، وهذا خلق سلبي ضار ، «فمن ناط بالعجب عرى أخلاقه، نيطت عرى المقت إلى تلك العرى». والدور الفردي في حياة عصرنا المعقدة المتخصصة لا يأتي بنتيجة مثمرة إلا إذا اعتبر كجزء من كل؛ أو نغمة من لحن؛ وينبغي أن يكون هذا الجزء وهذه النغمة في انسجام مع ما يحوط بها وما يشاركها لبلوغ الهدف المرجو. وأبسط مثال على ذلك يمكن أن نذكر الفريق الرياضي لكرة القدم. فلو رغب كل لاعب أن يظهر براعته منفردًا ولعب دوره غير آخذ بعين الاعتبار «روح الفريق ووحدته» التي يجب أن تسود وتخلق الانسجام والتعاون بين اللاعبين لكان مآله الفشل والانهزام.

ومن جهة أخرى فإن كون الإنسان يشعر بأنه مركز الاهتمام أو يرغب في لفت الأنظار إلى أهمية دوره، فإن ذلك تكلف متعب وتصنع شاق. ولقد ذهب عظماء وملوك وزعماء وأبطال وبقيت الحياة تتابع سيرها والبشرية تواصل إنتاجها وتقدمها. فهون على نفسك يا من يحمل هموم العالم وأثقاله، وثق فيمن حولك وحول إليهم ما لا تستطيع من الأعمال.

هَوِّنْ على بصر ما شق منظره

فإنّما نظرات المرء كالحلم

*****

الهــــدف

إن الشخص الذى يؤمن بأهداف ويسعى لغاية معتقدا أنه سيصل إليها، هو شخص ناجح. وهو بعمله هذا وإيمانه ينشط قواه الحيوية ويملأ فراغ فكره ووقته بعمل إيجابي . فالمحرك الحقيقي الذي يدفعنا للقيام بنشاط هو ما نرسمه من غايات وما نخططه من أمال نعقد العزم على تحقيقها. ولا بد أن يصحب أهدافنا رغبة تدفع بالإرادة للعمل الجدي المستمر. وإذا كان كل نشاط وعمل يبدأ أولاً كفكرة، فإن الإنسان المفكر الذي لا يتمتع بالرغبة في تحقيق أفكاره وإخراجها لحيز الوجود يكون إنسانًا غير عملي. لقد كان الهاتف والكهرباء والمذياع والسيارة والطائرة والتلفيزيون وغير ذلك من قائمة المخترعات اللانهائية كل ذلك كان فكرة، ثم طبقت الفكرة فأصبحت إنتاجًا نتمتع به. وكذلك فكرة الطالب في النجاح والملاكم في الفوز بالبطولة والمؤلف والمهندس والفلاح وغيرهم.

وإذا لم يكتشف المرء لنفسه هدفًا، فإنه يعيش مترددًا، يبدأ عملاً ثم يهجره ويفكر في شيء ثم لا ينفذه، كريشة في مهب الريح، لا يستقر على حال. وهو يشعر بالفراغ وعدم الجدوى والتقصير، لأن الله لم يخلق الإنسان عبثًا، ولا ليكون كتلة من اليأس والفشل، بل لينفع وينتفع، وليتمتع بما في هذا الكون من خيرات وجمال ونظام وأسرار، وليضيف لهذه الخيرات من نشاطه ويضفي على الناس من تجاربه وعلمه

ومحبته وإخلاصه، وهذا ما يزيد من سعادته لأنه يكون عندئذ قد حقق الحكمة التي وجد من أجلها .

ويستحيل على من كانت نفسه تفيض كراهية وحقدًا وتجيش بالخوف والقلق، ومن كان فكره بِرْكة عكرة مضطربة أن يكتشف هدفه الحقيقي وأن يوفق في الوصول إليه. سألت ذات يوم شابًا جزائريًا كان قد أمضى عدة سنوات في الكفاح الوطني: ما هي أصعب فترة مررت بها خلال فترة الجهاد؟ وكم كان عجبي عندما أجاب: «كانت أصعب فترة هي بعد أن جرحت وبقيت منتظرًا على الحدود في إحدى المعسكرات. وسألته: منتظرًا ماذا؟ فقال: «لو كنت أعرف ما كنت أنتظر لما كانت تلك الأيام صعبة. لقد أحسست بأنني أصبحت عالة بعد أن أصبت، ولم أكن أعرف فيما إذا كنت سأرجع للجزائر أم أرسل للخارج للعلاج. أجل، لقد كان لهذا الفتى هدف ، غير أنه لم يكن هدفه واضحًا، ولم يكن يملك حق اتخاذ قرار عاجل بنفسه، وبقي فترة الانتظار دون عمل وهذا ما جعل فكره مضطربًا. ولم تكن متاعبه الصحية الناتجة عن جروحه هي التي أقلقته، بل مشاكل نفسية ناتجة عن كونه لم يكن له آنئذ عمل معين يشغله، ولم يكن له برنامج بين لحياته في المستقبل (مؤقتًا على الأقل). وقد كنت أنتظر أن يكون جوابه وصفًا للمعركة أو قتاله مع العدو أو على الأقل حصارًا شديدًا طالت مدته .. ولكنه صدق لأن المرء الذى ينتظر وهو يجهل مصيره، لا يجد للراحة سبيلاً ولا للأكل طعمًا ولا للحياة مغزى.

والحياة ليست هدفًا في حد ذاتها، بل وسيلة لتحقيق أهداف.

والغايات تحقق عندما تشتد الرغبة التي تدفع الإنسان للعمل. وأجد نفسي هنا مضطرًا لتأكيد أهمية عناية المرء بعواطفه ومراقبتها، لأن العاطفة هي التي توجهنا وتدفعنا للاهتمام بالشيء أو إهماله. والرغبة في النجاح هي العاطفة التي تحرك الإنسان للعمل وتجعله يسهل الصعاب ويضحي بالراحة لبلوغ هدف ما .

وجسم الإنسان وفكره يشبه، إن أمكن القول، الآلة التي تزداد قوة وجمالاً بالاستعمال (حسن الاستعمال طبعًا) وتصدأ وتضعف بالإهمال، فإذا عكف شخص على استعمال طاقاته وتنظيم مجهوداته وتوجيه مؤهلاته بطريقة ينسجم فيها الفكر والجسم ويتآزران، فإن هذا الشخص يكون أكثر حيوية ونشاطًا وصحة. وعلى العكس نشاهد أن الكسول الخامل المتسكع المتقاعس سرعان ما يفقد قدرته على التفكير السديد وكثيرًا من طاقته الجسدية.

وقد أكد لي أحد الأطباء، وكان متخصصًا في أمراض الجهاز الهضمي، وقد أمضى أكثر من خمسين عامًا في معالجة المرضى، أكد لي بأنه لم يلق في حياته شخصًا قتله العمل. وقال: «إن الإنسان قد يعاني التعب إذا كانت له مطامح يصعب تحقيقها، ومن الخيبة والهموم». ويمكن التأكيد لأولئك الأشخاص الذين يلومون متاعبهم على العمل، إذا، بأن العمل بريء، وأنهم يجب أن يفتشوا على الخلل أو العيب في أنفسهم، وفي علاقاتهم مع العمل. نضرب لذلك مثلاً، عندما يشعر الفرد بأنه غير كفء للمهمة أو الوظيفة يفقد سيطرته عليها وينتج عن شعوره بعدم الكفاءة رد فعل تتدخل فيه العواطف. وهكذا يصبح العمل متعبًا.

وضرورة العمل لغاية وهدف ليست مفيدة للشباب فحسب، بل تزداد أهميةً كلما تقدم الإنسان في العمر ، وما أسوأ العادة التي يتبعها كثير من شيوخنا الذين بلغوا سن التقاعد، فأصبحوا يعتقدون أن أيامهم الجميلة قد انتهت وأن أكثر ما يمكنهم عمله الآن هو أن يجلسوا في الشمس والمقاهي ويتحدثوا عن قصص شبابهم. وكان الأولى لهؤلاء أن يستمروا في العمل من أجل المحافظة على حياتهم الفكرية والجسدية، ولأن المجتمع في حاجة إلى جميع الطاقات، وكذلك رفقًا بهؤلاء الذين إن فقدوا نشاطهم وحماسهم أصبحوا يشعرون أنهم عالة. ومتى فقد المرء النشاط والحماس فما أشبه حياته بحياة نباتية، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

وأذكر أنني تحدثت يومًا إلى سيدة أمريكية عمرها 72 سنة، وكانت تشتغل في البناية التي أسكنها. قالت هذه المرأة بأنها تحب عملها لأنه يمكنها من مخالطة الناس، وأنها ستستمر إلى سن الثمانين في عملها لأن ما وفرته حتى الآن يكفيها للحياة حتى سن الخامسة والتسعين. وبما أنها تتوقع أن تتجاوز هذه السن، فهي توفر الآن حتى لا تصبح عالة بعد سن الـ95 سنة، واستمرت في تفاصيل البرنامج مستعملة كلمة إن شاء الله. وهذه الإرادة من أجل الحياة لا تتنافى مع الشرائع ولا مع قانون الحياة.

ونحن نلاحظ أن الإنسان يمضي عادة ثلث حياته أو نصفها في الاستعداد للحياة المنتجة. وهو خلال هذه المدة مستهلك فقط. بعد

ذلك يدخل ميدان الحياة العملية. فإذا استمر في الإنتاج لمدة تساوي مدة الاستعداد والتحضير فقط، فإنه يكون قد دفع وأنتج مقدار ما استهلك (هذا افتراض لتوضيح الفكرة فلا داعي للدخول في الأرقام والإحصاءات) فماذا قدم للمجتمع وما هي مساهمته في سبيل التقدم والازدهار ورخاء المعيشة؟ وما هي مشاركته لإعالة الأفراد غير المنتجين في المجتمع بما في ذلك زوجه (إذا كانت غير موظفة) والعاجز والأبله والكسول؟

كثيرهم أولئك الذين يخشون كبر السن، ويحسبون له ألف حساب. يبدأون الاستعداد السلبي الذي يقربهم من الشيخوخة بسرعة ويقررون، في سن معينة، أنهم أصبحوا غير قادرين على هذا النوع أو ذلك من العمل، دون مرض أو ضعف أو إرشاد من الطبيب، بل لمجرد إيحاء فكري أو جريًا على العادة أو خوفًا من أن يتهمه الناس بعدم القناعة بعد أن كبر أولاده وأصبحوا يعملون.

ويصبح هؤلاء المتقاعدون يخشون الغد لأنه يمثل خطوة نحو العجز. ولو ظلوا نشطين، ليس حتميًا في الوظيفة أو المعمل أو الحقل بل أي نشاط اجتماعي خيري أو عمل في المنزل (مهنة أو هواية) لخلق ذلك لديهم استعدادًا إيجابيًا يساعدهم على التغلب على أمراض الشيخوخة ويطيل نشاط العقل والجسم ويجعل قلوبهم مفعمة بالمحبة والبهجة في سنوات النضج.

وكم يخسر المجتمع عندما يبدأ بعض الناس نساء ورجال، يحدثون أنفسهم ومن حولهم بمجرد بلوغهم سن الخمسين قائلين

«وقتنا فات لم يبق لنا إلا القبر» ومن قلة الحكمة أن يكرر الإنسان عبارات كلها يأس وتذمر وموت، ويرسم أهدافًا مشؤومة ثم يعرضها على شاشة مُخَيِّلَتِهِ حتى تصبح جزءًا من اعتقاده وحياته. والخطأ في تفكير المتقاعدين هو أن الناس أو المجتمع لم يصبحوا في حاجة إلى خدماتهم وأنهم أصبحوا غير مفيدين ويصلون هذا بكونهم الآن قاب قوسين أو أدنى من المقبرة. ويلازم من كان منهم متدينًا المسجد؛ وآخرون يكثر ترددهم على المقاهي وفي كلا الحالتين تصبح حياتهم على وتيرة واحدة خالية من الابتكار والحماس والنشاط.

وأرجو أن لا يستنتج القارئ الكريم مما تقدم أني أعتبر عدد السنين مهمًا في حد ذاته. فالحياة مهمة في نوعيتها وكيفها ليس طولها فحسب، ولكني أقول أن الإنسان ينبغي أن يكون مفيدًا ومنتجًا لتكون حياته غنية ويشعر بالرضى على نفسه. وأن هذا الشعور نفسه يساعده على تأدية رسالته ويشجعه على الاستمرار في التمتع بالحياة حتى تنتهي أيامه.

وهناك فرق بين التقاعد من عمل معين والتقاعد من الحياة. فلابد إذًا من أن يتعاطى المسن نشاطًا ما يمكنه من الاحتفاظ بكرامته، ويشغل فراغ الفكر بشىء إيجابى لئلا تسرع إليه الوساوس وتسكنه المخاوف والهواجس.

ومن الناس من يعطي قيمة لتاريخ الميلاد وعدد السنين في تقدير الشباب والشيخوخة، أكثر من اللازم. والشيخوخة والشباب ليسا فترة معينة من عمر الإنسان فقط بل هما حالة نفسية أيضًا.

وهما لا يكمنان في شكل العضلات وقلة التجاعيد أو كثرتها، بل يتعلقان أيضًا بنوعية العواطف وسلامة التفكير. فضعف الهمّة وتجعد الإرادة وفقدان الحماس أهم بكثير من تجعد الجلد وبياض الشعر. إن المتاعب والهموم تخلق أعباء أثقل من أعباء السنين. ولا ريب أن الإيمان والأمل والأخلاق الفاضلة والهدف الصالح تقاوم الشيخوخة وتؤجل ملامحها. ومتى أصبح المرء لا يتطلع إلى المستقبل ، وماتت فيه روح الطموح وشعر بالملل والتذمر فقد شاخ بقطع النظر عن عدد السنوات في عمره.

*****

التصور والخيال والإيحاء

من المفيد أن نشير قبل كل شيء إلى حقيقة هي من الأهمية بمكان، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتخبطون في مشاكل وأزمات أنشأتها المخيلة وضخمتها الأوهام. وهذه الحقيقة هي أن جهازنا العصبي لا يفرق فيما يتلقى من معلومات بين ما كان حقيقة واقعية وما كان مصدره الخيال.

فإذا أخذنا مثال رجل شعر بخوف وهو يسير ليلاً في الغابة فإن الجهاز العصبي يتأثر بذلك، وتظهر على الشخص جميع مظاهر الخوف ظاهرًا وباطنًا، سواء شاهد شيئًا مخيفًا أم كان ذلك من صنع المخيلة. ومعنى هذا أن الإنسان يتصرف كما يظن أنه صحيح، وتأتي ردود فعله وفقًا لما يتصور أو يعتقد بأنه صحيح فيما يتعلق بنفسه ومحيطه.

ومن هنا يبدو لنا الدور الكبير الذي يلعبه التصور في حياة الإنسان، وكذلك دور الإيحاء في تصرفاتنا وسلوكنا وتكويننا. ولنفرض أن شخصًا أطفأ نور غرفته واستلقى لينام (وهذه عادة فترة يحلو لبعض الناس أن يفكروا خلالها في مشاكلهم وأعمالهم..). فإنه يمكنه أن يركز تصوره على ذكرياته الأليمة وفشله، ويستعرض حوادث الماضي الأليم في شريط فيحيا من جديد ما كان قد شعر به من مرارة عند

سقوطه في الامتحان، أو عندما احترق منزله مثلاً، أو يستعيد الأحزان والآلام التي سببها موت أبيه، أو أخيه...، أو يتذكر كيف تألم من الإهانة التي وجهت إليه ولم يستطع أن ينتقم... ويمكنه أن ينتقل إلى التذمر من قساوة الحياة وسوء الطالع.. أو يتخيل هلاك العالم العاجل في حرب هيدروجينية وتهتز فريسته لهذا المنظر فيفيق من أحلام اليقظة. ومن سوء حظه أن كل هذه التصورات المخيفة المحزنة تسجل في أشرطة الجهاز العصبي، ولا تزيد حالته إلا سوءًا واضطرابًا.

ومن المعلوم أن الطبيعة تكره الفراغ حتى لو كان يتعلق بفكر الإنسان. وإذا صعب على المرء أن يفكر في لاشيء أو يحتفظ بفكره فارغًا، فإنه يمكنه بدل ذلك تصور أشياء جميلة سواء قبل نومه أو خلال أي فترة أخرى. ففي وسعه أن يتذكر الساعات التي سعد فيها، ربما نال جائزة أو ربح سباقًا أو خطب يومًا في الناس فصفقوا. ويمكنه أن يتصور أشياء لم تقع ولكنه يرغب في الحصول عليها، أو يتخيل نفسه محبوبًا مكرمًا من أصدقائه ناجحًا في عمله... إلخ.

وقد تبلغ ملكة التصور درجة من القوة فتكون مثل السيل العرم، تجرف ما في طريقها من هدوء واتزان شخصي. وعوض أن تكون وسيلة للخلق والإنتاج النافع وبدل أن توجه لخدمة صاحبها، طغت وتجمعّت وأصبحت مصدرًا لتوتر عاطفي وقلق وجداني متعبين. وقد قيل أنه إذا اختصمت الإرادة والمخيلة فالغلبة للأخيرة.

وتندفع مثل هذه المخيلة الجامحة فتحيي لصاحبها ذكريات مؤلمة وتجعله يتوقع أنواع المشاكل ويحارب أعداء وهميين وفرسانًا خياليين

ويبحث عن حلول لأشياء لم تقع وغير ذلك. وقد لاحظت أن كثيرًا من الأمهات يتعبن بالتصورات المزعجة ويعشن لحظات من التوجس المخيف عندما يذهب الأبناء للقيام بمهمة صعبة أو عندما يطول غيابهم وغير ذلك، فنلاحظ أن تفكير الأمهات يتجه عادة نحو توقع الأسوأ.

إذًا لابد من أن تنظَّم المخيلة وتؤدب وتقاد بالواقعية. ولا شك أن الإنسان يمكنه أن يجلس مع نفسه فيحلل عواطفه ويزن هواجسه بشيء من المنطق. وأنه من المفيد أن يصرف المرء جزءًا من الوقت في التعرف على نفسه، وأن يرسم مخططًا لتصرفاته ويلاحظ نقط الضعف والعادات التي تسيىء إلى شخصه فيعمل على تغييرها وتلك التي ينبغي تنميتها فيسهر على المزيد منها.

ويذكرني بهذه المناسبة مثال أحد الأصدقاء كان يملك سيارة جديدة وكان لا ينقطع عن تنظيفها ومراقبة أجزائها وفحص كميات الزيت والماء وكانت هذه العناية ناتجة عن إعجاب من ناحية وعن ضرورة الخدمات التي كانت السيارة تقدمها له. وأنت أيها الإنسان هل جسدك أرخص ثمنًا وأقل خدمة لك من هذه السيارة أو أي شيء آخر تملكه؟ وهل أنت تفحص مواطن الخلل ومواضع النقص في جسدك وشخصيتك؟ وهل حاولت أن تتعرف على نفسك كما هي وكما حاولت أن تتعرف على أجهزة سيارتك؟ إن زيوت آلتنا العجيبة هو كرم الأخلاق من مسامحة ولطف وثقة بالنفس تجعلنا نتحمل ما يصادفنا من مشاكل كما تتحمل السيارة صدمات الطريق غير المعبد إذا كانت مجهزة جيدة.

إننا في غمار الحياة العصرية، حياة المزاحمة والمنافسة والسرعة والركض وراء العيش ننسى أن مرآة نفس الإنسان التي هي طبعه تحتاج إلى الصقل والتنظيف أكثر من مرآة السيارة أو واجهة الدكان أو زجاج النافذة. وننسى أن بركة عواطفنا قد يصبح ماؤها عكرًا وتنمو حولها الحشرات إذا نحن لم نراقبها ونحسن تربيتها. وقد يميل الشخص إلى الإهمال واللامبالاة والخمول، أو إلى صفات الحزم والنظام والمثابرة. غير أنه لا مناص من أن يرتب المرء رغباته ويحاسب نفسه (لا حسابًا عسيرًا بل بلطف حتى لا يميل لاحتقارها وعدم الثقة بها). يحاسبها على ما قدم من أعمال نافعة وضارة في يومه أو في شهره. وهذا مفيد أولاً لأنه يقرب المرء من نفسه ويعرفها عليها، وثانيًا يساعده هذا التحليل أو المراقبة على إزالة ما قد يصيبه من البلبلة والاضطراب النفسي، وعلى أن يرى بوضوح ما يجري حوله وفي باطنه من عمليات وأحاسيس. فإذا حصل هذا كان أشبه بقائد المعركة أو الطائرة أو الباخرة الذي يحصل على معلومات مفيدة في وقت الشدة، فيساعده ذلك على التصرف بهدوء.

ولنعد إلى ما تقدم ذكره من أن الإنسان يتصرف ليس فقط وفقًا لما هو حقيقي وواقع بل أيضًا طبقًا لظنونه وتفسيراته للحوادث والإيحاءات التي يتأثر بها لنؤكد بأن هذا قد حصل بطريقة لا تدع للشك مجالاً في الحياة العملية. فلقد أعطى عدد من المرضى في المستشفيات أنواعًا من الأدوية الكاذبة (ماء ملون وسكر مثلاً) وكانوا لا يعرفون ذلك طبعًا، بينما أعطى مرضى آخرون مصابون بنفس المرض أدوية حقيقية للعلاج وكانت النتيجة بعد المقارنة أن عددًا من الذين

تناولوا الدواء الكاذب تحسنت حالتهم وتماثلت نحو الشفاء. وهذا دليل على الدور الذي يلعبه الاتجاه الفكري في العمل على تحقيق هدف الإنسان خيرًا كان أم شرًا. فقد دفع أمل هؤلاء المرضى وإيمانهم بتلك القوى الخلاقة داخل الجسم، فنشطت تساعدهم على تحقيق رغبتهم. ومن هذا القبيل ما لوحظ من تحسن في حالة الأمراض التي تعالج بواسطة الأشعة، حتى في الحالات التي ينسى فيها المعالج أن يدير مفتاح الأشعة. وكذلك المعالجة عن طريق التنويم المغناطيسي. وقد شاهدت أشخاصًا نوموا مغناطيسيًا وقاموا بأعمال تحت تأثير إيحاء المنوم ما كانوا يقدرون عليها في حياتهم العادية. والواقع أن قوتهم وذكاءهم وعضلاتهم لم تتغير وإنما الذي تغير هو اعتقادهم بسبب تأثير الإيحاء.

ونحن في حياتنا اليومية نعيش ونتصرف وننجح أو نفشل، ونسعد أو نشقى، ونقلق أو نطمئن تحت تأثير موجات من الإيحاء داخل أنفسنا ومما يحيط بنا، وهي تختلف في قوتها وتأثيرها من شخص لآخر، وكم من أستاذ أوحى لتلميذه بأنه ليس له فكر لتعلم الرياضيات مثلاً، أو لا يملك الاستعداد الذى يجعله محاميًا أو طبيبًا، أو ذاكرة لحفظ الأسماء فتقبل الولد حكم أستاذه، وراح يتصرف بحيث تتطابق النتائج مع هذا الإيحاء الذي ربط قواه العقلية وقيد ملكاته الخلاقة. وأصبح لاشعوره، وهو الخادم المطيع الأمين للإنسان، يعمل فقط ضمن الحدود التي رسمها له صاحبه دون مناقشة ولا تساؤل بعد أن تقبل العقل الواعي فكرة الإيحاء السلبي.

وكثيرًا ما سمعنا قصصًا عن أناس زالت «أعراض آلامهم» بمجرد أن أوهمهم ساحر أو مشعوذ بأنه قد أخرج منهم سبب المرض! وذلك بعد إجراء عمليات متقنة وحركات شيطانية كأن يوهمهم بأنه أخرج شيئًا من بطونهم أو يأخذ من دمهم أو يضربهم على ظهورهم أو يربط أيديهم ويرشهم بالماء البارد إلى غير ذلك من العمليات التي توهم المصاب بأن حالته قد تغيرت ولو لحين..

وتلعب شخصية الساحر أو المشعوذ أو الموحي دورًا مهمًا لأنه يجب أن يسيطر على فكر الموحى إليه أو المريض ليوهمه بأن حالته قد تغيرت وأن علته قد زالت. ويلاحظ أن المنوم المغناطيسي يطرد من الأفراد من يلمح على وجهه سيمات المقاومة وعدم الخضوع.

وتعود بنا هذه الملاحظات حول التصور والإيحاء إلى مدى أهمية الأفكار التي يتبناها الإنسان في حياته. فنوعية هذه الأفكار هي التي تحدد موقفه تجاه ما يصادفه من مشاكل وما يلاقيه من تجارب... ولذلك كانت طريقة تفسيرنا لما يحيط بنا جديرة بالعناية والاهتمام. فهذا التفسير هو الذي ينتج عنه إصدار حكم على الحوادث والأشياء. والأسلوب المتبع في تحليل المحيط يمثل مزاج الإنسان غالبًا. وتدخل العواطف فتجعله متغيرًا عند بعض الناس اتباعًا للحالة النفسية التي يجتازها الإنسان حين إصدار الحكم على حادث ما، وقديمًا قيل:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولكن هذه النسبية في التفسير والحكم لا تتعلق طبعًا بالمسائل الواضحة والملموسة كقولنا الشمس طالعة و 2 × 2 = 4 بل تتعلق بمشاعر الإنسان وأحواله النفسية من غضب ومرح وحب وكره وتفاؤل وتشاؤم... إلخ. ويحكى أن شخصًا ثقيل الظل بقي ينتظر في مكتب سكريتيرة العالم أينشتاين وهي منهمكة في عملها وهو يطرح عليها أسئلة سخيفة وكان من جملة ما سأل رأي الفتاة في نظرية النسبية فأجابت بسرعة قائلة: رأى بصورة مبسطة هو أنني جلست مع بعض الأشخاص ساعات وتبدو كأنها دقائق ومع نوع آخر دقائق وكأنها ساعات طويلة. وقد ينتظر الشاب فتاة أحلامه فترة طويلة تحت المطر والبرد ولا ينزعج؛ لأن عاطفة الحب والإعجاب جعلت الصعب محتملاً والعسير يسيرًا ولو أن نفس الشخص ينتظر ربع ساعة لشراء تذكرة القطار مثلاً لأبدى تبرمه وراح ينتقد الأوضاع. وفي هذا المعنى ما قيل:

وكنت إذا ما زرت .... أرى الأرض تطوى لي ويدنو مزارها

إنّه ليس ما نشم أو نتذوق أو نسمع أو نشاهد في حد ذاته هو الذي يجعلنا أشقياء أو سعداء ويحدّد نوعية ردود فعلنا سلبًا أو إيجابيًا. فالحواس تبلغ المعلومات المتنوعة إلى الدماغ وهناك تحلل في نطاق تجاربنا السابقة ثم يصدر الأوامر بالقبول أو الرفض، بالمقاومة أو الاستسلام. وكلنا يتذكر حكم المتشائم عندما حدق في كأسه وقال متأسفًا: آه لم يبق لي إلا نصفه. بينما نظر المتفائل إلى كأسه مستبشرًا: إنني لم أشرب إلا نصفه. إنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

ويكون من المفيد أن نفكر بأن الظواهر التي نشاهدها والأشياء التي تحيط بنا من مزعجات ومؤنسات، لها وجود مستقل، وإن كانت كلها مرتبطة في نظام كوني شامل. والمراد هو ألا يجعل المرء راحته وهدوءَهُ في المؤثرات الخارجية سواء أكان ذلك أزيز الطائرة أم رنين الهاتف أم ضجيج المصانع والسيارات .

وإذا كان في إمكاننا أن نؤثر في سير بعض الأمور ونسخر الطبيعة ونروض الحيوانات لما فيه صالحنا، فإن الحوادث لا تسير دائمًا وفقًا لرغباتنا. والإنسان يعمل لتحقيق أهداف قد تتعارض مع آمال وأهداف غيره. وقديمًا قيل «مصائب قوم عند قوم فوائد» وقد «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن».

وتبدو أهمية التصور والإيحاء في أنه يؤثر على الفكرة التي يحملها الإنسان عمن وما يحيط به أن تتجلي كيفية تصوره للأشياء وتقديره للناس في أسلوب حياته وجميع علاقاته. ولا شك أن ثقافته ومصالحه بل وشخصيته كلها تنشط لتلوين الصورة المراد تخيلها بألوان التجارب السابقة. غير أن التدريب والممارسة والمثابرة تمكن صاحبها من إحلال الصور الجديدة المرغوبة محل الصور القديمة. فإذا كان شخص يخاف من الوقوف أمام الجماهير ويجف ريقه ويرتجف صوته وتتوتر أعصابه لأنه يتصور تلك العيون المحدقة فيه والوجوه المتطلعة إليه كأنها نسور تريد أن تنقض عليه، فإنه يمكنه بالإيحاء والتصور أن يحلل الموقف ويعكس الصورة العقلية فيتخيل مثلاً أنهم يحبونه ويستجدونه لإفادتهم وأنهم لم يأتوا للاعتداء عليه. إلخ وبمناسبة

الحديث عن الإيحاء لا بأس أن نذكر هنا ما يروى أن جحا أراد ذات يوم أن يخلق مشكلة لصديق له. فذهب للسوق وبدأ يخبر الناس بأنهم مدعوون عند فلان للغداء. وأخذ الناس طريقهم نحو بيت فلان وهم يمرون على جحا ويرددون عليه هيا بنا للغداء يا جحا. فتردد برهة ثم قال لنفسه يا لك من أبله يا جحا، الناس يدعونك وأنت تتردد؛ ثم رفع عصاه وركض ليكون من الأولين.

ومن الوقائع العديدة والأمثلة المتكررة في حياتنا بخصوص قضية تصور الأشياء والحكم عليها ما شاهدته ذات يوم عندما وصل شخصان للمطار فلم يسمح لهما بالدخول لأن الطائرة أوشكت على الرحيل. وأخذ أحدهما يشكو ويشتم ويلعن ويتذمر وكان صديقه يهدئه ويراوده وقد علمت بعد ذلك أن الإنسان الهائج الغاضب جاء فقط مشيعًا لصديقه. وهذا يوم أشتدّ فيه نزول المطر نلاحظ فيه بعض الناس عابسين متأففين وآخرين راضين مستبشرين وقديمًا قيل: خير لك أن توقد الشمعة من أن تلعن الظلام .

أليس مؤسفًا أن يضيع المرء مجهودات ذهنية محاولاً أن يغير العالم ليلائم ذوقه وطبعه بدل أن يغير نظرته للحياة ؟ إن التعاون مع ما لا بدّ منه خطوة أولى نحو النجاح والاطمئنان. ونجد أولئك الشاكين الباكين تجمدت أخلاقهم في قالب محدود فلم يصبح في قدرتهم أن يلينوا ويطاوعوا ظروف وطبائع غيرهم. فهم ينقصهم الاستعداد للانسجام، فراحوا يناضلون كل ما لا يوافق مزاجهم. ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فالفكر هو حصن الإنسان المنيع، ومملكته الحقيقية التي ينبغي أن يجد فيها الأمن والسلامة، ويلجأ إليها حين الشدة ليجد الراحة والهدوء عندما يكون كل ما حوله ظلام وفوضى وزوابع. والفكر السليم المهذب هو فقط الذى ينقذ صاحبه من الشقاء، ويعصمه من الاضطراب والتوتر في غمرة الحياة ومشاكلها. وقديمًا قال الشاعر الإنكليزي ملتن بعد أن فقد بصره :

إن الفكر هو الذي يخلق الجحيم من النعيم والجنة من الجحيم

ويقول المتنبي فيما يقارب هذا المعنى :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

*****

القســم الثاني

انطباعات حول التربية والتعليم

انطباعات حول التربية والتعليم

إن كل ما حدث ويحدث، وجلّ ما نرى ونستعمل في العالم كان قبل حدوثه وخلقه فكرة في عقل مخلوق ما. فتفكير الإنسان هو الذي يوجه حياته وإلى درجة كبيرة بكل ما في كلمتي «توجيه حياة» من معان. فنوعية ما يجول في نفوسنا من أفكار إما أن يرفعنا أو يخفضنا، يدفعنا للإمام أو يثنينا عن أهدافنا.

هذه الأفكار هي بمثابة الخيوط التي ينسج منها كل شخص مادة حياته ووجوده. فمن انتقى (أو سوعد على انتقاء) خيوط صالحة طيبة يصبح جديرًا بأن ينعم بحياة ناجحة سعيدة هادئة، ومن استعمل خيوطًا بالية واهية يجني حياة الفشل والخيبة والمرض.

ولهذا كان دور التوجيه الفكري الذي يتلقاه الإنسان منذ صغره من الأهمية بمكان، لأنه الأساس الذي يحدد نوعية الحياة التي سيحياها الفرد في المستقبل. ومن هنا كان دور التربية العظيم وواجبها الأول في توجيه النشئ فكريًا وعاطفيًا اتجاهًا صالحًا بحيث ينتج عن ذلك سلوك صالح ناضج. وإذا قلنا أن التعليم يهدف لخلق الخبير والمختص والمثقف في هذا الفن أو ذاك العلم فإن دور التربية يهدف لا محالة إلى خلق الفرد الناجح.

كل دولة تبذل أموالاً طائلة لتعليم أولادها. وهي ترمي طبعًا إلى

تكوين مجتمع صالح متقدم. غير أن النتائج لا تكون كاملة ولا مرضية إذا لم يوجه الاهتمام إلى جوانب أخرى من الحياة الفردية، تتعلق بتوجيه نشاطه وتقويم سلوكه وتصرفاته والتأثير على أفكاره لكي تكون لديه نظرة إيجابية فردية أو اجتماعية مليئة بالإخلاص والمحبة والثقة بالنفس والإقبال على الحياة .

ولا يكفي أن يتعلم التلميذ حل المشاكل على السبورة أو في الدفاتر، وأن يحفظ أنواعًا من الفنون والدروس لكي يصبح سعيدًا ناجحًا. بل لابد من أن نعلمه كيف يتغلب على الخوف والقلق والتشاؤم، وكيف يعالج المشكلات النفسية التي تعترضه، ويخطط أهدافه في الحياة دون أن ينسى من حوله، آخذًا بالاعتبار ظروفه والمحيط الذى يحيا فيه، وما للصدف والتحمل والتضحية من تأثير على نجاح مخططاته وبرامجه.

يعيش الإنسان اليوم، أكثر من أي وقت مضى، تحت ألوان من ضغط الحياة العصرية، ونحن نشاهد بل ونلمس التقدم العلمي والوثبات التكنولوجية المستمرة وما لذلك من تأثير على الحياة الاجتماعية والفردية، بل وعلى طريقة تربية الأطفال. وهذا من الأهمية بمكان، إذ إن الهيكل أو الصفات الشخصية لجيل ما، تتأسس على الطريقة التي اتبعت في تربية الصغار في الجيل السابق.

وأكثر من ذلك أن سرعة التقدم التكنولوجي، يتبعها، وإن كان ليس بنفس السرعة، تغيير، في نظرة الناس للعادات والأخلاق وللمحيط العادي، وهذه السرعة في التحول لم تكن معهودة في القديم، ونحن الآن نلاحظ ونلمس الفروق الفكرية بين أب وولده في نظرتهم للحياة وحكمهم على كثير من الأشياء.

سرعة التطور والتقدم والتبدل في عصرنا تجعل الفرد مدفوعًا ليتعلم وينضج بسرعة. فهو يسعى للحصول على الشهادة، ثم على عمل حيث يلاقي نوعًا آخر من المسؤولية. وهو أثناء ذلك يخطط أهدافًا أخرى يسعى لتحقيقها بسرعة غالبًا، فهو يرغب في شراء سيارة أو بيت وأن يجمع بعض المال، وأن يتزوج أو أن يفتح متجرًا أو معملاً.. إلخ وهو يقوم بهذه الأدوار: دور الطالب والعامل والموظف والأب في جو من الطموح والأمل والانتظار للمزيد مما يحسن ظروفه ماديًا أو معنويًا أو كليهما. فإذا حدث وخابت مساعيه وفشل في تحقيق أهدافه، أو أدت به المنافسة إلى بذل مجهود أكبر في محاولاته فقد يحاول التعويض عن فشله، فيلجأ للتظاهر ومخادعة نفسه. ومن الممكن أن تؤدي خيبة الأمل عند بعض الناس إلى فقدان الثقة بأنفسهم، وتزيد من خوفهم في مجابهة المشاكل فيهربون من الناس لأنهم يخشون أن ما يتظاهرون به قد يكشف .

وكما لا يكفي أن يكون الإنسان ثريًا أو قويًا ليوصف بأنه ناجح وسعيد، فكذلك لا يكفي أن يكون ماهرًا في الرياضيات أو اللغات أو الموسيقى أو الكيمياء.. ليصبح ناجحًا في حياته. ومن الناس ما يحسن بناء الصواريخ أو يكتشف الأدوية أو يخترع ما يعجز عنه غيره، ولكنه يجهل فن معاملة الناس ولا يحسن استعمال قوانين الحياة التي تساعده على الظفر بحياة سعيدة هادفة مطمئنة راضية.

لابد، إذًا، من تعاون التربية والتعليم لتكوين الفرد الناجح، الذي هو اللبنة الأولى لبناء المجتمع الناجح. ونحن نخصص ساعات معينة

لبرنامج الرياضة البدنية، وهذا مفيد وضروري، ومن المفيد أيضًا أن نكمل ذلك بدروس يكون هدفها تربية الناشيء على التصرفات التي تمكنه من معالجة المشاكل الحياتية في الشارع والبيت والمكتب والحقل، والمعمل، وندربه على اكتساب العادات والصور العقلية التي تمكنه من توجيه فكره نحو ما هو خير وإيجابي، وكيف يتغلب على العواطف الضارة مثل الغيرة والخوف والانتقام والحقد والانطواء والانتقاد.

وحبذا لو أمكن تطبيق بعض أنواع المعاملات والمبادلات والعلاقات الاجتماعية في دروس تطبيقية للتلاميذ، أو بواسطة الأفلام الإذاعية والتلفزة المعممة على المدارس لهذا الغرض. ويمكن أن يتعاون المعلم والآباء مع طبيب نفسي، بحيث يقدمون لهذا الأخير ملاحظاتهم على التصرفات الشاذة ويقوم هو بتوجيه البرنامج الذي يلائم مستوى الأطفال. ولعله بمثل هذا الأسلوب، الذي يعمم تدريجيًا، يساعد الجيل القادم على أن ينمو خاليًا من كثير من المشاكل النفسية التي تنشأ في عهد الطفولة.

وإذا بدا لنا أنه من الصعب تحقيق هذا في ظروفنا الحالية، فلابد أن نعمل على تجهيز أنفسنا ودراسة وضع برامج المستقبل منذ الآن. ينبغي أن نفكر في مجتمع الغد، جيل القرن الواحد والعشرين، الذي سيعيش في ظروف تختلف عن ظروفنا، وفي عصر «ما بعد الصناعة وما بعد الحضارة». وإذا كان من المستبعد أن يصل النشء الجزائري وأمثاله من الدول النامية إلى عصر ما بعد الصناعة في مدة خمسين سنة قادمة، فإنه على الأقل يجب أن نفكر في الوسائل التي

تعده لمعاصرة مجتمعات أخرى وتمكنه من الحياة في عالم يزداد صغرًا وتقاربًا، ويرتبط مصير جزء منه بما تفعله أقطار أخرى بسرعة مطردة.

ألا يتمنى كل واحد منا لو كان بإمكانه محو بعض آثار الجو الذي يعيش فيه أبناؤنا وحتى كبارنا في الشارع والمدرسة والمعمل والمنزل، جو الأنانية والشتم والنزاع والانتقام والكسل وعدم احترام العادات والأخلاق النبيلة من بعض الشباب؟ ألا نتمنى لو كانت لنا قدرة تحول هذا الجوّ إلى عالم يسوده التحابب والتسامح والإيثار والقناعة والتفاني في خدمة الآخرين؟.

ومن كان في شك من هذا فليسأل نفسه كم خلق تشاحن الأطفال وتضاربهم أو تشاتمهم في الشارع من مشاكل، وأفسد من علاقات طيبة وأضاع من جهود يبذلها الوالدان إما لإثبات براءة أو إدانة معتد سواء في المحاكم أو بصفة مباشرة. وبالإضافة لذلك، كم تسببت شيطنة بعض الأطفال وسوء تربيتهم في خصام عائلي ينشب غالبًا بين الأم والأب أو الأب والجدة حول ضرب الأطفال وطريقة تربيتهم يتبادل فيه أعضاء العائلة الاتهامات بخصوص ما قال الطفل أو فعل ومن هو المسؤول وغير المسؤول.. إلخ.

وبما أن الطفل يقلد ما يرى وما يسمح فكلنا مسؤولون. فالطفل يقلد ويتأثر بدور الأب والمعلم والشرطي وبائع الخضر وسائق السيارة سواء شاهد ذلك في الشارع أو في تلفزيون.

غير أن الحياة العائلية ذات تأثير عميق في تربية الطفل وتصرفاته، لأنه يقضي وقتًا أطول مع أهله ويسمع ويرى منهم من الأقوال والأمر والنهي والنصائح والبشاشة والغضب والمناقشات ما لا يسمع ويرى في مكان آخر .

لهذا كان من واجب الراشدين في كل عائلة أن يبذلوا جهدهم لخلق جو عائلي يسوده الهدوء والتفاهم. لنتصور طفلاً يعيش في عائلة لا ينفك كبارها عن انتقاد وتوبيخ بعضهم البعض، وهم غارقون في مناقشات تجعل الجو خانقًا وتقتل روح التحابب والتوادد بين أفراد العائلة وتجعلهم يعيشون في نوع من الحرب الباردة، ترى، هل يوصى مثل هذا الجو للصغير بالطمأنينة أم بالقلق، وهل يملأ نفسه الساذجة وفكره الخام بالهدوء والمحبة أم بالاضطراب والخوف والحيرة؟

ومثل هذه الحياة العائلية لا تؤثر على الطفل فحسب بل تزعج الكبير وتذهب براحته وصحته، فالانسجام في الأسرة أساس النجاح. وكيف يجد المرء الهناء والراحة، إذا انعدم التفاهم؟ وأين يجد ذلك إذا لم يكن في البيت؟ ومما يعكر صفاء العيش ويفسد الانسجام العائلي جو التشكي المستمر الذي غالبًا ما يتمثل في حالة الزوجة التي لا تنفك تشرح آلامها وتئن وتتوجع، وسواء كانت أتعابها عصبية أو وهمية أو حقيقية أو لمجرد جلب الانتباه إلى وضعها ودورها، فإن التشكي والتبرم والتأفف والتحسر إذا ما طال يخلق جوًا ثقيلاً وتوترًا وتشاؤمًا في المنزل لا يحتمل. ولنتصور رجلاً رجع من العمل متعبًا مسرعًا إلى بيته ليجد الراحة وما يرفع من معنوياته فتلقاه زوجة تقص عليه مشاكل

اليوم وما أفسده الأطفال، ومتاعبها مع الجيران أو مع أمه أو تجلس تشرح له أوجاعها ومصائبها... إلخ ولا داعي لحصر صفات الشاكي والباكي والمنتقد في الزوجة فقد يقوم بهذا الدور أي عضو من أعضاء العائلة.

وشقاء العائلة ينعكس لا محالة على الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية. وكم تكون خسارة المجتمع عندما يكثر فيه عدد البالغين الذين تسيطر عليهم صفات مكروهة مثل القلق والخجل والقساوة والاستسلام والتردد. وتنقص هؤلاء الثقة بالنفس التى تضمن نجاحهم في حياتهم العملية فمثل هؤلاء يجب أن يغيروا نظرتهم للحياة ولأنفسهم ولما حولهم. وبما أنهم أصبحوا فريسة للمشاعر المبغوضة التي سلبتهم راحتهم، ومسرحًا للشكوك الهدامة التي وضعت حجابًا بينهم وبين الجانب الصالح من الحياة وبما أن هذه الطريقة السلبية في الحياة قد تكون وليدة عشرات السنين من حياتهم، فلا يعقل أن يرجى منهم، أو يرجوا هم من أنفسهم أن يغيروا عاداتهم في أسبوع أو شهر. بل إننا نلاحظ حتى في مجال العادات غير العاطفية مثل التدخين أو «الشمة» يصعب على المرء أن يهجرها بين عشية وضحاها. فلا مناص من الصبر والتأني والرغبة الشديدة في إصلاح النفس للتغلب على عادات مثل الخجل والخوف والانتقام والانتقاد والاستسلام.

ينبغي أن نتعاون في التربية والتعليم لتشمل الشخص ككل. فتعالج وتربي الجسم والعقل والخيال وطريقة التفكير والحكم على الأشياء وعلى الحياة فتعمل على تقوية الجسم وتربية العواطف وتوجيه التفكير

توجيهًا سليمًا ليكون بالنتيجة نشاط الفرد وتكون جهوده مصروفة في إنتاج الأشياء التي تجعل حياته وحياة من حوله أفضل وأهنأ. وبهذا يمكن أن ينمو الإنسان، جسمه وفكره في توازن وانسجام كوحدة متكاملة.

ونحن نقرأ من خلال التاريخ عن بعض العلماء والفلاسفة الذين كانوا ذوي أجسام هزيلة أو أمراض مزمنة ومع ذلك أنتجوا وألفوا وكانت لهم عقول قوية شاركت في توجيه التفكير والحضارة الإنسانية وبعض هؤلاء ولدوا بعاهاتهم أو باستعدادات لمرض ما، غير أن العبرة من حياتهم هي أنهم لم يستسلموا لضعفهم ولم يسمحوا لنقائصهم وأمراضهم الجسدية أن تسيطر على القوى الخلاقة فيهم. فهذا الجاحظ يروي عن نفسه قصة المرأة التي قادته لدكان النحات وقالت للأخير «مثل هذا» وذهبت فأخبر النحات الجاحظ أن المرأة طلبت منه أن يصنع لها صورة الشيطان. ولم يمنع ضعف داروين الجسدي، ولا عاهة طه حسين ومِلْتُنْ ومئات غيرهم من أن يصبحوا عظماء كل في مجاله.

إن الانهزام المزمن والضعف الحقيقي هو الذي ينبع من داخل المرء. وإن الأهل والأصدقاء والأطباء والعلوم الحديثة يستطيعون أن يساعدونا على التغلب على الأمراض الجسدية. وقد تقدم الطب فأصبح يغرس الأعضاء الداخلية مثل القلب والرئة، وسيصيب كثيرًا من النجاح في مجالات أخرى. غير أنه لا المال ولا العلم والأهل والأصدقاء يستطيعون أن ينقذونا مما يأتي من داخل أنفسنا من عادات سيئة وتفكير خاطئ إلا إذا قمنا نحن بالدور الرئيسي.

فالشخص الذي يصبح فريسة للهواجس بعد فشله في مشروع ما

ويسمح للهموم أن تستبد به فيطرد القلق نومه ويفقد راحته وشهيته نتيجة للشعور بالخيبة والسخط على الحياة... إلخ، فإن مثل هذا الشخص قد يستعمل الحبوب المنومة والأدوية المسكنة والعقاقير التي تفتح الشهية... إلخ غير أنه ما دام الشخص مركزًا تفكيره على النواحي السلبية من وجوده باكيًا حظه ساخطًا على سوء المآل عابسًا غامضًا متجهمًا، فإنه بذلك إنما يخلق سمومًا داخل جسده لا تجدي معها الأدوية وحدها.

وفي مثل هذه الحالة تساعد التربية السليمة فتغير اتجاه تفكير الشخص المصاب وتقوم العدسة التي كانت تقدم له صورًا منحرفة عن المحيط، وتنهض به من حالة الفوضى والاستسلام، حالة الشعور بالفشل والإهمال. وتذكر التربية الشخص المصاب بسيرة الأشخاص الناجحين الذين تغلبوا على الضعف وصمدوا للأزمات ولم يتحقق نجاحهم إلا بعد الفشل المتكرر، وتسرد له أخبار العلماء الذين فشلوا في عدد من تجاربهم ولم يستسلموا للانهزام حتى تحققت أهدافهم. وتؤكد التربية للإنسان الضعيف بأن فكره المشوش وعواطفه الهائجة لا تزيد حالته النفسية والصحية إلا سوءًا، وأن فشله في تحقيق هدف ما لا يعني فشله في الحياة. والمربي الخبير يستعمل الواقع والمنطق لتحليل ظروف الشخص المصاب وليعيد له اعتباره وثقته بنفسه لأنه غالبًا عند ما تنزل المشاكل والكوارث يأتي معها القلق ويصبح المرء يخبط خبط عشواء، والواقع أن الفرق بين سلوك شخص ناضج وآخر فاشل صبياني هو في نوعية ردود الفعل التي يبديها كل منهما تجاه ما يعترضه من خير وشر في الحياة اليومية.

ولست أقصد أن يستعمل المعالج أو المربي الطريقة الكلاسيكية في التحليل التي تستغرق ساعات طويلة للبحث في ماضي المريض بغية العثور على تجربة سيئة كامنة في مجال اللاوعي بقصد تفسير تصرف المريض في الوقت الحاضر .

وأسهل من ذلك وأجدى أن نعمد أولاً إلى ضبط التصرفات السيئة ونتائجها وتقديمها بصورة واضحة ودقيقة في إطار من الأمثلة يجعل المرء ينتبه إلى مواطن ضعفه ويحرضه على مواصلة البحث عن مصادر فشله، وثانيًا إلى ضبط القواعد والخطوط العامة للتصرف السليم والحياة السعيدة الناجحة ومن ثم وضع منهاج للسلوك الناضج الذي يتمثل في عادات صالحة ينبغي على المرء أن يتدرب عليها ويجعلها رويدًا تحل محل عادته الضارة القديمة.

ومن قبيل التصرف الناجح أولئك ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ (البقرة: 156) ومثل هؤلاء نجد عقلهم يحدثهم بأن المسألة ليست من الخطورة بما يتصورون وأنهم إذا خسروا معركة فلا زالوا على قيد الحياة لمواصلة السعي. ومن حظي بمثل هذا التفكير يراقب شريط تصوراته العقلية ولا يسمح لها أن تفلت منه في وقت الشدة. لأن الخطر كما تقدم ليس في الفشل بل في السماح للفشل أن يثير العواطف الهدامة فيصبح الوضع مضطربًا والتفكير مشوشًا وذلك مما يزيد الطين بلة والجسم علة.

ولو تساءلنا عن الهدف النهائي الذي هو القاسم المشترك الأعظم بين مختلف الناس في هذه الحياة لوجدنا أن الأجوبة متشابهة

ومـتـقـاربة. والجـواب في مـثل هذه الحـالة هو أن كل فـرد يسـعى للحصـول على الأشياء التي يعتـقد أنها تجعل حياته أفضل وأسعد، وتجلب له مقدارًا أكبر من الراحة والاطمئنان. ووحدة الهدف لا تعني هنا وحـدة الوسـائل المؤدية إليـه. فـهناك من يريد تحـقيق هـدفـه عن طريق إشباع رغباته وملذاته، وهناك من ينشد تحقيقه بواسطة التفوق في الحصول على السلطة أو العلم أو المال أو كل هذه الأشياء مجتمعة.

إن شـخصية الإنسان هـي خلاصة تجاربه وعـادته وحياته. فهي تتـبلور وتتكون خـلال السنين من سلسلة من الأفكار والإيحـاءات والمعـتقـدات والتجـارب والمعلومـات التي تفـاعلت وانصـهـرت على مـر الزمن لتعطي الشـخص طابعه الخاص في الحياة وطريقته في الحكم على الأشيـاء، وبذلك يكون الفرد رأيه فيـما هو خير أو شـر ويكتسب نظرة وسيرة وتصرفات تعبر عن كيفية تصوره للمحيط وتصوره لنفسه في عـلاقتـه مع هذا المحيط. وبذلك أيضًا تتحدد ردود أفـعالـه تجاه المشاكل والحوادث والناس لتعبـر عن انسجام الشخص ورضاه أو عن سخطه وشذوذه، أو عن حياده وعدم مبالاته.

وما نلاحظه مثـلاً من انتقـاد بعض المواطنين المسنين لتصـرفات ومظاهـر بعض الشبـاب يرجع كذلك إلى اختلاف وجهتي نظر حول ما هو مستحب ومقبول وما هو مكروه ومنبوذ. وهذا الاختلاف في الحكم على الأشياء يعبر عن تباين في الظروف والمؤثرات التي عاشها كل من الشاب والشيخ وعن اختلاف المقاييس التي يستعملها كل منهما للحكم على قيم الأشيـاء. ويتـجلى اختـلاف هـذه المقـاييس في الحكم بوضوح

أكبر من بلد إلى آخر في مجالات كثيرة مثل العلاقات الجنسية وعادات الأكل والزواج وعلاقات أفراد العائلة ببعضهم.. إلخ، ومما يزيد في تباين نظرة الجيل المسن والجيل الناشئ إلى الأشياء السرعة التي يؤثر بها التقدم التكنولوجي على طريقة الحياة وعلى العادات والمعتقدات القديمة. فبينما نلاحظ أنه في القرون السابقة كان أسلوب حياة الولد مشابهًا لأسلوب حياة أبيه وجده سواء كان فلاحًا أم نجارًا أم معلمًا، نجد في القرن العشرين وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فوارق واضحة تميز تفكير جيل عن الذي سبقه. وإذا أخذنا شخصًا ولد عام 1900 وولده الذي ولد عام 1930 وحفيده الذي ولد عام 1954، الجد كان فلاحًا يعيش في القرية والابن نزح للمدينة ليشتغل كحلاق مثلاً، والحفيد ما زال في المدرسة، فلا شك أننا نجد تغييرًا ملحوظًا في حياة كل منهم فكريًا واجتماعيًا.

وإذا قلنا إن شخصية الإنسان هي خلاصة تجاربه وعاداته وما ورث وما تعلم إلى غير ذلك، فإنه من حسن حظه أن يملك القدرة على التأثير في حياته اللاشعورية وإعادة تربيتها بواسطة استعمال عقله الواعي. ومعنى هذا أنه يمكننا، بمراقبة تفكيرنا الشعوري وتوجيهه توجيهًا سليمًا إيجابيًا نحو ممارسة العادات الصالحة والتخلي عن العادات السيئة عن وعي وبذل مجهود يتناسب ومدى استئصال العادة وعمق جذورها في الإنسان يمكننا أن نؤثر في اللاشعور الذي هو مركز العادات والذي فيه يتكون طبع الإنسان وهو أي اللاشعور يتحكم في مصيرنا.

وإذا قلنا إن عددًا من الخصال والصفات الموجودة في فلان هي مكتسبة من العائلة والمدرسة والشارع فإنه يمكن للتربية أن تجعل فلانًا يزيد من تعلقه بتلك الصفات أو يقلل من ذلك أو يتركها ويكتسب صفات أخرى.

وسواء كان الشخص رجلاً يرغب في إعادة تربية نفسه أم طفلاً فإن الهدف هو غرس عادات حسنة في التصرف وفي التفكير تجعل صاحبها يبذل مجهودًا أقل للحصول على حياة أفضل، وتعلمه أفضل السبل للحصول على خير ما في ملكاته واستغلالها للنفع والإصلاح لا للضرر والفساد .

هذا وبما أنه من الصعب أن نطلب من شخص أن يهجر أو يستبدل عادات سيئة، تحكمت في حياته ووجهت تصرفاته لمدة ثلاثين سنة مثلاً، في أسبوع فإنه لابد من الصبر والمثابرة ومن استمرار وجود الرغبة للظفر بنتائج إيجابية في مجال إعادة التربية.

والتربية السليمة الكاملة يجب أن تتجاوز مجال الوعظ والإرشاد النظري إلى ميادين التطبيق والمشاهدة. فإذا حدثنا أشخاصًا عن المساوئ التي تنتج عن العواطف السلبية، فإنه يساعدنا كثيرًا لو أخذنا بعين الاعتبار ما يقوله الأطباء وعلماء النفس بهذا الشأن واستعملنا صورًا وأفلامًا عن الأمراض والمضاعفات التي تخلفها المشاعر الكريهة في جسم الإنسان.

ولم يبق مجال للشك في مدى التأثير المتبادل بين جسم الإنسان

وأفكاره وعواطفه، صالحًا كان هذا التأثير أم سيئًا. فالجسم يقوم بوظائفه بصورة أفضل عندما يكون في حالة انشراح وابتهاج. ويكون شعوره وسمعه وبصره أدق وأرهف وأحاسيسه أسمى وأوضح عندما يكون فكره مفعمًا بمشاعر الحب والخير والعطف والنجاح. أما عندما تستولى على الإنسان أمواج من الغضب واليأس والحزن... فإن عمليات الجسم تختل ووظائفه الحيويه تسوء بصفة عامة.

ومن هنا يبدو دور التربية المزدوج في مجالي الفكر والجسم لخلق الإنسان السليم . وقد يبدو غريبًا لبعض الناس (لأول وهلة: على الأقل) أن نقول بأن هدف التربية هو تكوين شخص يكون تفكيره مبتهجًا في 90٪ أو 95٪ من أوقاته.

إن المجتمع الناجح يكون جل أعضائه سعداء، لأن الشخص السعيد يكون مؤمنًا ومتزنًا لا يؤذي غيره ولا يميل للإجرام والعدوان ولا يعثو في الأرض فسادًا. ونلاحظ أنواعًا من الأجرام والانتحار والفساد في البلاد المتقدمة لأنه وإن كان العلم قد تطور في هذه البلاد فإن التربية لم تصاحبه ولم تلازمه في سرعة تطوره. ونجد أن كثيرًا من الناس يعيشون رغم ثقافتهم وشهادتهم ويسرهم المادي في جو من القلق والشكوك وخيبة الآمال والمنافسات المضنية وغير ذلك من المشاكل العائلية والعاطفية.

وقد كررت كلمة «السعادة» خلال الحديث عن التربية والتعليم، وأرجو أن لا يعتبر هذا إغراقًا في التفاؤل. كثير من الناس ينظرون إلى السعادة بأنها سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولا أرغب هنا في الحديث عن السعادة الفلسفية بل السعادة بمعناها الطبي الملموس. وهي في أبسط التعاريف وأقربها للحقيقة حالة يكون فيها تفكير الإنسان راضيًا ومبتهجًا ومنسجمًا مع الواقع في أغلب الأوقات. ومن هنا علاقتها بالتربية الرامية لخلق الشخص الناجح الراضي المبتهج.

ومن المؤسف أننا نلاقي نوعًا من الناس ليس فقط أنهم لا يعترفون بوجود حياة سعيدة، بل هم لا ينفكون ينشرون الشقاء واليأس في حياة من حولهم بتذمرهم وانتقادهم وتشاؤمهم. وهم، وإن كانوا لا يرغبون في أن يكونوا أشقياء، إلا أنهم يعتبرون الشقاء شيئًا عاديًا في الحياة والسعادة حلما بعيد المنال. ولا علاقة لمثل هذا الاعتقاد الخاطئ والتصرف الفاشل والوجود السلبي لهذا النوع من الأشخاص بدرجة ثقافتهم ونوع مهنتهم. إننا نلاقي كثيرًا من الذين لم يدخلوا المدرسة وممن يتعاطون مهنًا بسيطة أو صعبة ينعمون بمزايا التفاؤل والرضى والواقعية والسعادة.

والواقع أن مثل هؤلاء الأشخاص الأشقياء لا يؤثر عدد السنين التي أضيفت إلى عهد طفولتهم على طريقة معالجتهم لما يعترضهم من مشاكل. فهم يجابهون الصعوبات بحلول مستمدة من ذلك العهد. وكلنا يعرف ويذكر قصة الطفل الذي ظل يبكي طالبًا من أمه أن تحضر له القمر، والطفلة التي سقط كأس الحليب من يدها ولما قدمت لها أمها كأسًا ثانية راحت تبكي مُلِحَة أن ترجع ما تدفق في الكأس. والنتيجة عند الكبار هى أن التصرفات غير الواقعية تجلب الفشل، وهذا

يزيدهم سخطًا وتذمرًا ويدفع بعواطفهم أن تهيج، ويتلو ذلك أو يلازمه جو من الحقد والشعور بالخيبة والتعاسة.

وحبذا لو كان من السهل تعميم التفاؤل والسعادة على جميع أولئك المحرومين والمتوترين والمتحسرين كما يمكن تأميم المصالح ذات المنفعة العامة. ونحن لا نكون واقعيين إذا لم نعترف بأنه لابد من توفر حد أدنى من المادة قبل أن نطالب الإنسان بالبشاشة والرضى عن النفس. ولكننا كذلك نشاهد أن توفر المادة عند كثير من الناس لا يؤدى دائمًا إلى حياة أفضل وأنجح، حياة خالية من المشكلات النفسية تمامًا، كما هو الحال بالنسبة لمن يحصل على الشهادة مثلاً ويفشل في الحصول على حياة سعيدة راضية.

وتجدر الإشارة إلى أن الحياة الحديثة والعصر التكنولوجى قد زاد، أو أصبح الآن يزيد من قابلية الانزعاج عند من لهم ميول للأمراض العصبية ومن كانت بنيتهم الجسدية لا تساعدهم على تحمل مشاق حياة السرعة والضجيج والتلوث والانتظار.... ويضاف لذلك ما يساور بعض النفوس من مخاوف عندما يفكرون فى خطر الحروب العصرية، ومشاكل تزايد السكان وتلوث المحيط إلى غير ذلك من الخصائص التي يجلبها التقدم والتي لا يرتاب أحد في أن منافعها ومحاسنها لا تحصى.

والحقيقة أننا نلاحظ كثيرًا من الأشياء التي يمكن أن يسميها البعض «مزعجات» في وسط الحياة اليومية في المدينة الكبيرة. فهناك رنين التليفون، وضجيج السيارات ودخانها، وصوت التلفزيون والراديو،

والموسيقى الصاخبة. ثم إن هذا الوسط الإعلامي جعل الإنسان على اتصال بالعالم البعيد ومعرضًا للتأثر بما يحدث في أقطار أخرى. فهناك المباريات المثيرة من ملاكمة وسباق بكل ما في ذلك من عنف وركض وسرعة، وهناك الإثارة الجنسية ومشاهد العنف في الأفلام والمجلات والإعلانات. وإذا حدثت كارثة في اليابان أو شيلي شاهدها الناس عندنا، وعندما ترتكب جرائم في الفيتنام تظهر على شاشة التلفزيون، وما يرافق ارتباط الإنسان بالعالم من برامج مثيرة وأخبار تجعله يعيش وسط مشاكل العالم والناس، فهو يسمع عن زرع القلوب، وأمراض السرطان، وكوارث الزلازل والحرائق والقنابل والصواريخ وغير ذلك مما يخلق عند ذوي الإحساس المرهف نوعًا من القلق والتبرم أو يقودهم للتشاؤم حول مصير العالم والبشرية.

ويسود حياة المدن الكبيرة السرعة. فالناس يسرعون للموعد، وللمكتب، وللعمل وللسوق. ويتسابقون للحصول على الوظيفة، وعلى البضاعة، وعلى وسائل النقل. وتتسم الحياة أيضًا بالانتظار فنحن ننتظر الحافلة، والحصول على وثيقة، وننتظر نهاية الأسبوع، وحتى نهاية النهار، بل وننتظر إشارة الشرطي أو الضوء الأحمر أو نهاية الشهر... ويتصف هذا الانتظار أحيانًا بالقلق، بل ويمتزج بالسرعة فيكون جسد الإنسان واقفًا في انتظار دوره، وفكره يشتغل فيقطع المسافات أو يحل المشكلات في سرعة تتناقض مع بقاء الجسم دون حركة. ويبدو هذا التناقض بشكل امتعاض في حركات الشخص المنتظر أو حديثه مع نفسه أو مع شخص بجانبه.

وسواء نتج انزعاج المرء عن كونه تبادل كلمات غير لائقة مع

رئيسه في العمل أو مع سائق آخر أو لمجرد انتظاره لقضاء غرض ما فإن أثر ذلك الانزعاج قد يتجلى عند بعض الناس، بالانقباض أو وجع الرأس أو زوال النوم أو الشهية أو في معاملته لأهله عند رجوعه للمنزل.

ولا يكفي أن يهز المرء كتفيه قائلاً: «لا حيلة لي ولا مناص، لقد خلقت سريع التأثر، ضعفي وحساسيتي كانا نتيجة الحياة المضطربة التي مرت علي وقد أكون ورثت الكثير من هذه الصفات عن أبوي وأجدادي... إلخ لأنه في إمكان الإنسان أن ينمي سياجًا واقيًا يحفظ حالته النفسية من التدهور ويخلق عنده نوعًا من المناعة كما يخلق التلقيح مناعة ضد الجراثيم.

ومما يساعد على ذلك أن يتبنى المرء فلسفة إيجابية في الحياة يصحبها باكتساب عادات صالحة تحفظ له هدوءه وتوازنه. والفكر الإنساني الذي شيد الممالك وغزا الفضاء واستغل أعماق المحيطات ومكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، قادرٌ على أن يكون لك حصنًا ويخلق لك سياجًا يعصمك من الحياة المضطربة وضجيجها.

والفكر الذي اخترع الكهرباء والهاتف ومكن الإنسان من اجتياز سرعة الصوت في تنقلاته والذي صنع وسائل الدمار من قنابل وصواريخ وأسلحة كيماوية مخربة، في إمكانه أن يسخر كثيرًا من مجهوداته لراحة صاحبه وهدوئه إذا تغلبت فيه قوى الخير على دوافع الشر.

ويمكن القول بأن ما يعوزه الفرد الذي لا ينفك يشكو من مشكلات الحياة العصرية ومتاعبها، هو أن يحاول الانسجام مع المحيط ويتقبل ظروفه بدلاً من أن يتخذ من ذلك موقفًا سلبيًا. إنه من العبث أن يحاول المرء أن يكيف العالم كي يتلاءم مع رغباته وأحواله. وإذا انتظر

شخص أن يحصل على مراده بالبكاء والتشكي والانعزال، فإنه ينتظر طويلاً، اللهم إلا إذا كان ينتظر أن تمتد له يد أم حنون بلعبة أو قطعة من الحلوى.

وإذا أخذنا من حياتنا الواقعية أمثلة كتاجر عاكسته الظروف فخسر أمواله، أو فتاة لم تنجح في زواجها فطلقت، أو شخص أصبح معقدًا بعد حادث عمل أو سيارة، أو أصيب بمرض عضال.. إلى غير ذلك، فإن سلوك أي من هؤلاء إما يكون سلوكًا ناضجًا بأن يبدأ صاحبه بتقبل المصيبة بكل ما يترتب عليها، ثم يسعى لإنقاذ وإصلاح ما يمكن إنقاذه وإصلاحه، أو الاستعداد للبدء من جديد ونسيان ما حدث. وإما أن تحدث المصيبة هزة عنيفة في نفسه تضعضع ثقته وتشوه حياته وتحطم أعصابه.

والرضا بالحادث مبدئيًا مهم، لأنّ الثورة والسخط والهياج عند الأزمة تجعلنا، غالبًا، لا نتبع السبيل المنطقي للخلاص ولا ننتبه لجميع الاعتبارات والوسائل التي تساعدنا على التغلب على المشاكل. فالنوع الأول من السلوك يجعل المصاب سيدًا للموقف ويجعل من حوله يقدر ثباته وصبره ونضجه.

ومما يزيد الإنسان توترًا واضطرابًا في أفكاره وأعصابه وحياته صفة فقدان الأمن والتعطش للمساعدة. إذ يشعر بعض الأشخاص، عندما يتركون لأنفسهم أنهم غير آمنين وغير قادرين على حل ما يعترضهم من مشاكل، لأنهم تعودوا على وجود شخص آخر بجانبهم. ويمكن علاج هؤلاء في التدرب على اتخاذ قرارات وعقد صفقات والابتعاد عن التردد لزيادة الاعتماد على النفس والاستغلال الذاتي. ولأن يعقد

المرء العزم ويدرس المعطيات ثم يتخذ قرارًا في مشكلة ما ولو كان قراره خاطئًا أفضل له من أن يغرق في بحر التردد والشك والارتباك.

ولا شك أن الإنسان لا يرضى أن يتحكم إنسان آخر في حياته بحيث تكون للأخير السلطة فيجعله يضحك عندما يريد ويغضب عندما يشاء ويحزن تارة ويبتهج أخرى. فلماذا يرضى إذًا أن يكون طبعه خاضعًا للحوادث فتسؤوه المزعجات، وتملي عليه أن يغضب فيفعل وأن يقلق فيطيع، وقد أثبتت التجارب أن الفرد الذي يثور ويرتبك عند الشدائد ويسخط على الحياة والناس، مناديًا بمعاكسة الظروف وفساد الزمان وقلة الحظ، مثل هذا الشخص لا يسير في الاتجاه الذي يساعده على حل مشاكله حلاً مرضيًا ولا يحظى بالثقة والتقدير.

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وإذا كانت تأميمات المصالح العامة ترجع بالنفع على مختلف طبقات الشعب وتستقبل من قبلهم بالتحبيذ والتشجيع، فما أحوجنا أيضًا إلى العمل على خلق الوسائل التي تمكننا من تعميم التفاؤل والرضى في نفوس هؤلاء المتشائمين المتخوفين والباكين والمنتقدين، لأن الابتهاج والشعور بالسعادة يزيدان في الاستمتاع والانتفاع بالخيرات، ولأن الإقبال على الحياة يقوى شعور المواطن بالانتماء للجمهور، بل ويزيد فى الإنتاج الفردي الذي هو أساس الثروة الوطنية لأن الشخص الراضي الإيجابي أقوى تركيزًا وحماسًا في عمله وأقل تغيبًا وأكثر إنتاجًا من الفرد المتشائم الشقي.

*****

في سبيل حياة أفضل

التمتع بصحة جيدة وأخلاق صالحة لا يكفي للنجاح ولا بد أن يكون الإنسان نافعًا. فكونه قادرًا على الإنتاج وعلى الإسداء والمنح صفة مكملة للأخلاق السليمة والتفكير السديد. سيد القوم خادمهم، ليحظى بالمحبة والتقدير ولينال مساعدة الناس وخدمتهم يجب على الإنسان أن يبدأ بنفسه ويسألها هل هو محب، معوان، خدوم، شكور، أم أنه ينتظر أن يأتيه الناس سائلين مسترحمين مستجدين؟ «من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه».

وفي كل إنسان غريزة الخير موجودة، ظاهرًا أم باطنًا. ولقد انتشرت بين الناس أو بعضهم فكرة التحذير من عمل الخير والإحسان للغير. ويقول الرجل لرفيقه: احترس، لقد وقع لي كذا وكذا مع فلان، وما من شك في أن البعض يجازي الخير بالشر والنكران، ويرد الحسنة بالسيئة، غير أن هذا الشذوذ لا يدعو للتشاؤم، والقاعدة الذهبية تبقى صحيحة وهي أنك لا تظفر بحب الناس واحترامهم وخدمتهم إذا لم تبدأهم أو على الأقل تبادلهم بالمثل.

فلا صحة إذًا لدعوة من يغدو ساخطًا شاكيًا سوء حظه، عندما لا يظفر بما ظفر به غيره، لأنه فاته إدراك قانون مهم وهو اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فاحبب له ما تحب لها... والإنسان أناني، وهو لا ينفك يسعى لخدمة مصالحه. والوسيلة

الناجعة الأصيلة للحصول على ما نريد من حب وتقدير واحترام، ولقضاء مآربنا هو أن نقدم أكثر مما نأخذ، ليس ماديّا فقط بل وفي ميدان الخدمات والعلاقات الإنسانية العامة، وأن يعمل بإخلاص ومحبة في مساعدته للغير، وأن يظهر العطف والعناية في الأمور التي تهمهم. وقد يعجب المرء عندما يجد عاجلاً أم آجلاً أن الناس يبادلونه نفس العواطف، وكانت هذه هي سيرة كثير من العلماء.

فالحياة أخذ وعطاء؛ والعضو الناجح هو الذي يدخل المعترك ويعيش في صميم الحياة، لا يندفع دون مبالاة، ولا يحجم دون مبرر معقول، إن كان الفرد يبتغي عيشة راضية هادئة آمنة خالية من المخاطر والمجازفات. ولكن إذا تجاوز الاهتمام بصفتي الأمن والسلامة، وغرق المرء في الحذر خوفًا من الفشل فإن هذه المبالغة في التحفظ تصبح عائقًا عن النجاح.

حب السلامة يثني عزم صاحبه

عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وإذا أصبح المرء لا يقدم على مهمة إلا إذا تأكد من النجاح، فإنه يرسم في مثل هذه الحالة حدودًا لمواهبه وإمكانياته. وبدون حماس لا نَستلذ كثيرًا أعمالنا ولا نجدد الإنتاج. فلا بأس أن يلقى المرء دلوه في الدلاء، إذا سلم بأن الهدف الذى يرنو إليه جديرٌ بالعناية. وليأتيَ الإقدام والحماس بثمرة طيبة فلا بد أن يكونا مقرونين بشيء من الثقة والمثابرة وبالإيمان.

وإن الإيمان يمكننا من أن نُحسّن كثيرًا من أحوالنا النفسية إذا

هي ساءت. فالإيمان بالله، والإيمان بالنفس والإيمان بالهدف وبالنجاح يؤثر على نوعية الأفكار التي تتخلل حياتنا ويزيل الشك والارتباك واليأس الذي يراودنا في ساعات الشدائد، ويحارب التصورات العقلية السلبية. ولولا إيمان الشعوب المستغلَّة بحقوقها لما صَمَدَتْ في وجه قوى الطغيان. ولولا الإيمان لما قاوم الأجداد الفرس والروم وهزموهم وفتحوا وتحملوا وصبروا. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وإذا كان من الأقوال السائرة لا تؤجل عمل اليوم للغد، فإننا يمكننا أن نضيف ولا حياة اليوم للغد. ومن الغلطات المنتشرة أن يحدث المرء نفسه قائلاً سأصبح سعيدًا إذا حصلت على الشهادة، إذا بنيت منزلاً، إذا رزقت ولدًا، إذا جمعت أموالاً... ومن الصواب أن لا يؤجل المرء الاستفادة والاستمتاع من الحاضر. وليس من الحكمة أن يبيع الإنسان حاضرًا بغائب، وأن ينتظر بلهفة تحقيق هدف ما ليشعر بالرضى. فهذا النوع من السعادة مشروط، ولا يجب أن يعلق الفرد سروره واطمئنانه بتحقيق شيء في المستقبل .

وكما لا يستحسن أن يغرق المرْء في الاهتمام بما سيأتي بصفة غير عادية، ولا أن يضيف هموم الغد لمشاكل اليوم، فإنه لا يستحسن أن يعيش في المستقبل بخياله، وفي الحاضر بجسده. من يعش في الماضي يصفعه المستقبل، ومن يعش في المستقبل يصرعه الحاضر.

فأحسن طريقة لخدمة المستقبل هو أن يستغل الحاضر في العمل لا في التخطيط والحسابات والتخوفات فحسب. عش يومك منشرح الصدر، رافعًا الرأس متمتعًا بما حولك وما عندك، واعمل شيئًا مفيدًا لتقدمك عقليًا واجتماعيًا وأخلاقيًا. ولست أدعو إلى تناسي

المستقبل كليًا والتركيز فقط على الحاضر، فلا بد من أن يضع المرء برامجه ويخطط حياته وأهدافه ويفكر في المستقبل، لأن الأمل في تحسين الأحوال حافز على الجد. ولكن الاستغراق في تصور ما سيحدث وعدم استغلال الفرص الحاضرة يجلب الندامة ويجعل حياة الإنسان عقيمة جافة.

إننا لا نقطع جسرًا لم نصل إليه. وإذا جاء الغد أصبح اليوم. وما رأيك في طالب راح يفكر في صعوبة الامتحانات وركز شعوره على نتائج سقوطه وهو يتخيل ضخامة البرنامج وقساوة الأساتذة وعدم صلاحية طريقة الامتحانات الحالية... إلخ بدل أن يقول إني واثق من النجاح، ويهجر التكهنات ويستغل وقته في الدراسة الجدية؟ وكلنا يعرف ويعترف بأن التخوف والتشكي والتمني والتحسر ليست من صفات الشخص الناجح.

وهل يمكننا أن نعرف الإنسان الناجح؟ إن كلمة النجاح تعني معاني مختلفة لأشخاص مختلفين: فالثراء والسعادة الزوجية نجاح، والحصول على وظيفة عالية، وحل المشاكل، والفوز على الخصم، التمتع بجسم قوي، خدمة المجتمع، الثقافة، ...إلخ ذلك نجاح. ويمكننا القول بصفة مختصرة أن الفرد الناجح هو الذى يستطيع حل المشاكل التي تعترضه بطريقة لا تجعله يخسر أو يكسب على حساب غيره. ومعنى هذا أن لا يكون نجاحه مزيفًا بأن يستعمل ذكاءه وخبرته أو سلطته أو قوته لخلق نوع من الشقاء للغير. وهذا التعريف بعيد عن الواقع الذى نعيشه، غير أن هذا ما ينبغي أن ندخله في أذهان أبنائنا.

وقد سبقت الإشارة إلى أهمية الثقة بالنفس لكل نجاح. ومما يساعد على تنمية هذه الصفة أن يتوقف الشخص على احتقار نفسه

وانتقادها ذلك الانتقاد الممزوج بالتحسر المستمر وبالشعور بالذنب. ونجد بعض الأشخاص لا ينفكون يضربون أنفسهم بسياط التأنيب وهم لا يغفرون غلطاتهم الماضية لأنفسهم. وإذا كانت التوبة تغسل ما مضى فما على المرء إلا أن يشرع في الإصلاح والبناء وأن يعقد العزم على نسيان ما فات وأن يتعاطى أنواع النشاط التي تلهيه عن التركيز والانطواء على نفسه .

ومن مؤهلات النجاح أن يكون المرء مقبلاً على الحياة شاعرًا بمسؤولياته وأنه جزء من كلّ ، ليّن الطبع ينسجم دون مشقة مع الناس وظروف المكان والزمان المتبدلة، ومن لا يذكر قول معاوية لو كانت بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت.. ولا أتذكر الآن اسم الخليفة الذي استدعى شخصًا ليوليه مسؤولية وقال له هؤلاء أشخاص ثلاثة، أقسم بينهم فرسين(*). فأجاب على الفور فليأخذ أحدهم فرسي.

ومن الأهمية بمكان أن يعرف الإنسان أن ما يجري في الحياة يسير وفقًا لنظام منطقي حكيم وخطة إلهية سامية وأن وجوده كان لا يمثل إلا ذرة في هذا العالم. فهو خاضع لهذا النظام الشامل، يتأثر بما فيه من شروره وينال من خيراته ونعمه. فالفرد عضو في العائلة والعائلة جزء من القرية أو القبيلة أو المجتمع، والمجتمعات تتعاون وتتحارب وتتفاعل. ونحن خاضعون لقوانين كرتنا الأرضية وهذه تابعة لنظام أعم في المجموعة الشمسية وكل في فلك يسبحون.

وإذا تصور الإنسان هذا النظام العظيم فإنه من دون شك يحتقر الخلافات والحزازات والمنازعات ليس فقط بين الأفراد بل وبين

(*) (وكان هدف الخليفة أن يختبر حزم الرجل وقدرته على حل المشاكل) فأجاب الرجل على الفور: فليأخذ أحدهم فرسي.

الشعوب أيضًا. وقد شاهدنا كيف تبدو الأرض بحجم البيضة السابحة في الفضاء عندما أدار رواد الفضاء الأمريكيون عدستهم نحوها من على سطح القمر أقرب كوكب إلينا، ويعتبر بعد القمر سخيفًا إذا قيس بأبعاد كواكب أخرى.

كنت أحس في يوم برد قارس من أيام شتاء 1961 بكآبة وقلق لم أتأكد من مصدرهما(*). وبينما أنا سائر تتناوبني أفكار غامضة وهواجس، متبرمًا بالحياة ساخطًا عليها، وقعت عيناي على رجل مسن، مرتديًا ثيابًا ممزقة لا تكاد تحفظه من البرد والريح القارس. كان وجهه محمرًا وشعره الأبيض مشعثًا وهو يدفع بعربة نقل فوق الثلوج مترنمًا بأناشيد مرحة. وقفت واستمعت وحدقت في عينيه فالتفت وحياني قائلاً يوم جميل، أليس كذلك؟ فهززت رأسي موافقًا. لقد كانت عيناه تشع بالحماس والمرح وكان وجهه رغم التجاعيد وقسوة الظروف يوحي بالمحبة والرضى، من يدري ؟ لعله كان لا يملك قوت غده. ولكن سلوكه كان ينم عن فكر سليم وتصور إيجابي ورضى عن النفس، وقد ترك منظر هذا الشيخ شعورًا بالتفاؤل والحماس.

ومن كانت نفسه بغير جمال   لا يرى في الوجود شيئًا جميلاً

ألا يحق لنا أن نصيح بأولئك الذين يحسبون السعادة شيئًا أبعد من أن ينال في هذه الحياة ومن يكتمون شعورًا عميقًا بالخيبة والذنب، بأن السعادة نائمة داخل نفسك تحت أنقاض العادات والإيحاءات السيئة. فالسعادة شعور داخلي يخلقه المرء عندما يوجه تفكيره نحو تصور الخير، وعندما ينجح الفكر في التغلب على أحاسيس الخوف والتشاؤم وغير ذلك من العواطف السلبية. وكما يتعود المرء على

(*) كنت في مدينة بلغراد للدراسة.

الشعور بالغبطة عندما يرى شيئًا محبوبًا أو مرغوبًا فيه، فإنه يمكنه أن يُعَمِّمَ بالمران عادة الاستحسان والشعور بالرضى، بأن ينقلها من شيء رائع إلى شيء جميل إلى ما هو أقل جمالاً في عين المشاهد طبعًا، لأن القبح والجمال والخير والشر يوجد قبل كل شيء في فكر الإنسان. فالسعادة إذا يمكن أن تدخل كل بيت وأن تشع في كل نفس وتصبح عادة عندما ندرب أذهاننا على التفكير فيما هو صالح وعلى التركيز على الجانب الجميل من الأشياء وفي الناس.

ومثل هذا التصرف يخفف كثيرًا من العناء ويهدئ من أعصابنا ويلطف من الخشونة التي يعامل بها بعضنا البعض. ويمكن القول أن جُلَّ المنازعات والخصام ناشيء عن سوء فهم وتقدير نوايا ومشاعر الشخص الآخر. فكلمة اعتذار أو كلمة اعتراف أو شكر أو محاولة رؤية الأشياء بمنظار الشخص الآخر أو التعبير عن الاحترام... تثير في خصمنا نوازع الخير. الواقع أنه عندما يختصم شخصان ويحمي وطيس الكلام، فإن كلا منهما يغرق في الاختراع والمبالغة ورفع الصوت لأن العواطف الثائرة تسيطر على العقل. ألم يحدث لك مرة أنك صبرت وسكت وأفسحت المجال لمن خاصمك سواء كان قريبًا، أو مديرًا، أو صديقًا أو جارًا، أن يستمر في لومه الكلامي. ثم جاءك هذا الشخص أو بعث يعتذر مع صديق؟ وحتى إذا لم يعتذر فإنه يشعر داخل نفسه بأنك أعقل وأكرم خلقًا منه ولكن لكل قاعدة شواذ لا ينبغي أن نتأثر بهم ولا يخلو الحال كما يقول الشاعر من أنك:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

اصطدمتْ ذات يوم سيارتان في إحدى شوارع واشنطن فخرج شخص من سيارته وخاطب الآخر مبتسمًا: إني آسف يا سيدي على ما

حـصل. هل يمكنك أن تسـاعـدني فـي إيجـاد جـواب ينقـذني مـن ثورة زوجتـي عندمـا أرجع للمنزل (وكان يمزح) فنشـرتْ هذه الملاحظـة جوًا وديًا وساعدته في حسن التخلص. ويحضـرني المثل الصيني القائل: إن رجلاً بدون وجه بشوش لا يحق له أن يفتح تجارة. وفي المثل الألماني:

لم يرزق الله كل مخلوق بوجه جميل. ولكن كل شخص يمكنه أن يُجمّل وجهه بالبشاشة. ونظر عربي في المرآة فلم يجد وجهًا جميلاً فأنشد:

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم

ولا ريب أن هذا أقرب إلى القلوب من الذي صاح بنفسه:

أرى لي وجهًا قبح الله صنعه

فقُبِّحَ من وجه وقُبِّح حامله

والشخص الناجح يقبل على الحياة بنفس العزم والاحساس حتى عندما توليه الحياة الإدبار وفي ساعات العسر واليسر. والانتصار على القدر ليس في مجابهته أو الهروب منه بل بقبوله.

إن المشاكل التي يغمرنا من أجلها الشقاء، إذا ما حللت ودرست بطريقة منطقية وجدناها لا تساوي الثمن الذي ندفعه من صحتنا، فلما يجلب الإنسان على نفسه التعاسة من أجل أمور تافهة وحتى من أجل أمور مهمة ؟ وهل يرضى الفرد أن يبيع توازنه العاطفي أو شهيته أو نومه أو بصره أو جزءًا من أمعائه بمليون أو عشرة ملايين".

*****

التعليم والمعلمون: (1)

عَـمَلُ المعلم مسـاعـدة الجـاهل ليـزداد علمًـا، والأخـرق ليكتـسب مـهـارة. ومـيـدان التـعلم واسع جـدًا، من تعلم الأبجـدية إلى نظـريات أينشطاين مثلاً، ومن وضع حجرة فوق أخرى إلى إجراء عملية جراحية للقلب، لذلك فإننا نرغب في الحكم على مقدار المعرفة أو المهارة التي يملكهـا شـخص مـا. نقـول مـثـلاً إن الأب يعـرف أكثـر من طفله وفـلان يجيد بناء الجسور أو تصليح السيارات.

وقـد تخلق هـذه التـقـديرات البـسـيطة مـشـاكل أو صـعـوبات في عـلاقتنا اليـومية. عندما نقـول «فـلانة أعلم من فـلان» قـد نتسـاءل عن مدى صحة الحكم ونتردد في قبول دعوى المتكلم. غير أنّنا لا نشك في كون درجات ومقادير المعرفة تختلف من فرد لآخر.

وتخـتلف نظـرة المربي في الحكم على درجـة المعـرفـة عن نـظرة «رجل الشـارع» إذ أن حكمـه يتـعلق بمهنتـه. وقـد تطورت طرق ووسـائل اختبـار المعرفة والإنجاز فأصبحت فنًا معتبـرًا يجعل أحكام المربين على مقدار المعرفة أو المهارة التي يملكها فرد ما أكثر دقة وأقرب للواقع.

وعندمـا نقـول «معلومـات فـلان عن جغـرافـية أفـريقـيا أكـثـر من معلومات فلانة» نبقى في حاجة إلى معرفة ما إذا كان الحكم صحيحًا، ومعـرفة كم يفـوقهـا في المعرفـة. ونسمع اقتراحًـا مفاده أنـه «إذا قدمت

هذه المادة للطلاب بهذه الطريقة يستوعبونها بسرعة أكبر» فنتساءل عن مدى صحة الاقتراح، وهل الفرق الزمني يبرر المجهود؟ وللإجابة على هذه الأسئلة وغيرها يعتمد الخبراء على خلاصات الإحصاءات لآلاف الامتحانات الخاصة التي تدعى بامتحانات الإنجاز والتحصيل.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار دور المعلم فى مساعدة الطالب أو الطفل على تحصيل العلم والمهارات ، فكيف نجيب على الأسئلة المتعلقة بكفاءة المعلم وقدرته وفعاليته. نقول فلان معلم جيد لأن تلاميذه حصلوا على معلومات واسعة، وفلان معلم ضعيف لأن تلاميذه لم يتعلموا كثيرًا. فكيف نؤكد ذلك ؟ وما مدى صحة امتحانات آخر السنة أو امتحانات «الإنجاز والتحصيل» أو غيرها؟

يبدو لأول وهلة أن تلك المقارنة بين المعلمين سليمة ومقبولة. وقد اقترح بعض المربين اتخاذها ميزانًا لتقدير كفاءة المعلم، وأضافوا أن يعتبر المعلم مسؤولاً على «نتيجة السنة» لدى طلابه واختبار هذه النتيجة بواسطة امتحانات التحصيل والإنجاز، وبالتالى دعا هؤلاء المربون إلى جعل أجرة المعلم وتقدمه تابعًا لمقدار إنتاجه.

غير أن هذه الاقتراحات تحتوي على مصاعب ونقائص شتى، تتعلق بوسائل القياس المستعملة في الاختبارات، وبصلاحية المنهاج أو صحته المطلقة ، كما يصعب تقدير تجارب وخلفيات التلاميذ والتأثيرات النفسية والعائلية التي تؤثر على سلوكهم .

والواقع أن اتخاذ نتائج آخر السنة للحكم على كفاءة المعلم عملية

سطحية وغير مجدية. ويرجع ذلك لا إلى ما نتوصل إليه من معلومات بالاعتماد على الاختبارات المشار إليها، بل إلى ما يبقى مجهولاً، إلى ما لا تكشف عنه الاختبارات، والسؤال المطروح الآن هو: ماذا تهمل النظرية القائلة باللجوء إلى امتحانات الإنجاز والتحصيل ؟

يبدو لأولئك الذين لم يتعاطوا مهنة التعليم ولم يفكروا فى مدى تعقيدها يبدو لهم وكأن مهنة المعلم تتلخص في الوقوف أمام التلاميذ ليقول لهم ما ينبغي أن يعرفوه ويرشدهم إلى كيفية صنع الأشياء. وفي الواقع نجد أن المعلم يطلب من تلاميذه القيام ببعض النشاطات ويقوم هو بتقديرها. غير أن عبء المسؤولية في نجاح أو فشل تلك النشاطات يلقى على عاتق المعلم. ويعتقد الكثير أن مهمة التعليم تتلخص في مقدار ما يناله الطالب من العلم والمهارة.

ولكن بعد تأمل قليل ، نجد أن سنوات الحياة والتجارب الدراسية تترك في نفوسنا أثرًا أعمق بكثير من تلك المعلومات التي تسبب لنا النجاح أو السقوط في الامتحان . إذا ينبغي تقدير جهود المعلم والتساؤل عن إخفاقه ونجاحه فيما يترك من أثر في نفس التلميذ وما له من تأثير على سلوكه وتربيته .

فالعلاقات الإنسانية تتجاوز حدود الدروس والواجبات المنزلية. ولا يمكن تقدير ذلك على ورقة الامتحان عادة، أو في الأمد القريب. فالمعلم لا يدلي فقط بمعلومات بل ينتقدها ويحكم عليها ويكسوها بطابعه ويشبعها بروحه .

عندما يقف المعلم ليشرح ويبرهن ويعلم طلابه حل المشاكل وكسب المهارات ، يكون إيحاؤه الأساسي إمكانية القيام بتلك النشاطات ولكن لا يجوز أن يقف أمام طلابه وكأنه موسوعة من المعرفة فقط بل كإنسان وكمثال لما يمكن لأي إنسان أن يفعل. ووجوده في الصف ليس فقط كمثال يشاهد ويسمع ويأمر وينهى ويحتذى. بل أيضًا كشخص يرى ويسمع ويتجاوب مع من حوله ومن يرغبون في الاحتذاء.

وهكذا تتضمن فعالية وإمكانيات وتأثير المعلم تعزيز أهمية التعلم في جميع أشكاله بالانغماس الكلي في جو التعليم والمتعلم.

وبالنسبة للأطفال يكون للمدرسة مجال آخر يؤثر في حياتهم. إذ يلاقون هناك لأول مرة عددًا من الأنظمة والقواعد ونوعًا من السلطة غير المباشرة. ففي وسط جمع من أقرانه وفي شبكة من الأوامر والنواهي يعيش الطفل بعيدًا عن حماية أبويه ويتعلم حسب مستوى جماعي يطبق على الجميع.

وفي هذه المرحلة التي يقوم فيها المعلم بإرشاد الأطفال ومساعدتهم على إدراك القواعد والأنظمة وتطبيقها، يظهر لديهم بمثابة الحكم ويتعلمون منه مفاهيم الخير والشر والعدالة.

وغالبًا ما يكون المعلم أول راشد بعد الأبوين يتولى أمر الطفل ويظهر اهتمامًا بمصيره وعناية براحته. أما بالنسبة للطلبة فإن للمعلم فرصة إضافية يمكنه أن يمثل فيها دور من يبحث عن العلم بنزاهة وحرية ويفتش عن المعرفة والحقيقة دون تحيز أو تعصب.

وإذا كان تأثير المعلم شيئًا مسلمًا به فإنه لا ينبغي أن ننسى ما يلاقي المعلم من مصاعب في القيام بدوره وتأدية مهمته. أي معلم لا يطمح في جعل جميع تلاميذه محبين للعلم؟ ولكن كيف يحقق ذلك؟ وكيف يمكننا التنبؤ بردود فعل الطلاب تجاه تصرف المعلم؟ فهذا يحد من قدرتنا على التنبؤ بنجاح هذا الطالب أو ذاك.

وهذا معلم يرى فيه بعض التلاميذ مثالاً للفضيلة ويحسبه آخرون ساذجًا أخرق. وهذه محاضرة تذكي حماس عدد من الطلاب بينما يبقى بعضهم لا مبالين، وحتى عندما ينجح المعلم في جعل تلاميذه مقبلين على التعليم وينجح في تحسين مجرى حياتهم ، فليس هناك ما يضمن اعتراف الناس له بالفضل. إذًا مهنة التعليم شاقة. فيها كثير من اللذة والجزاء الحسن ولكنها لا تخلو من الخيبة أحيانًا.

*****

حول التربية والأطفال

كان الطفل فيما مضى إنسانًا مهملاً عليه واجبات كثيرة وليس له إلا القليل من المستوى، وكان المربون يعتبرونه راشدًا مصغرًا يرجى منه أن ينفذ مطالبهم ويتخلق بأخلاقهم ويتصرف كما يتصرفون. ولكن منذ انكب المربون على دراسة نفسية الطفل وعالمه وطرق تفكيره وتصرفاته نما فـــرع خـــاص في علم النفس يدعى بعلم النفس الطفـــولي أو سيكولوجية النمو .

ونتيجة للبحوث والدراسات التي تلت حصل المربون على حقائق مهمة يستفاد منها الآن في تربية الطفل الذي أصبح إنسانًا مهمًا في العائلة والمدرسة والمجتمع .

كانت المدرسة مكانًا للتعليم فأصبحت محلاً للتعلم، وكان المعلم سيدًا فيها فأصبح للطفل مكانة لائقة، وكانت العائلة تهدف لخدمة الأب ومن يكونها من الراشدين بالدرجة الأولى، فأصبح الطفل يحتل الأولوية، كما بدأ المجتمع يبذل مجهودات كبرى في سبيل توفير إمكانيات النمو والتعلم والراحة والترويح للأطفال. كما سهلت تلك البحوث المزيد من العناية بصحة الطفل العقلية والبدنية، وساعدت فى ابتكار طرق خاصة لتعليم ذوي العاهات وإرشاد الجانحين والشاذين ولتوجيه كل طفل إلى المهنة الأنسب واستغلال مواهب المتفوقين.

وإذا كانت التربية الحديثة قد تأسست على الاهتمام بالطفل والتعرف على نفسيته والعالم الذي يعيش فيه ، فلا بد للمعلم الناجح

أن يقوم بدراسة تلك النفسية وذلك العالم ، وأن يهتم بدراسة غرائز الطفل وميوله وطرق التفكير لديه ، وأن يعرف ماذا يستميل الطفل، وكيف يستميله وكيف يرغبه في العمل إلى غير ذلك .

وقد ظل بعض علماء النفس فترة من الزمن يقولون بأن الطفل قطعة شمعة لينة تكيف في أي صورة نريد، وكان آخرون يؤكدون بأن الطفل يولد موثقًا بحبال غرائزه واستعداداته التي تحدد طبائعه كما تؤثر الوراثة ومحيط ما قبل الولادة في تكوين طبائعه وتصرفاته . والحقيقة أن في كل من الرأيين شيئًا من الصواب.

وهناك أمور عديدة لا تزال موضع بحث وخلاف عند علماء النفس ، غير أنهم يجمعون الرأي على اعتبار السنتين أو الثلاث سنوات الأولى من حياة الطفل ذات أهمية عظيمة ذلك لأن الطفل يظل يتأثر بتجاربه المبكرة، بصفة شعورية أو لا شعورية، طيلة حياته .

غير أنه رغم ضخامة واتساع التجارب والمعلومات التي يتعرض لها الطفل في خبراته المبكرة فإنه لا يذكر الكثير منها في رشده. ومن المعلوم أن الفرد يكون قد قطع شوطًا كبيرًا في السنوات الثلاث الأولى في مدرسة الحياة، يكون قد أتقن جزءًا كبيرًا من لغته اليومية، وحصل على ثروة تفكيرية وعقلية وتعلم عددًا من التجارب والمهارات، وأصبحت له ميوله ونزعاته ونزواته ونظرته للأشياء وحكمه على الناس.. إلى غير ذلك. غير أن النسيان يعفى على هذه الفترة أو الجانب الأكبر منها. كما تقدم.

وبما أن حياة الإنسان سلسلة وحلقات متصلة، فإنه من الواجب أن نعتني بالطفل أو اليافع في جميع مراحل حياته. وكما أن الوقاية

خير من العلاج في الأمراض البدنية فإن الاهتمام واليقظة المتواصلين أمر ضروري في التربية .

إن الطفل يجنح للتفكير في الحاضر ولا يدرك معنى المستقبل بوضوح، وعلى المربي أن يرغبه في الأشياء التي يريد منه القيام بها. للأطفال طرق خاصة في الحكم والتعليل والشعور والتحليل والتفكير، ومع ذلك نأتي نحن الكبار فنعاتبهم أو نعاقبهم عندما يحيون حياتهم ويعيشون في عالمهم. إننا نلومهم عندما لا يتبعون طريقتنا ويتصرفون مثلنا ، ولكن نحن الذين لا يعقلون.

إن الطفل يعيش في عالم سحري عجيب وبريء، وعلى البالغين أن يمهدوا لمراحل الانتقال من هذا العالم الخيالي إلى عالم واقعي بلطف وهدوء وخبرة. لماذا نريد أن نرفع الطفل بسرعة إلى مستوانا قبل أن ينضج؟ ولماذا لا ننزل نحن إلى عالمه ونعيش معه بعض الوقت؟ إن المربي الخبير يتنازل عن التفكير في نفسه وعن معلوماته وتجاربه، وينتقل بخياله وقلبه إلى مستوى الطفل يأخذ بيده ويقوده تدريجيًا، ويساعده على النمو والتطور والتفتح جسديًا وعقليًا وعاطفيًا واجتماعيًا.

فقد نكون علماء نفس ، نعرف كثيرًا من الحقائق والمعلومات والمهارات التي ينبغي تعليمها للأطفال، ولكن نلاقي صعوبات جمة في بلوغ هدفنا إذا كنا نجهل حياة الطفولة ونفسية الصغير وغرائزه وميوله ومستوياته الوجدانية والعقلية ، ونجهل رغباته واستعداداته ومناطق الضعف والقوة لدى الطفل .

إن الطفل يندفع نحو الحرية ويميل للنشاط والحركة حسب هواه، مكفولاً بغريزة البقاء ولكن في حاجة إلى من يحميه من مخاطر

لا يتوقعها أو لا طاقة له عليها . ونحن إذا بالغنا في حمايته نكون قد ضيقنا من حريته ونشاطه. كما أن الطفل في حاجة إلى ثقتنا به لأن ذلك يقوي مواهبه وينمي استعداداته. فلا ينبغي أن نمنع الطفل من القيام بعمل لا يضر به أو بغيره ، لأن التجربة تشحذ خياله وتفتح أمامه عالم الواقع فيرى بعينيه نتيجة عمله.

ولا ينبغي معاقبة الطفل إلا بعد الاستماع إليه وبعد التأكيد من خطورة الذنب واقتناع الطفل بذنبه ، إذ أن كرامته مرهونة بذلك، وكلما أتحنا له الفرصة للدفاع عن نفسه وذكر الأسباب التي دفعته لما يوجب (العقاب) ازداد شعوره بوجود العدل والمسؤولية في محيطه. والأطفال إنما يؤمنون بخطر نشاط ما عندما يدركونه بحواسهم، وحتى إذا تقرر العقاب فليكن لا عن طريق الضرب بل بحرمان الطفل من شيء يحبه أو بإهماله فترة قصيرة .

إننا إذا تسامحنا مع الطفل وتجاوزنا عن أخطائه حرضناه على التمادي وأظهرنا له ضعفنا، لذلك ينبغي الانتباه إلى هذه القاعدة حتى لا يستخف الطفل بالأوامر والنواهي، التي ينبغي أن تكون لمصلحة الطفل بطبيعة الحال.

وأخيرًا اجعل من الطفل صديقًا لك وخاطبه بتعقل ورصانة وصراحة (مع مراعاة اختلاف المستوى).

وعامله بالمساواة والمودة والثقة، ولا تدفعه للكذب والاحتيال بخشونتك وتهديدك. أغدق عليه الثناء وعلمه أن الحياة القويمة الوادعة هي منبع الاطمئنان والسعادة .

*****

الطفل النشيط هدف الرعاية

إن الطريقة التي نتحدث بها إلى الأطفال والكيفية التي نعاملهم بها هي من الأهمية بمكان، أليس في معاملاتنا عادة كثير من التوبيخ والتهديد والتأنيب والتنديد والإغراء والتحقير وتصوير الأغلاط والتركيز على النقائص، إلخ؟ أليس في ذلك ما يمس كبرياء الطفل ويقلق شخصيته ويزعزع ثقته بنفسه .

إن أول الواجبات هو أن نخلق جوًا من التفاهم والانسجام والثقة المتبادلة مع الطفل ، لذلك ينبغي ألا نستعمل تعابير من شأنها أن تخلق التنافر مثل: هل أنت أعمى؟! كم مرة أكرر عليك؟! متى ستتعلم؟ أنت لست ابني! انظر إلى ابن فلان! إلى غير ذلك.

فإذا حدث وارتكب الطفل غلطة يجب على الأهل أو المعلم أن يركزوا انتباههم على الظروف والأوضاع التي وقعت فيها الغلطة لا على شخصية الطفل، من الطبيعي مثلاً أن يستولي الغضب على الأب إذا قلب ولده المحبرة على (بدلة) أو برنوس الأب الجديد، غير أن الحل المعقول هو أنه بدلاً من الاسترسال في تأنيب الطفل (ولا أقول الضرب) التعبير عن شعور الأب، وعما يجب أن يحدث بدلاً عما حدث، ووصف الموقف وما ستخلق تلك الغلطة للأب من متاعب، إلى غير ذلك وكل هذا الحديث لا شك يؤثر في نفس الطفل ويجعله يندم،

ولكن دون أن يهان شخصه أو يضطر للهرب من البيت إلى منزل الجيران، والملاحظ أن الطفل يكون أكثر انتباهًا عندما يشاهد علامات الغضب على أبويه ومعلمه ولذلك كان من الضرورى أن نراقب ما نقول وما نعمل في حالات الغضب.

ويقول الخبراء بأن العقاب لا يجعل الطفل أكثر أمانة وصدقًا، بل يجعله أكثر احتراسًا أو يدفعه للاحتيال والكذب، فأنت عندما تعاقب ولدك الصغير على غلطة ما فإنه يقول لنفسه: «بارك الله في والدي الذي عاقبني إنني منذ الآن سأصبح طائعًا لإرضائه»، فطاعته بعد العقاب (إن وجدت طاعة) إنما هي نتيجة الخوف لا الاقتناع بصواب الأب وغلطة الابن، ويصبح القول هنا أيضًا بأن غرامًا من الوقاية خير من رطل من العلاج، أعني العقاب.

وبما أن العقاب غالبًا ما يدفع الطفل للاحتيال وإخفاء بعض الأشياء التي لا ترضي أهله، فأفضل طريقة هي خلق جو من الثقة المتبادلة، فالأطفال مستعدون للتصريح لأبويهم بأسرارهم عندما يتأكدون من أن والديهم مستعدان لتقبل الأخبار الضارة والسارة، فالثقة تخلق جوًا عائليًا مفعمًا بالصراحة والتفاهم وتشجع الصغار على الإفضاء بمشاكلهم والصعوبات التي قد يلاقونها في المنزل أو خارجه.

ولابد من الإشارة هنا إلى قضية تتكرر يوميًا تقريبًا هى مسألة «الواجبات المنزلية» التي يعطيها المعلم للتلميذ، إن هذه الواجبات مفيدة ليس فقط لأنها تدفع التلميذ إلى تطبيق ما تعلم في المدرسة بل أيضًا

لأنها تهدف إلى تعليمه الاعتماد على النفس وأن يحل مشاكله بنفسه، فهذه الواجبات هي مسؤولية بين المعلم والتلميذ، فإذا تدخل الأبوان بالمساعدة الفعلية قضوا على فائدة الواجبات البيتية، وقد لا يجد الأبوان أحيانًا مناصًا من تقديم مساعدة هامشية أو توجيه وإرشاد، غير أن الفكرة التي يجب أن تغرس في ذهن التلميذ هي أنه هو المسؤول عن «الواجبات المنزلية»!

وما دمنا نتحدث عن تربية الأطفال (وأعني هنا إلى سن 12) وعن مشاكلهم وطريقة مساعدة الكبار لهم، فإنه من المفيد أن نشير إلى عاطفة الخوف عند الأطفال، فكيف نساعد على طرد المخاوف من نفوس الأطفال؟ من جملة الوسائل المؤدية لذلك هي أن يتعلم الأطفال أن جميع مشاعرهم، سواء منها السلبية أو الإيجابية، هي مشاعر يسمح لهم أن يعبروا عنها وأنه بإمكانهم أن يفكروا ويحلموا ويتخيلوا دون أن يفقدوا محبة أهلهم واحترامهم، إن هذه الوسيلة تخلص الطفل من كثير من مشاعر القلق والشعور بالذنب في مستقبل حياته.

ومن المتوقع أن نجد كثيرًا من الآباء، وخاصة أولئك الذين نشأوا نشأة محافظة، الذين لا يقبلون بهذا الاقتراح ، وكثيرًا ما سمعت أباء يوصون أولادهم بألا يتكلموا أمام من هو أكبر منهم سنًا ولا ينتقدوا عادات الأجداد ولا يناقشوا المواضيع التي هي من اختصاص «الكبار» إلخ وهذه التقاليد في طريق الزوال.

وعلى كل فالذي أعنيه هنا هو أننا يجب أن نفرق بين ما يجول بخاطر الطفل من مشاعر وخيالات وأحلام وعواطف وأفكار فنفسح له المجال للتعبير عنها وألا ننهره عندما تدفعه الرغبة إلى الإفصاح عن خبايا

نفسه، فبينما يحق لنا ويمكننا أن نحكم على التصرف بأنه حسن أو سيء لا يمكننا ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك بالنسبة لتصورات الطفل وخواطره.

ومن المؤكد أن أكبر مسببات الخوف والخلل النفسي عند الأطفال هو فقدان الحب والأمن ، فالطفل في حاجة ماسة للحب والأمن لتنمو شخصيته نموًا طبيعيًا، كما هو في حاجة للتغذية لنمو جسده.

إن الطفولة مثل شمس الصباح ومثل الزهرة في بداية تفتحها، فلابد من احترام شخصية الطفل عندما تبدأ تتفتح لكي نساعدها على النمو السليم. وهنا تجدر الإشارة إلى حرية الطفل وإلى القول بأن لحريته حدودًا ومَظَاهِرَ، يجب أن تكون حدود حريته مصلحة المجموعة التي يعيش في وسطها، وأما مظاهر الحرية فينبغي أن تتجلى في صفات «التهذيب والتأديب».

إذًا يجب أن نراقب في الطفل فقط ما من شأنه أن يزعج الآخرين أو يضر بهم، وما عدا ذلك من النشاط في المجالات المفيدة فيجب أن يشجع، إننا كثيرًا ما نمنع الطفل عن القيام أو مواصلة نشاط دفعته بديهيته للقيام به ، ونحن لا ندرك عواقب منع مثل هذا النشاط، وربما نكون بعملنا هذا نخنق في الطفل دوافع الحياة وعوامل النمو.

إن الفكرة الأولى التي ينبغي على كل طفل أن يتعلمها، ليصبح مهذبًا تهذيبًا إيجابيًا، هي أن نُسَاعِدَهُ على التمييز بين ما هو نافع وما هو ضار أي بين الخير والشر، ومهمة المربي هي ألا يخلط ويربط بين النافع (الخير) وانعدام النشاط وبين الضار (الشر) والحركة، وهذا خطأ شائع في طريقة التربية العتيقة التي تصف الطفل الهادئ الساكت بأنه مهذب ، عاقل ومؤدب.

إن هدف التربية تكوين الطفل المهذب الناشط الصالح لا المهذب السلبي الذي يطيع الناس طاعة عمياء ويقلد الكبار تقليدًا أعمى دون أن يسأل كيف؟ ولماذا. كلنا يعترف بأنه لا يمكن أن توجد حرية بدون استقلال، ولذلك كان لابد من توجيه مظاهر نشاط الطفل الأولى بكيفية تساعده على الوصول إلى الاستقلال وتقلل من اعتماده على الغير، فكل نشاط بيداغوجي لا يكون نافعًا إذا لم يساعد الطفل على التقدم في طريق الاعتماد على النفس تدريجيًا وذلك ابتداء من تعلم المشي إلى الجري إلى صعود الدرج إلى لبس الثياب ونزعها إلى التعبير عن النفس واستعمال الآلات وغير ذلك.

من الطبيعي أن يميل الوالدان إلى تدليل الطفل وخدمته لأن ذلك من دلائل المحبة ، ولكن لا ينبغي المبالغة في خدمة الأطفال إلى سن متأخرة، لأن الذي لا يعمل لا يتعلم كيف يدبر الأمور ويقوم بالأشياء عند الحاجة. ويمكننا أن نعمم هذه الحالة حتى على أولئك الأثرياء من الكبار الذين اعتادوا على خدمة الناس لهم أو حتى على المرأة المدللة التي تترك الخادمة تجهز كل شيء، لقد أصبح هؤلاء عالة على الخدم وفقدوا جزءًا من حريتهم في التصرف، بل أدهى من ذلك أنهم فقدوا لذة النجاح والخلق، اللذة التي يشعر بها كل من يقوم بعمل ويتمه حسب مخططه سواء كان ذلك طبخ العشاء أو زرع الحديقة أو خياطة ثوب أو ترتيب المنزل .

*****

التعليم والمعلمون : (2)

المعلمون أصناف، منهم الجيد والمتوسط والفاشل، ومنهم صاحب الشخصية القوية المهيمنة، الذي يخطط أهدافًا عالية لتلاميذه، ويحفزهم لتحقيقها، بواسطة قوة شخصيته، فلا يدع لهم مجالاً لإهمال واجباتهم، ومنهم من يملك مخزونًا لا ينضب من الحماس. تجري عدوى حماسه الفعال فيمن حوله كالقوة المغناطيسية، فتخلق الرغبة في التعلم. نجاح هذين الصنفين يكاد يكون مضمونًا في أية مهنة يتعاطونها وهما لا يستفيدان كثيرًا من التدريب على التعليم ونظرياته.

غير أن الأغلبية الساحقة من جنود التعليم لا ينتمون لأي من الصنفين بل هم معلمون (ومعلمات) يهتمون براحة التلميذ، ويسهرون على تقدمه، ويعاملونه كشخص كامل الحقوق، لا كمخلوق ضعيف مجبول على الشيطنة وسوء التصرف.

وأغلب التلاميذ يدركون بدورهم مدى اهتمام وعطف هذا الصنف من المعلمين الذين يقفون بجانبهم ويعملون لصالحهم ويساعد تفاني هذا الصنف من المعلمين ، يساعدهم على ما قد ينقصهم من الخبرة المهنية في فن التعليم والتربية تمامًا كما تساعد جاذبية وهيمنة الصنف الأول وحماس الصنف الثاني من المعلمين على النجاح في مهمتهم.

وهذا التصنيف وإن كان واقعيًا فإنه لا يعني عدم وجود معلمين يكونون خليطًا من الأصناف الثلاثة، وآخرين لا يملكون شيئًا من تلك الصفات.

ومن الواضح أن التعليم في جيلنا وفي المستقبل القريب سيظل على يد بني الإنسان لا بواسطة الآلات. إذًا لابد من بذل مجهودات لترقية هذا الإنسان الذي يربي آباء الغد. ولا ينبغي أن يكون طموحنا متزايدًا بحيث نسعى لتحويل المعلم الضعيف أو الوسط إلى معلم عبقري ملهم بواسطة مناهج التدريب، ولا حتى ما يبذله هو من مجهودات بغية التحسن والتقدم.

ويشير بعض الباحثين إلى أن هناك حوالي عشرة بالمائة من المعلمين المتفوقين ومثل ذلك العدد من الفاشلين ، والبقية يؤدون مهمتهم بدرجات مختلفة من الكفاءة المهنية والحماس. وهم يتفانون حينًا ويقلقون طورًا ، ويجيدون مرة ويخطئون أخرى. ومن الأهمية بمكان أن يظل المعلم مُنْفَتِحًا، تواقًا، راغبًا في تطبيق المبادئ التربوية السليمة، ومطاوعًا لمسايرة ما يجد من نظريات معقولة في هذا المجال. ومن الإرشادات المناسبة في هذا الصدد ما يلي:

- من المفيد جدًا أن ينتبه المعلم لما يقوله التلاميذ في الصف وأن يحسن استغلاله. فمهما كان سؤال التلميذ سخيفًا أو غير منسجم مع موضوع الدرس، على المعلم أن يفسره بطريقة تجعل للجواب مساهمة في التعلم. فإذا لم يستطع الجواب عليه حالاً فليفكر في طريقة تجعله وتلاميذه يحصلون على الجواب الصحيح ويأتون به

في الفرصة المناسبة. وبهذا يتعلم التلاميذ أن كل شخص ، بما في ذلك المعلم، يلجأ أحيانًا للبحث في المراجع لنيل المزيد من المعرفة.

وعندما يعود المعلم للسؤال ينبغي أن يذكر أن الفضل يرجع «لفلان» الذي أثار السؤال. والغاية من ذلك أن يدرك التلاميذ أنهم يلعبون دورًا في عمليات التعلم، وأن عليهم أن يشاركوا بنصيبهم، وأن لديهم أراء وأفكارًا لها أهميتها، بل وإنهم يتمتعون بنوع من المراقبة على عمليات التعلم. ومعنى ذلك أنه بوسعهم أن يشاركوا في توجيه هذه العمليات نحو ما يهمهم، لأن التربية والتعليم يعيران اهتمامًا لفضولهم وتساؤلاتهم.

هذا فيما يتعلق بأسئلة التلاميذ. وهم أحيانًا يدلون ببعض الملاحظات والمعلومات الجزئية. من واجب المعلم أن يعير ذلك ما يستحق من الاهتمام وأن يضيف ما تمليه المناسبة من شرح أو تعليق، وأن يشجع بقية التلاميذ على الإدلاء بما يعرفون حول الموضوع.

- على المعلم أن يقوي شعور التلميذ بقيمته وبشخصيته، وألا يذكر أو يعمل ما يشعره بالغباوة. لا شك أن التلاميذ يرتكبون غلطات ، لكن على المعلم أن يؤكد لهم بأن كل إنسان، بما في ذلك المعلم والمدير والآباء والأمهات، يرتكب غلطات. وإذا كانت غلطات البالغين أقل فذلك لأنهم تعلموا كيف يتجنبون أنواعًا من الغلطات لكي لا يعانوا من عواقبها الوخيمة. ومن الناحية الإيجابية يبحث المعلم والمعلمة عن أي معرفة أو مهارة أو خصلة تستحق الإطراء في كل من تلاميذه ويجعله يعتز بها ويبارك له ذلك .

- يقودنا الكلام إلى أهمية بناء ثقة التلميذ بنفسه، وخاصة فيما يتعلق بقدرته على التعلم. يستحيل على التلميذ أن يتعلم أي شيء إذا حطمت ثقته في قدرته على التعلم وذلك يعتبر خيانة عظمى للمهنة أن يقوم المعلم بما يهدم ثقة التلميذ بنفسه أو يشعره بأنه بليد لا يصلح لشيء . من الأهمية أن يمدح المعلم كل تقدم وأن يفعل ذلك بصورة خاصة مع من كان بطيىء التعلم، ملاحظًا بل وموضحًا أن بعض الناس يجدون صعوبة في تعلم أشياء معينة بينما يجد آخرون صعوبة في تعلم أشياء أخرى، وأنه لا حرج على اختلاف المؤهلات والاستعدادات لدى الناس، وأن السبيل الوحيد للتغلب على الصعوبات هو بذل مجهودات أكبر.

- يظهر بعض المعلمين بمظهر الشخص المتفوق أخلاقيًا وعلميًا ولا يكون هذا الموقف محمود العواقب دائمًا. قد يوجد تلميذ أو أكثر في الصف يكونون أذكى من المعلم فيكتشفون ذلك التظاهر والتصنع، وسرعان ما يفشون خبره للبقية. فإذا حدث ذلك نقصت ثقتهم وإيمانهم به ويضعف تأثيره التعليمي عليهم. وحتى إذا لم يكتشف شيئًا من هذا «التظاهر التفوقي » فإن تعالي المعلم يهدد قدرة تلاميذه على التعلم لأن موقفه يتطلب منهم أن يكونوا على حذر باستمرار، وأن يبذلوا طاقة كبيرة للمحافظة على شخصيتهم. ومعنى هذا أنهم لا يركزون انتباههم على ما ينبغي تعلمه.

بل أدهى من ذلك يسبب موقف التسامي لدى المعلم نوعًا من العداء عند التلاميذ الذين يصبحون مهتمين بالجانب السلبي في المعلم، ويفتشون عن أخطائه مما يخلق صراعًا بين الطرفين.

- يجدر بالمعلم أن يوسع مجال المصالح المشتركة بينه وبين تلاميذه، ولا يمكن تجنب تعارض المصالح كليًا، فالأطفال يحبون الحرية، والمدرسة تحدد حريتهم بما تتطلبه من حضور يومي، ويقوم المعلم بدور الحارس والأطفال يحبون اللعب، بينما يطلب منهم المعلم أن يجتهدوا؛ ويحبون أن يتحركوا ويتكلموا والمعلم يطلب منهم الهدوء، وبما أن التعلم يستدعي تعاون التلاميذ، وبما أن هؤلاء لا يتعاونون راغبين مع من يناصبهم العداء فلا بد من إقناعهم بعطف المعلم وتفهمه لمصالحهم وحرصه على راحتهم، ومعنى هذا أنه لابد للمعلم أن يظهر وده للتلاميذ وأن يسمح لهم بمقدار كبير من الحركة والنشاط داخل الصف كوسيلة للقضاء على الصراع وتنافر المصالح، وحتى لا يشعر الطفل وهو يدخل الصف بأنه داخل إلى سجنه.

وليس معنى هذا أن يسمح للحركة والضجيج أن تفسد جو التعلم. غير أنه من المؤكد أن الهدوء الكامل لدى الأطفال لا يعني دائمًا أن الأمور على ما يرام، ويمكننا هنا أن نطرح السؤال التالي:

كيف يدعي المعلم بأنه يجد لذة كبيرة في عمله ونحن نعرف أن مشاكل التعليم كثيرة وأنه من العسير تطبيق مثل هذه الإرشادات التربوية على بعض التلاميذ المشاكسين، الجواب طويل ومتنوع غير أننا لا يجوز أن ننسى أن الهدف الأساسي للتعليم هو تعلم التلاميذ، وأن عددًا كبيرًا من المشاكل المتعلقة بكيفية قيام المعلم بمهنته يمكن حلها بتطبيق هذا المبدأ الجوهري: هدف التعليم هو التعلم، وبالبحث عن النتائج لدى التلاميذ.

- الإقلال من المحاضرات وإلقاء المعلومات من مكان شامخ. إنّ التعليم يستلزم مجهودات من طرف المتعلم فإذا أردنا من التلاميذ أن يتعلموا شيئًا ينبغي أن نقودهم للتفكير فيه وللمشاركة في خلقه وتكوينه ليست مهمة المعلم مجرد نشر الأخبار، بل أيضًا توجيه الأسئلة، وأن يقود التلاميذ بصبر وتأن إلى مستوى معين ثم يدعهم يتصارعون مع الأجوبة من منبع تجربتهم.

كثير ما يتسرع المعلم عندما يرى تلاميذه تائهين في «خربطة» فيلجأ لتصفية الجو وإلقاء الأجوبة الصحيحة ثم الانتقال حالاً إلى معلومات أخرى يشملها البرنامج، ولكن ماذا يعني عندما نقول: «أنهى المعلم الدرس؟» هل يعني أنهى إلقاءه؟ أو أن التلاميذ تعلموا الدرس؟

- أن يكون جو الصف منفتحًا «مستريحًا» أعني غير متوتر، فالهدف هو مشاركة التلاميذ، وفي كل صف يوجد عدد من التلاميذ الحساسين ممن يخشون الارتباك عند فتح أفواههم لذلك وجب حماية من ينطق بالخطأ حتى لا يجرح شعوره وتمس عواطفه، وإن أنسى لا أنسى، رغم مضي سبعة وعشرين سنة على الحادث، جواب معلم عندما سألته: من ألف القرآن؟ وكان ذلك في وسط جمع من الناس يعز على تقديرهم لي. قهقه المعلم قائلاً: القرآن ألفه ربي، واستمر مقهقهًا...(*).

- إن أفضل طريقة لتصحيح الفكرة الخاطئة أو غلطة الطفل هي التركيز على واقعية الأمور ومنطق الحوادث لا على تفكير صاحب

(*) وسبّب لي ضحك المعلم بعض الارتباك رغم أنني كنت أعني: "من جمع القرآن".

الغلطة ولا على منطقه وشخصه. ولا بد من استعمال اللطف مع المخطئ وشكره على المشاركة التي لا تخلو من نفع وفائدة، إذا أراد المعلم أن يكتشف ذلك ، فإذا كانت المشاركة مفتاح التعلم فإن الجو الاسترخائي ضروري للمشاركة، ولا مناص لخلق هذا الجو من وجود تشجيع المعلم وتحبيذه لمشاركة تلاميذه.

- جلوس الأطفال بهدوء لمدة طويلة يخلق ضغطًا وقلقًا في نفوسهم، ومعلوم أن التوتر والقلق يعيقان التعلم في مثل هذه الحالة، لذلك يفضل أن يشتمل اليوم الدراسي على أشياء كثيرة تسمح بالحركة وتستدعي النشاط. يمكن للتلاميذ القيام بتجارب متنوعة مثل التمثيل والبناء والرسم والمهارات والصناعات اليدوية والألعاب الثقافية المتعددة. يمكن تقسيم الصف إلى مجموعات تقوم كل واحدة بمشروع خاص، ويكون منهم لجنة إشراف. كما يمكن تحويل النشاط الثقافي إلى منافسة بين التلاميذ بتقسيم الصف إلى مجموعتين وتعيين جماعة تلعب دور الحكم .

- ومن الضروري أن يستعمل المعلم جميع الوسائل لمحاربة الملل حتى لا تتكون نظرة سلبية لدى الطفل تجاه التعلم. ويبدي المعلم الناجح اهتمامًا خاصًا بكل تلميذ لا في مجال التعلم فحسب، بل يهتم بشخصه وبحياته. كما يبذل مجهودات إضافية لمساعدة المتخلفين في صفه. ومشكلة التخلف في التعلم مهمة جدًا، لابد من تعبئة مجهودات الطلاب المتقدمين أو مجهودات الصف بأجمعه لمساعدة المتخلف ولو أدى ذلك إلى إبطاء تقدم الصف لمدة معينة. والغاية من

ذلك إقناع جميع التلاميذ بأن التعلم مهم جدًا وأن كل واحد منهم يجب أن يتعلم ولا يجوز لأحدهم أن يتخلف عن الركب .

- التنويع في وسائل التعليم فعال، فإذا توفرت الوسائل المفيدة مثل الأفلام والصور والأشرطة واللعب والأسطوانات...إلخ، فاستغل وجودها. تشاور مع تلاميذك حول قضايا التعليم. اذكر لهم المشاكل وتحدث معهم عن قضية جعل التعلم جذابًا ودعهم يشاركونك في البحث عن الحلول.

- لقد وجد الباحثون أن المعلمين يعرفون حول التعليم مقدارًا أكبر مما يستعملون في تطبيقهم. فما على المعلم إذًا إلا أن يعلم بقدر ما يعرف.

- حاول أن تكون مثالاً يحتذى، بل إنك ستحتذى كيفما كنت ، فأنت شخص مهم في حياة أطفالك وطلابك، وغالبًا ما تكون أهم شخص بعد الأبوين، بل أحيانًا أهم من الأبوين. الجأ للتسامح والعطف في الظروف العسيرة التي يخيب فيها أمل التلميذ. مثل النزاهة العلمية، واستمع للطرفين بعناية قبل أن تصدر حكمك. إن تلاميذك متأثرون لا محالة بمعرفتك ومهاراتك وخصالك ومواقفك وكيفية تقييمك للأمور، وحكمك عليها وبفلسفتك في الحياة. فكن خير مثال، في تفهم المشاكل الإنسانية.

*****

الطفل والمحيط العائلي

1 - اختيار الشريك

إن الحرص على اختيار شريك حياتك هو أول خطوة نحو تربية أولادك. لا أحد يجهل تأثير العلاقات بين الأبوين والحياة المنزلية على صحة الطفل وتفكيره وجميع نشاطاته. وربما تكون قد نسيت حوادث كثيرة من عهد طفولتك، اختفت في اللاشعور، ولكنها ظلت تقيد ردود أفعالك وتحدد مواقفك تجاه الحياة .

فكر ما استطعت - والكلام موجه للنساء والرجال - في الحصول على شريك يساعدك قبل كل شيء، على تحقيق الانسجام وتوفير حياة يسودها الهدوء والتفاهم. فكر جيدًا في ذلك إذا كنت تحب أن يكون لك أطفال، وكنت ترغب في أن تجنبهم كثيرًا من المتاعب العاطفية والمشاكل النفسية .

ابدأ بتحليل نفسك والتعرف على طباعك وميولك بكل موضوعية. قدر ظروفك ورغباتك وإمكانياتك وأهدافك. لا تفكري في مركز الشريك أو قامته أو ثروته أو عائلته فحسب. بل السؤال الأساسي هو: هل يتمتع بالنضج الفكري والهدوء النفسي والشعور بالمسؤولية الكافية لبناء عائلة والتمسك بها في أيام عسره ويسره؟

لا يجوز أن تكون عملية إنشاء عائلة وتربية أولاد مغامرة يقوم بها الإنسان بدافع الرغبة في الاكتشاف والتجربة. ولا ينبغي أن يتجاهل المواطن عواقب «صنع» أولاد إذا كانت ظروفه لا تسمح له بذلك.

كما لا يخفى ما في تكوين عائلة من المتعة وتحقيق الذات عندما تتوفر الضرورات المادية وقدر كافٍ من المحبة والانسجام والتعاطف والاستقرار.

فإذا وفقت في اختيار الشريك المناسب فقد وفقت في تقديم خدمة عظيمة لا لنفسك فحسب، بل ولأطفالك أيضًا.

المنزل قلعة، يلجأ إليها الإنسان ليجد الراحة من متاعب النهار، وليستعيد نشاطه النفسي والبدني قبل الشروع في يوم آخر من العمل. وفي المنزل يجد المرء من يواسيه ويشجعه ويشاركه في همومه ومسراته ويعيد إليه ثقته بنفسه... كل ذلك إذا كانت العلاقات ودية يسودها التفاني والاطمئنان.

وإذا كان المنزل والجو العائلي بهذه الأهمية بالنسبة للبالغ، فما هي أهميته بالنسبة للطفل، ذلك المخلوق الضعيف؟ ضمن العائلة، ومن الأم، يتلقى الرضيع أول انطباعاته عن عالمه الجديد. وفي الوسط العائلي توضع الأسس التي توجه الطفل: عواطفه وتصرفاته وتفكيره وشخصيته.

إذا بدأت صباحك بنزاع مع زوجتك قد يفسد ذلك يومك كله. وإذا واجهتك الصعوبات قبل الزواج فإنك تتأنى. ولكن ماذا يفعل الطفل، إذا فتح عينيه ووجد نفسه يعاني من جهل الأبوين ويعيش في جوٍّ من التوتر والنزاع؟

إنما يكون الطفل سعيدًا عندما يشعر بالأمن، ويقرأ الأطمئنان والمحبة على وجوه من يقومون بشؤونه، وهو لا يشعر بالأمن إلا إذا شعر بأنه محبوب مرغوب فيه، وأن القائمين بأمره يحترمون مطالبه وشخصيته.

فالمعاملة الحسنة والحنان يجعلانه يحس بالدفء والحب. والمعاملة الخشنة تزيده قلقًا لأنه يشعر بأن وجوده مهدد.

إن التركيز على خلق جو عائلي يسوده التفاهم والاحترام والبهجة والرضى أولى من الاهتمام بالوفر المادي واقتناء الآلات الحديثة... إذا كان لابد من الاختيار. فقد ينشأ الخلاف والتوتر عندما تضطر الأم للعمل خارج المنزل، وكذلك عندما يندمج الأب في أشغاله، ولا يصرف بعض وقته مع عائلته.

إن نوع العلاقات العاطفية ضمن العائلة، ومدى استمرارها واستقرارها يحدد درجة صحة البناء العائلي.

وانطلاقًا من نوع العلاقات والمعاملات التي يحظى بها الطفل ضمن العائلة تتحدد أحكامه وتصرفاته تجاه نفسه والعالم الخارجي: عمله ، أصدقاؤه وكل من يتعامل معهم.

فكر أيها الأب وأيتها الأم: هل في إمكانكما أن توفرا لأطفالكما قدرًا كافيًا من العطف والرضى والأمن والمحبة لتكون عقولهم سليمة وحياتهم غنية، وليقوموا بقسطهم من الواجبات الاجتماعية؟

هل «تنتجان» أطفالاً مرغوبًا فيهم؟ أم هي خبطة عشواء والباقي على الله؟ هل أنت مستعد لقضاء جزء كبير من وقتك مع أطفالك؟ أم تفضل الشارع والمقهى؟

أهمّ عملية في تربيتك لأطفالك هي تقديرك للمسؤولية واستعدادك لتحملها. وسواء كان دورك كأب أو كأم مُرْضِيًا أو متعبًا، فعليك أن تستعد لعملية طويلة. وليس هناك ما يضمن بأن ثمرة مجهوداتك ستكون كما تتوقع.

ولا يشك أحد في استعداد كل أب وأم للتضحية في سبيل مصلحة ومستقبل أطفالهم. غير أن هذا الاستعداد وحده لا يكفي. لا بد من معرفة بعض القواعد النفسية والتربوية لفهم طفلك ومساعدته على تحقيق ذاته.

يولد الطفل بفطرته ميالاً للحرية ، يقبل على ما يجلب له اللذة، ويهرب مما يسبب له الألم. ولكن سرعان ما يكتشف بأن المجموعة التي ينتمي إليها لا تجيب جميع رغباته ولا تسمح له بالحرية المطلقة. فهناك أنظمة وعادات وقواعد سلوكية وقيم... ومن هنا، انطلاقًا من علاقات الطفل الإنسانية مع القائمين بشؤونه، يكون لنفسه صورة (لطيفة أو بشعة) عن العالم الذي يعيش فيه.

ومهمة الأبوين الأساسية هي مساعدة أطفالهما على تقبل ما لابد منه من هذه القواعد السلوكية. ويكمن نجاح الأبوين أو فشلهما في مدى انسجام الطفل مع عالمه الجديد دون الشعور بالتوتر والتناقض والقلق.

*****

2 - السنوات الأولى

تترك خبرات الطفل خلال السنوات (الثلاث) الأولى أثرًا عميقًا في حياته، إذ يتم خلال هذه الفترة تكوين شخصية الفرد ووضع القواعد الأساسية التي تحدد معالم هذه الشخصية.

يتم تكوين جسم الإنسان خلال السنوات الأولى بالغذاء والنظافة والعناية تحت إشراف البالغين كما يكتسب الطفل معلومات واسعة عن العالم المحيط به، يتعلم كثيرًا من التعابير اللغوية وعددًا من المهارات، ويأخذ بعدد من الأنظمة والعادات. يفعل ذلك شاعرًا بضعفه، معتمدًا على الأم أو من يقوم مقامها أولاً، وعلى كل من يقدم مساعدة بعد ذلك.

قليل من البالغين يتذكر تجارب وإحساسات هذه الفترة العصيبة، ولكن ما نلقاه عندئذ يطبع حياتنا العاطفية ويوجه نشاطاتنا المستقبلية.

إن العلاقات الإنسانية العائلية تلعب دورًا أساسيًا في حياة الطفل. فخلال فترة الطفولة الأولى يكون النظام البدني غير متطور، والقدرة العصبية والإدراكية غير متكاملة، وخبرات الطفل محدودة، فلا يقدر على تفسير وإدراك ما يتعرض له من سوء معاملة. وهو لذلك يعتبر كل مصدر للألم (كتأجيل غذائه مثلاً) تهديدًا لحياته.

ولابد من الملاحظة، عند الحديث عن العلاقات الإنسانية، أن من الساهرين على تربية الأطفال ذوي الطبع الحاد، ومنهم من يتصف

باللطف والإشفاق، منهم القلق المتهاون، ومن هو سريع الغضب ومن هو صبور ومن هو قليل الأناة. منهم من يبالغ في تدليل الوليد ومن يبالغ في القساوة.

وسرعان ما تظهر آثار علاقات الطفل مع الأشخاص المهمين في حياته ، تظهر في تصرفاته ونشاطاته وميوله وأحكامه ومواقفه تجاه نفسه وتجاه الناس، والحوادث والمحيط.

ماذا تقول إذا واجهت شخصًا يعاني مشاكل في علاقاته مع عائلته أو في المدرسة أو مع السلطات أو في العمل..؟ هل تحكم عليه بأنه شخص خلق ليشقى؟ أم ترجع قليلاً إلى الوراء لتشاهد ذلك الرضيع والطفل البريء وتتساءل لماذا أصبح هكذا؟ لماذا أصبح عبوسًا حاقدًا؟ وأين هذا من تلك الطفولة الأولى؟ ولو كان لك «منظار سحري» لأمكنك مشاهدة ذلك الطفل وهو يعاني من التوجيهات الخاطئة ومن المشاكل والتوترات العائلية وسوء المعاملة ما وصل به إلى سخطه وتسرفه الحالي .

يولد الإنسان وفي نفسه قوة تدفعه نحو تحقيق ذاته. وهو في سيره نحو هذا الهدف مصحوب بتجارب مشجعة وأخرى مخيبة. فغريزة التطور القوية تدفع المولود، رغم الصعوبات لأن يحاول. فهو يتحرك ويجلس ويحبو ويقف ويجذب ويدفع ويكسر ويصرخ. وهو في نزعته نحو النمو والرقي يحاول أن يفعل ما يجلب له الابتسامة والرضى وما يجعله شخصًا مقبولاً ومحترمًا من المجموعة التي يعيش فيها.

ولكن ماذا يحدث عندما تكثر عليه الأوامر والنواهي، وتتعدَّدُ في طريقه العراقيل ويشتد من حواليه التوتر؟ في كل مرة يتعرض الطفل للإهمال أو الازدراء أو يواجه مشاكل لا قدرة له على فهمها ولا التغلب عليها، يفسر ذلك بأنه تهديد لشخصه، يصبح قلقًا، يشعر بالخيبة والفشل وقد يؤدي ذلك إلى الانطواء والانكماش والتشاؤم والنشاطات العدائية.

نلاحظ أن بعض الأطفال يقومون، خلال السنوات الأولى، بنشاطات ظاهرها أنانية وشر ووحشية، كأن يأخذ لعبة رفيقه أو يعضه، ينتف شعره، يكسر شيئًا ثمينًا، يقتل حشرات، يعذب حيوانات إلى غير ذلك. والواقع أنه يفعل ذلك بدافع الاستطلاع والتسلية تارة، ولإظهار قدرته على إنجاز الأشياء والتمتع بحركات وأصوات وأشكال جديدة.

ويفضل بعض علماء النفس تفسير مثل هذه التصرفات بأنها «عدوانية» وأنها تظهر بصفة طبيعية وهي تعرب عن ميول بدائية متأصلة في الإنسان، ترجع لعهد لم تكن فيه تصرفاته ولا حياته تختلف عن الحيوانات.

والواقع أن الإنسان يولد وليس لديه ميل للشر ولا للخير. بل يولد مصحوبًا بقوة غريزية تحرص على الحياة وتكافح من أجل البقاء. وحتى لو ذهبنا مع القائلين بعامل الوراثة في ميدان الأخلاق، أي بوجود الميل نحو الخير والشر لدى المولود، فإن للعلاقات الاجتماعية والمحيطية دورًا حاسمًا في توجيه تصرفات الطفل وتحديد معالم

شخصيته. والمؤثرات التي يتعرض لها المرء في العائلة والمدرسة.. تعمل على إضعاف أو تقوية نوازع الخير والشر.

يتعلم الطفل تدريجيًا، بالتجربة والتقليد والممارسة، وتحت رعاية ذوي أمره، يتعلم كيف يفرق بين ما هو مقبول وخير وما يجب تجنبه. ويتعلم كيف يميز بين ما يزعج وما يجلب الراحة والمتعة والأمن. وما لم يعرقل نموه حادث أو تصيبه صدمة فإنه يصبح كغيره من أفراد المجموعة التي ينتمي إليها يحبذ ما يحبذون ويتجنب ما يكرهون.

وهكذا تكون التربية قد أيقظت القوى الكامنة لدى الطفل ووجهت طاقاته بعيدًا عن النشاطات المنبوذة، ونحو صالح المجموعة. بذلك يصبح الفرد مواطنًا صالحًا مقبولاً لدى عائلته وأصدقائه.

وكما يعرف كل أب ومعلم فإن الطفل، تحت ضغط القواعد السلوكية والتوجيهات ورغبة في المحافظة على محبة القائمين بشؤونه ونيل تقديرهم يستفيد من تجاربه لتصحيح أحكامه الخاطئة، فيتعلم أن أخذ لعبة ابن الجار غير مسموح به وأن رمي حجارة على النافذة غير مقبول ويكف عن ذلك إذا أرشد بحكمة.

إن الآباء والمعلمين والأقارب والجيران وغيرهم هم وكلاء المجتمع على الأطفال. كل حسب درجته وأهميته يلعب دورًا في حياة الطفل. وهذا المخلوق البريء الذي لا قدرة له على اختيار من يتولى أمره، قد يرمي به سوء حظه في حضن من لا يحسن معاملته .

*****

3 - الجو العائلي

من جملة الأشياء التي تؤثر على نمو طفلك:

- عوامل بيولوجية موروثة.

- عوامل أو ميول سلوكية موروثة.

- المؤثرات والعوامل المحيطية.

ولا شك أن هذه العوامل متشابكة. فالموروثات تملي إلى حد ما المواهب الذاتية، والبيئة تقرر كيفية ودرجة تنميتها. إن الوليد حزمة من الغرائز ووحدة ديناميكية ومركب من الحاجات والمطالب الجسمية والنفسية. ويتوقف نمو العقل والبدن السليمين ونشوء الثقة بالنفس وبالمحيط على مدى حصول الطفل على الحاجات الأساسية وعلى الكيفية التي يحصل بها على هذه الضروريات.

تمثل طفولة الإنسان - إذا قورنت بالحيوان - سنوات طويلة يظل خلالها كائنًا ضعيفًا يشعر بحاجته لمساعدة البالغين، وهو خلال هذه الفترة يحتار ويضطرب ويخاف لأقل معاملة عدائية. لقد زرت ذات يوم صديقًا قدم لي مجموعة من صوره، فجلب انتباهي عدد منها عندما كان لا يتجاوز الثالثة من عمره. يبدو صديقي في هذه الصور مرحًا بشوشًا راضيًا مرتخيًا. وفكرت في حاله اليوم وهو مهموم قلق متشائم حاقد على الدنيا. وسألته أين ولماذا اختفى ذلك الطفل السعيد ليحل محله هذا الرجل الشقي ؟ وكان الجواب معروفًا: العائلة، المشاكل..

فماذا يفعل الطفل عندما يجد نفسه وسط قوى معادية ومحيط عدواني؟ تختلف ردود الفعل وتختلف نتائجها.

- قد يثور الطفل ويتمرد على الأوضاع.
- يتجاهل العالم وينعزل منطويًا على نفسه.
- يبالغ في ملاطفة الناس ويحرص على نيل رضاهم .
- يتعلق بشخص قوي تعلقًا غير عادي .

وسواء سلك طريق الاعتداء أو الكذب والمخادعة أو تظاهر بالمرض أو أطاع والديه طاعة عمياء أو تجنب الناس والتزم الكبْت أو تمرد.. فهو إنما يحاول من وراء ذلك كله أن يجنب نفسه الضرر ويخفف عنها الألم والقلق الناتج عن المعاملة السيئة.

وتصبح هذه النشاطات وسيلته للدفاع. وكل محاولة لإزالتها تعرضه لقلق متزايد. وكلما تقدم الإنسان في العمر ازداد هذا الغطاء الواقي إحاطة بنشاطاته البديهية وخنقا لتصرفاته العفوية. ومع مرور السنين ينسى الشخص بأن هذه العادات السلوكية إنما جيء بها في سن مبكرة للتعويض عن الضعف، ولمواجهة عدوانية المحيط، وللحصول على حاجات ورغبات ضرورية. وتصبح جزءًا من مكونات أخلاق المرء وشخصيته، جزءًا سلبيًا يعكس الصعوبات والصدمات الأولى.

فإذا نزلت للشارع وتحدثت إلى عدد من الشباب الشواذ أو المنحرفين الذين لم تساعدهم الظروف على الحصول على عناية

وتربية كافية تجدهم يعتقدون بأن الأعتداء هو نوع من البطولة والزعامة. ومنهم من يجهد نفسه لإقناعك بأن لا خير في مخالطة الناس، وأن العزلة تعبر عن الاستقلال والاكتفاء الذاتي. وإذا انتقدت أحدهم لطاعته العمياء وتنفيذه جميع ما يطلب منه أجابك بأنه يفعل ذلك لطيبة قلبه وحرصه على الإحسان والامتثال.

وهكذا يتبنى كل شخص، تبعًا لاستراتيجيته التي يختارها لمواجهة العالم، يتبنى سلسلة من الحساسيات والضروريات السلوكية. فالطفل الذي يكون سلوكه عدوانيًا ينمي في نفسه القدرة على التحمل والإعجاب بالقوة والبأس.

وبما أنني استعملت كلمة «شواذ» فإنه لا بد من الملاحظة هنا بأننا كثيرًا ما نتحدث عن الإنسان «الشاذ» والشخص «المثالي» والفرد «الطبيعي»، غير أنه من الصعب تحديد هذه الصفات. فمدلولاتها نسبية تختلف حسب الأشخاص والزمان والوسط.

وطالما نحن بصدد الحديث عن تأثير المحيط فإنه لا بد من التأكيد بأن المسؤول عن هذا «الشذوذ» أو الخروج عن المصلحة العامة هو العائلة والمدرسة والمجتمع بصفة عامة. فالمسؤولية عامة. جيل البالغين يهيئ الجيل الذي يخلفه. فإذا لم تخلق العائلة للطفل ظروف حياة ملائمة، تجعله ينعم بالأمن ويثق بالعالم المحيط به، فإنه يفقد مرونته وصفاءه وصراحته ويلجأ للكذب والتحدي والشذوذ.

وهكذا يضر الجو العدائي بالطفل ويحرمه من التطور الطبيعي،

فيصبح غريبًا عن نفسه، وتدفعه المعاملة السيئة إلى إتباع سلوك يخفف عليه الألم فيحاول أحيانًا، أن يعيش في عالم مثالي باحثًا عن معنى لحياته. ويلجأ تارة إلى القوة ليحقق رغباته، فيتسبب في مشاكل للعائلة وللمجتمع.

يشعر الطفل في سن مبكرة بالعراقيل التي تعترض تحقيق رغباته. فالقائمون بشؤونه يفرضون عليه أنظمة ويقننون نشاطاته حتى الضروري منها مثل الأكل والنوم واللعب، وينشأ صراع في نفس الطفل عندما يقف أمام هذه الهوة التي تفصله عن تحقيق رغباته. كما أن الأبوين قد يدفعانه لتحقيق أشياء يعجز عنها (كأن يطلب منه أن يكون الأول في صفه). فإذا وضع الطفل نفسه في الميزان على ضوء فشله في تحقيق رغباته وفشله في تحقيق ما ينتظر منه، وقارن خيبته بنجاح أترابه بدأ يسخط على نفسه ويحقد على بيئته.

وليس من الضروري أن يبلغ جميع الأطفال الذين تعترضهم العراقيل هذه الدرجة. فمنهم المحظوظون الذين يساعدهم تكوينهم على تقبل الحدود المفروضة عليهم من طرف المجتمع. ومنهم من يولد ولديه طاقة أكبر ومرونة كافية للتلاؤم مع المحيط وتحمل الشدائد فيسعون ويوفقون لتحقيق الهدف وتحقيق الذات.

*****

4 - الظروف الملائمة

يأتي كل مولود إلى هذا العالم مزودًا بصفات وإمكانيات بدنية ونفسية. ويتوجه إلى تحقيق ذاته إذا توفرت له الظروف الملائمة. إنك إذا وفرت الماء والنور والغذاء والهواء للبذرة فإنها تنمو وتزدهر. وكذا المولود الجديد ينطلق لتحقيق تلك الإمكانيات الكامنة في ذاته ويسير في درب الحياة مدفوعًا بتلك الطاقة الحيوية إذا حظي بالعناية النفسية والمادية والفكرية. وهو في مسيرته، خلال طفولته الطويلة، عرضة لمختلف المؤثرات النافعة والضارة.

تكون الحياة مثمرة والشيخوخة جميلة إذا كانت الطفولة سعيدة، إذا عرف الطفل أنه مرغوب فيه. فإذا لقي الأمن والطمأنينة وجّه طاقاته النفسية والبدنية نحو نمو أمثل.

فكر فيما تقدم لأطفالك كل يوم، بالإضافة إلى الضروريات المادية. هل يتمتعون بجو من المرح والانسجام العائلي؟ هل علاقات البالغين من حولهم توحي لهم بأنهم يعيشون في عالم كله خوف وعنف ونزاع وحيرة؟ إذا كان الحال كذلك فكيف يمكن لأطفالك أن يشعروا بالأمن؟ لا يستطيع طفل أن يوظف ما لديه من رأس مال - طاقاته - في النمو والإنتاج المدرسي أو غيره، إذا كانت أعصابه متوترة ونفسه قلقة مضطربة بسبب المشاكل العائلية.

لا ينجح الطفل في التعبير عن نفسه ببساطة وقوة، ولا تزداد

ثقته بنفسه ولا تنمو مواهبه كاملة، إذا كانت علاقاته مع من يقومون بشؤونه سيئة توحى له بأنه مهدد. كل واحد منا يعرف مدى تأثير العلاقات الإنسانية - وخاصة الأشخاص المهمين بالنسبة لنا - على حياتنا وتصرفاتنا ونجاحنا. لا ضرورة للتأكيد إذا على مدى أهمية توفير الظروف الملائمة للطفل، غير أنه لابد من شرح هذه الظروف وكيفية توفيرها والنتائج المترتبة على ذلك.

وتتضمن هذه الظروف كل ما يجعله يشعر بالسكينة والحرية والرضى، وإيجاد الجو الذى يغذي خياله ومشاعره ويوفر له الاحتكاك المفيد مع البالغين والأطفال. فهذا الاحتكاك الإيجابي يشحذ إرادته ويوجه نشاطه ويوقظ مواهبه ويدفعه لاستغلال ما يملك (بعض ما يملك فقط لأنه لا يوجد إنسان استغل جميع طاقاته) من إمكانيات مخزونة.

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يفكر في المستقبل ويتوق للرقي ويأمل وينتظر ما يأتي به الغد ويتحسر على الماضي ويأتي سعيه للرقي وحكمه على الحياة ونظرته للمستقبل نتيجة لعلاقاته واحتكاكه مع المحيط. وتوفير الظروف الملائمة لنموه يعني التوجيهات الحكيمة والمعاملات العادلة والقدوة الحسنة، بالإضافة للضروريات المادية.

ونحن نعرف من حياتنا الواقعية أنه يوجد عدد كبير من الأطفال المحرومين الذين يعيشون في ظروف لا تساعد على النمو المتكامل السليم، فهذه عائلة تعاني من مشاكل مادية، وأخرى تعانى من إهمال الأب أو قسوته، وثالثة يسودها جهل الأم أو تمرد الأولاد البالغين. وفي

كل من هذه الحالات يجد الطفل نفسه مهملاً يجابه معركة البقاء. ذلك لأن عقله الصغير لا يعرف شيئًا عن وجود سلطات تحميه وتكفله إذا دعت الضرورة.

وسط هذا الجو غير المستقر يصرف الطفل طاقاته، لا لتحقيق ذاته بل لتأمين ضروريات الحياة من عطف الكبار وعنايتهم أولاً ولتحقيق قدر من الانسجام بين نفسه ومحيطه المضطرب كذلك. ولكن ذلك لا يزيل اضطرابه وحيرته لأنه يظل غير قادر على تعليل ما يحدث في محيطه.

إن حاجة الطفل للحب والمعاملة الحسنة، وخاصة من جانب الأم (أو من يقوم مقامها) شيء أساسي تمامًا مثل حاجته للأكل والحركة، فإذا وفرتما، أيها الأبوان، لأطفالكما قدرًا كافيًا من المحبة والاطمئنان النفسي تكونا قد ربحتما نصف المعركة.

زيادة في توضيح الأمور أقول بأن الطفل يسعى أولاً وقبل كل شيء للمحافظة على وجوده والاستراتيجية التي يتبعها لتحقيق ذلك الهدف تتوقف على ظروف حياته، فهو يجد نفسه أحيانًا مع أناس يتصفون بالسيطرة ويبالغون في الحماية فيجعلونه يعيش في جو من الخوف والإرهاب (نوع من الاستعمار)، وطفل آخر يجد نفسه وسط أناس ذوي طبيعة عصبية ونفوس قلقة متوترة يدفعونه دفعًا للقيام بأعمال لا يقدر عليها وتحقيق آمال عجزوا هم في الحصول عليها. ذلك رجل فشل في دراسته وهو لا يفتأ يذكر ابنه بمغبة ذلك وآثاره على سمعة العائلة، فهو يطلب منه أن يكون الأول بين أقرانه ويشترط

صحبته وتقديره لطفله بمدى نجاحه. ولا يخفى ما في ذلك من الخطر على صحة الطفل النفسية لأنه يصبح يحيا تحت ضغط مستمر لتحقيق رغبة والديه .

وأطفال آخرون يعيشون بين أحضان عائلة تبالغ في التساهل معهم وفي تدليلهم مما يعود الأطفال على الاتكال على غيرهم وينزع كل استعداد لمواجهة المسؤولية والشدائد.

وقد يجد الطفل نفسه يحيا مع أبوين يتصفان بالتحيز لأخيه أو أخته أو يتصف أحد الأبوين بشذوذ ما.

وفي كل من هذه الظروف العائلية يلقي الطفل نفسه مجبورًا على اتّباع استراتيجية ما، ولو كان في ذلك تضحية، لدفع الألم والخطر الذي «يهدد وجوده» ونيل رضى ومساعدة هؤلاء «العمالقة» من أفراد العائلة.

ماذا يفعل البالغ عندما يجد نفسه وسط جو عدائي وضغط يهدد راحته النفسية؟ لا شك أنه قادر على تبني حلول عديدة كأن يهرب أو يغضب أو يخادع أو يهدد بالانتقام أو يستنجد بسلطة ما إلى غير ذلك. ولا تتوفر جميع هذه الاختيارات للطفل، وهذا يتعلق بسنّه ودرجة التهديد لشخصيته.

فالجو العدائي يدفع الطفل لاتخاذ احتياطات دفاعية وتبدو عليه علامات الحذر والقلق. وينتج عن هذا الوضع إذا طال اضطراب نفسي وخوف وصراعات تهدر طاقات الطفل الخلاقة وتعصف بعفويته وحريته.

*****

القســـم الثالث

انطباعات حول المجتمع الأمريكي

لماذا نجح اليهود في أمريكا..؟

تفتخر الولايات المتحدة بأنها البوتقة التي تنصهر فيها الأجناس، غير أن اليهود الأمريكان يزدادون تمسكًا بوحدتهم وطريقة حياتهم على مر الأيام. وقد بدأ تمسك اليهود الأمريكان بشخصيتهم وحرصهم على تقاليدهم وازدياد نفوذهم وسيطرتهم على الحياة الأمريكية يخلق نوعًا من رد الفعل والاشمئزاز لدى بعض المجموعات الأخرى من الأمريكان مثل السكان الأفروأمريكان والطلاب ومجموعة المثقفين ورجال الأعمال التحرريين.

ويلاحظ كذلك أن تعصب اليهود الأمريكان تعصبًا أعمى لقضية مساعدة إسرائيل ومبالغتهم في الدفاع عن جميع مواقفها واهتمامهم بمصيرها كل ذلك أدى إلى إبرازهم ككتلة واحدة قوية ناشطة وإلى وجودهم دائمًا في مقدمة الحوادث وطليعة الأخبار .

ويختلف رد الفعل لدى الشعب الأمريكي بصفة عامة، تجاه نشاط ومواقف ودعاية اليهود الأمريكان. يختلف من الإعجاب والتحبيذ إلى عدم المبالاة أو الحيرة أو عدم الرضى.

وبالرغم من أن اليهود الأمريكان لا يرغبون في الاندماج كليًا في المجتمع الأمريكي، فإنهم يقيسون مدى نجاحهم بمدى تأثيرهم على الحياة الأمريكية وسياستها ومدى تكييف المجتمع لتقبل وجهة نظرهم واستعداده للترحيب بهم، أي باليهود، كمواطنين أمريكان مخلصين متفانين.

ويدعى اليهود أنهم يشعرون بالخطر قبل وقوعه، لذلك فقد بدأوا يقومون بدراسات وبحوث اجتماعية لتحليل النفسية الأمريكية والعثور على الأسباب التي بدأت تخلق بعض ردود الفعل المشار إليها وكيفية مواجهتها.

ويعتقد اليهود الأمريكان أن هذه الردود الفعلية والكلامية، التي يشعرون بها أو يلاقونها بشكل انتقاد أو دعوة لمقاطعة تجارتهم، هي ردود «سلبية» وخطيرة، ولذلك فإن الخطوة الأولى التي يتخذونها لمواجهة الموقف، وهي خطوة ارتجالية يقصدون بها إثارة العواطف، هى أن ينسبوا كل ما يواجهونه إلى التمييز ضد عنصرهم السامي : Anti-sémitisme وتساعد هذه الدعاية على جذب العطف على قضاياهم وتمكنهم من الظهور في مظهر البريء المضطهد.

وقد اشتهر اليهود الأمريكان، وما زالوا، بالدور الذي يلعبونه في مساعدة إسرائيل المادية والسياسية والدعائية والمعنوية. وقد يتساءل المرء على الأسباب التي جعلت تأثير نسبة ٣٪ (ثلاثة بالمائة) من سكان أمريكا بهذه الدرجة من الفعالية والأهمية. ويرجع ذلك إلى عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية واقتصادية لا يتسع المجال للخوض فيها.

أما نجاحهم الكبير في تعبئة الرأي العام الأمريكي لمساعدة إسرائيل، وبالخصوص نجاحهم في جَمّع الأموال فيعتمد على استعمال طرق فنية مدروسة، واللجوء إلى الدهاء والمغالطة وإثارة العواطف وتوحيد الصف والمثابرة، بالإضافة إلى أساليب التنافس والمناورات (manœuvres) الانتخابية في الحياة السياسية الأمريكية.

تصوروا مثلاً زعيمًا يهوديًا يحرض الحاضرين على البذل بسخاء لحياة إسرائيل وهو يقول: «ادفعوا ثمن خلاصكم من هتلر، ابذلوا لكي لا تعيشوا تحت النازية مرة أخرى.. نعم يجب أن تبذلوا لأنكم لا تعيشون فوق أرض إسرائيل جنبًا إلى جنب مع إخوانكم المجاهدين المهددين بالفناء» وأي صهيوني لا يبذل بعد أن ينتهي الخطيب!

ومن جملة الطرق التي تستعمل لجمع المال من اليهود الأمريكان، ومن المحبذين لقضيتهم، أن تستدعي مجموعات من الشخصيات وينظم عشاء على شرفهم. وقد اجتمع مؤخرًا حوالي أربعمائة من اليهود الأغنياء في أحد الفنادق بنيويورك وبلغ مجموع ما تبرعوا به واحدًا وعشرين مليونًا من الدولارات وكان من جملة ما قال الخطيب، ضيف الشرف، في هذا الاجتماع: «فليشتر كل واحد منا في هذا المساء حرية أخ له في الاتحاد السوفياتي»..

وقد حضر موشي ديان عددًا من الحفلات لجمع التبرعات عندما زار الولايات المتحدة مؤخرًا، وفي نفس الوقت كان الوزير الإسرائيلي يدحامر سابير يجوب الولايات المتحدة متصلاً بالشخصيات اليهودية الثرية طالبًا المساعدة لإسرائيل ويلاحظ أن جميع الشخصيات الإسرائيلية التي تزور أمريكا وبما في ذلك جولدا مائير يحضرون حفلات جمع التبرعات لمصلحة إسرائيل.

ومن جملة الأساليب المتعددة التي يتبعها اليهود الأمريكان لجمع المال:

- تكوين لجان في كل مدينة للبحث عن اليهود الأغنياء والاتصال بهم.

- الاتفاق مسبقًا على المبلغ الذي يقبل من اليهودي الثري.

- لا يرسل شخص واحد لجمع التبرع بل جماعة «لأن الجماعة تمثل الشعب ولا يمكن أن ترجع فارغة الأيدي».

- تنظيم حفلات وعشاءات بأسعار تتراوح من ٣٠ دولار إلى ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دولار، وذلك تبعًا لسمعة (الشخص المدعو) ضيف الشرف، وتستدعى طبقة من الناس بإمكانهم دفع المبلغ المطلوب.

- تنظيم زيارات لإسرائيل تضم أولئك الذين يتوقع منهم التبرع، سواء كانوا يهودًا أم لا . وفي إسرائيل يستقبلون بحفاوة بالغة وتنظم لهم مواعد لمقابلة بعض الوزراء ويرافقون في جولات لزيارة المناطق المحتلة.

- استغلال قضية الإعفاء من الضرائب عند التبرع للمشاريع الخيرية، وقد قامت «منظمة المناشدة اليهودية بطبع دليل يشرح فوائد التبرع مع الإعفاء مبينة أهمية ما ينتجه هذا التبرع في إسرائيل. وعلى الرغم من مزاعم هذه المنظمة فقد تبين لكثير من الزعماء الأمريكان أنه ليس كل ما يجمع تحت شعار (المشاريع الخيرية في إسرائيل) يصرف في نفس المجال.

وتعتبر سوق السندات في أمريكا من أهم مصادر تمويل إسرائيل بفوائد صغيرة إذا قورنت بفوائد قروض البنوك. ويقول أحد المسؤولين من منظمة السندات: «إنه ينظر إلى المنظمة بأنها جسر بين حاجيات إسرائيل والإمكانيات المالية لليهود الأمريكان».

وقد حدد هدف المنظمة لعام 1972 بـ 450 مليون دولار وذلك حسب احتياج إسرائيل. ويقال أن هذه المبالغ تذهب إلى ميزانية التنمية الإسرائيلية. وتدل الإحصاءات أن ما جمعته منظمتا المناشدة اليهودية والسندات منذ نشأتهما قد بلغ أربع مليارات دولار.

ومن المعلوم أن جمع الأموال ما هو إلا نوع واحد من الخدمات التي يقدمها اليهود الأمريكان لإسرائيل. فقد كانت أبواب البيت الأبيض وما تزال مفتوحة لبعض زعمائهم وخاصة في وقت الرئيس الأمريكي السابق لندن جونسن Lyndon Johnson لأن اليهود الأمريكان أكثر تقربًا إلى الحزب الديمقراطي من الحزب الجمهوري. ولم ينل الرئيس نيكسن (Nixon) خلال انتخابات عام 1968 الرئاسية أكثر من ثلث أصوات اليهود المنتخبين.

ويقوم اليهود في هذا البلد بجميع أنواع النشاطات خلال الفترات الانتخابية سواء كانت الانتخابات تتعلق بالكنغرس أو مجلس الشيوخ أو الرئاسة. والواقع أن نشاط اليهود الأمريكان وسيطرتهم على المراكز الحساسة في مجالات الأخبار والتلفزة والدعاية والمجالات الثقافية والمالية والبنوك والجامعات والشركات الكبيرة كل ذلك جعل جميع المترشحين للرئاسة في هذه السنة يسارعون إلى إرضائهم ويتسابقون إلى اقتراح المساعدات والحلول المرضية لإسرائيل.

وهناك صوتان خافتان يميلان إلى انتقاد إسرائيل ومناصرة القضايا العربية إما من أجل المحافظة على مصالحهم كما هو لدى الشركات البترولية ذات المصالح في البلاد العربية، أو لأنهم يعتقدون

فعلاً بعدالة القضية العربية كما هو الأمر لدى عدد من موظفي وزارة الخارجية الأمريكية المتخصصين في الشؤون العربية والذين عاشوا مدة طويلة في المشرق العربي.

ورغم ضعف تأثير هذه المجموعة من الموظفين على سياسة واشنطن تجاه إسرائيل والبلاد العربية فقد قرر اليهود الأمريكان أن يجعلوا كلمتهم مسموعة لدى البيت الأبيض «ليأمنوا شر هؤلاء المستعربين»!! وقد كونوا لهذا الغرض لجانًا خاصة تقوم بنشاطات مختلفة يتصل بعضها برجال الكنغرس والبعض بالبيت الأبيض وبعضها يقوم بمحاربة المشاريع التي تعارض مصالح إسرائيل ومساندة المطالب التي ترضيها وبعضها برفع صوت الجالية اليهودية والبعض بالتنسيق مع نشاط السفارة الإسرائيلية. وكمثال بسيط ولكن واضح نذكر عندما تردد وزير الخارجية الأمريكية في تحديد تاريخ إرسال الدفعة الجديدة من الطائرات إلى إسرائيل حَرّضَتْ لجنة الاتصال مع الكنغرس اثنى عشر ممثلاً على زيارة وزير الخارجية وإقناعه، وتلا ذلك إمضاء وثيقة من قبل ثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ تحضّ الحكومة الأمريكية على إرسال الطائرات إلى إسرائيل .

سئل أحد زعماء اليهود عن سبب نجاحهم فأجاب: «إن يهود العالم ليسوا شركاء بل كل منهم يعتبر نفسه هو الشخص الآخر. إن ما يشعر به أحدنا يقوم به الجميع وهذا ما ساعدنا على المحافظة على وجودنا خلال عشرين قرنًا»!!

04/04/72

*****

المجتمع الأمريكي

المرأة : رفض قوانين التناسل الطبيعية ودعوة لاستخدام التكنولوجيا تناسليًا!!

الرجل : نريد زوجات طائعات

نهضت منظمة تحرير المرأة بتكوين الجمعية القومية للنساء التي كونت فروعًا في مختلف أنحاء أمريكا، وتنظم هذه الأخيرة اجتماعات في مختلف الأحياء لتحقيق أهداف مختلفة مثل تشجيع المرأة على المطالبة بمزيد من التحرر والمساواة، وعلى الثورة ضد القيم والعادات الاجتماعية السائدة وأحيانًا إلى عدم الاستسلام والخضوع للرجل مما أدى إلى ارتفاع نسبة الطلاق.

وتتراوح أهداف منظمة تحرير المرأة الأمريكية من النشاط العادى المقبول الخاص بتحسين أوضاعها إلى مطالب ثورية، من المطالبة بدفع نفس الأجرة للمرأة التي تقوم بعمل الرجل، وبالقيام بدور إيجابي في المجالات السياسية والاقتصادية، إلى المطالبة بإعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة. وإعادة التنظيم هذه لا تعني تحديد أدوار كل من الجنسين وتوزيع مسؤولياته، إذ أن نقطة الانطلاق هي أنه لا فرق بين الرجل والمرأة، بل تعني محو الفوارق وإزالة الخصائص التي يتميز بها أحد الجنسين عن الآخر .

فالمنظمة تهدف من وراء ذلك إلى تغيير جذري لا للتقاليد والمعتقدات السائدة فقط بل وللمسؤوليات والأدوار التي لعبتها المرأة حتى الآن كزوجة وكأم، وأقول هذا لأن بعض النساء أصبحن ساخطات ثائرات على عبء الولادة وتربية الأطفال.. إلخ.

ولذلك تقول حركة التحرير المتطرفة بعدم تحديد دور المرأة ونوع العمل والمسؤولية لأن ذلك تمييز على أساس الجنس، ولأنه يخلق كثيرًا من المشاكل العائلية، فمثلاً، تقضي العادة أن المرأة هي التي تطبخ الأكل وتغسل أو تكوي الثياب وتطعم الصغير وتنظفه.. إلخ فإذا طالبت المرأة الرجل بالقيام بهذه الأعمال قد ينشأ عن ذلك جدال وسوء تفاهم، ولذلك تدعو المنظمة المذكورة إلى تحرير المرأة من هذه العادة.

بل تذهب إلى أبعد من ذلك وتصل إلى المبالغة والتطرف عندما تدعو النساء الأعضاء إلى العمل على الاستقلال الكامل عن الرجل في جميع مجالات الحياة بما في ذلك الحياة الجنسية وإلى استغلال التكنولوجيا والعلم الحديث لخلق (تناسليًا) نوع جديد من المرأة «الذكية القوية» وإلى رفض قوانين التناسل التي، في نظرهن، تجحف بحقوق المرأة وتثقل جسدها وتؤثر على صحتها وحياتها وحرية تنقلها.

ولكن منظمة تحرير المرأة الأمريكية ما زالت في مرحلة الانطلاق، لا تفرق بين الأهداف الحقيقية والمظاهر الرمزية بل ما زالت غارقة في المناقشات حول سياسة الهيئة وبرامجها ومبادئها ومواقفها ووسائل تحقيق الأهداف.

وقد بدأت نشاطها بانتقاد الكنغرس ومطالبته بإصلاح القوانين

السائدة المتعلقة بالعمل والولادة وتربية الأطفال وهي تسعى لتنظيم أفراد الجنس «المستضعف» وتجهيزهن للقيام بنشاط للحصول على نسبة أعلى في التمثيل السياسي وتحقيق المساواة التامة بين الرجل والمرأة.

وبما أن عدد النساء في الولايات المتحدة يفوق عدد الرجال، وهن أكثر غنى وأقوى سيطرة من الرجال، وبما أن هذه السنة هي سنة انتخابية يرغب فيها المرشحون في الحصول على مساندة النساء وعلى أصواتهن، فإنه من غير المستبعد أن ينلن كثيرًا من مطالبهن.

ومن جملة العوامل التي أثرت على حياة وتفكير المرأة الأمريكية تطور وسائل منع الحمل وتوفرها وقبول المجتمع لهذه الوسائل بحيث أصبحت تستعمل على نطاق واسع وبدون حرج، ومعنى هذا أن المرأة أصبحت تشعر بحرية أكثر، لا تخشى الحمل ولا تشعر بالحاجة إلى عطف الرجل وعنايته والاتكال عليه، ومن جملة العوامل طبعًا كون العمل المنزلي أصبح يدار آليًا، مما يوفر لها وقتًا تستعمله في نشاطات أخرى، أما انتشار الآلة في المعامل الحديثة فقد ذهب بالأعمال الشاقة وفتح المجال لمشاركة المرأة في تلك المصانع، ومن جملة العوامل أيضًا انتشار الوعي والثقافة مما دفع المرأة الأمريكية إلى النفور من نفوذ الرجل وسيطرته.

وبما أن انتشار الآلة وزيادة اتقانها حرر عددًا كبيرًا من السكان، فقد زاد الاهتمام بالثقافة العامة والفنون ، والعلاقات الإنسانية وشؤون الحضارة وفي كل هذه المجالات تلعب المرأة عادة دورًا أكبر من الرجل، وبذلك ازداد عدد النساء المشتغلات في هذه المجالات الحيوية بالنسبة للرجل، وكانت النتيجة اتساع سلطان المرأة وتأثيرها في المدارس ودور الفنون والترفيه وفي المكاتب وحتى في الإطار العائلي.

وتختلف حركة النساء في هذا البلد بأنها حركة الأكثرية، فإذا قارناها بحركة العمال أو حركة المسنين أو حتى بحركة الشباب نجد أنها أغنى وأقوى وأوسع سلطة وأدهى.

ورغم انتشار دعوة المنظمة النسائية لتحرير المرأة فإنها تلاقي صعوبات وعراقيل بسبب تطرفها وغرابة مطالبها أحيانًا حتى على عقل المرأة الأمريكية المعتدلة ، وأن دعوة المنظمة لاستقلال المرأة المطلق عن الرجل أثارت كثيرًا من الانتقاد من طرف الرجال والنساء، ووصفت في الصحافة بأنها انحراف غير طبيعي.

ومن العراقيل التي تعترض نجاح الحركة المتطرفة معارضة الرجل الأمريكي بصفة عامة لأنه أصبح يشعر بأنه هو الذي يحتاج للتحرر من تسلط المرأة ومن القوانين التي تحميها ضد الطلاق بل ومن المسؤوليات والأعباء التي يتحملها وهو يكد للحصول على حياة أفضل، وقد شوهدت ذات يوم أمام البيت الأبيض بضعة رجال يحملون لافتات كتب عليها «نريد زوجات طائعات»، ومن جملة العراقيل شعور عدد كبير من النساء بالخطر الذي تجلبه أفكار الحركة المتطرفة على حياتهن الزوجية وعائلاتهن.

أما النساء السود فيشعرن بأن الخطوة الأولى هي تحرير الرجل الأسود قبل العمل على تحرير المرأة من زوجها، والواقع أن طبيعة الأمريكية السوداء تميل نحو احترام الحياة العائلية والرغبة في بناء علاقات ودية مع جميع أفراد العائلة، وهي تشعر بالحاجة إلى مساندة الرجل الأسود لتعزيز كرامته وتقوية ثقته بنفسه، تلك الثقة التي حطمها النظام الاستغلالي خلال سنوات طويلة من الاستبداد.

ومما يؤخذ على حركة المرأة الجديدة هي أنها تخلق نوعًا من الصراع الطبقي ضد الرجال وهو عمل قد لا تحمد عقباه، فقد أصبح الرجل يفكر بدوره في تكوين «حركة تحرير الرجل»، وتخشى المرأة أن يؤدي ذلك إلى فقدان سلطانها ومركزها ومكانتها عند الرجل، ثم أن العدد الكبير من النساء يشك في أنه سيسعد بمنافسة الرجل ويربح من التسابق معه إلى احتلال المصانع والمتاجر والحقول، وهل توزن السعادة والنجاح بما تحصل عليه المرأة من أجرة فقط؟ وتعتقد المرأة المعتدلة أن كل هذه المطالب يمكن تحقيقها بدون التشهير بالرجال واتهامهم والضغط عليه، إذ أن تقدم الصناعة وازدياد الرفاهية يزيد من الاهتمام بنوع الحياة لا بكميتها وهذا يؤدى إلى ازدياد الاهتمام بالفن والجمال والتسلية مما يعزز سلطان المرأة ويحفظ لها في نفس الوقت دورها كزوجة وأم ومربية وشريكة.

غير أن منظمة تحرير المرأة الأمريكية ترفض كل ذلك مدعية أنه يجعل المرأة وسيلة لتسلية الرجل ويلفت الانتباه إلى الفوارق الجنسية التي ترغب المنظمة في القضاء على آثارها.

ومن الصعب الاعتقاد، سواء في أمريكا أو في بلاد أخرى، بأن تحطيم جميع الفوارق والقضاء على جميع العادات وإطلاق عنان الحريات، ومنافسة المرأة للرجل بدلاً من تعاونها سيخلق مجتمعًا سليمًا متكاملاً يسوده التسامح والتفاهم.

24/6/72

*****

أزمة في الطاقة تواجه الولايات المتحدة

منذ أكثر من عشرين سنة، عندما قام محمد مصدق في إيران بتأميم مصانع البترول البريطانية، بلغ الفزع من الولايات المتحدة أن أمرت وكالة المخابرات الأمريكية بالعمل على الإطاحة بحكومته. حدث ذلك في وقت كانت احتياجات أمريكا من النفط لا تساوي إلا جزءًا صغيرًا ممّا هي عليه اليوم.

أما اليوم، والإحصاءات تدل على أن من 30 إلى 40 بالمائة من النفط المستهلك في هذا البلد يجب أن يستورد من الشرق الأوسط حوالي عام 1985 فإن الخوف يزداد حول إمكانية الاعتماد على تلك المصادر التي يسودها القلق السياسي وعدم الاستقرار الناتج عن سياسة إسرائيل العدوانية.

وتتنبأ بعض الأوساط المطلعة أنه خلال العشر سنوات القادمة قد يحصل تأميم المصالح النفطية حتى من قبل تلك الدول «الصديقة» ويعترفون أنه لم يعد باستطاعة واشنطن أن تكرر نفس الدور الذي لعبته ضد حكومة مصدق في عام 1953.

وبما أن المسؤولين، من قبيل الاحتياط، يعتبرون قضية استيراد النفط قضية تمس أمن البلاد، لا يمكن تركها للظروف، فقد بدأوا يدرسون الحلول المختلفة الممكنة في حالة حدوث أزمة، وأصبحت مسألة «الطاقة» محل مناقشات وبحث في عدد من الوزارات الأمريكية

كل تنظر إليها من زاوية، فوزارة التجارة مثلاً تخشى أن ازدياد كميات النفط المستورد سيضاعف عجز ميزانية التجارة العاجزة، ووزارة الدفاع تنظر إليها من ناحية الأمن، ووزارة الخارجية تضع القضية في إطار علاقة العرب وإسرائيل و«النفوذ السوفياتي» في العالم العربي. ووزارة الداخلية تهتم بمناطق التنقيب في أمريكا ومدى ما ينشأ عن ذلك من التلوث البري أو الساحلي.

وتتفق الآراء على أنه مهما كانت الحلول فإن الولايات المتحدة ستبقى في حاجة إلى الشرق الأوسط، كمصدر لتزويدها بالطاقة، وأن هذه الحاجة ستستمر إلى سنوات عديدة، ولا أدل على هذا الرأي من أن الإحصاءات تشير إلى أن أمريكا استوردت مليوني برميل من النفط يوميًا في عام 1970، وأنها في عام 1980 ستستورد تسعة ملايين من البراميل يوميًا.

ويمكن القول بكل تأكيد بأنه ليس هنالك من مادة خام أساسية تؤثر على المصالح الأمريكية في الداخل والخارج مثل النفط «ما عدا إسرائيل طبعًا التي تجاوز تأثيرها كل التأثيرات»، ولذلك فإنه لا توجد صناعة أخرى تضاهي صناعة النفط في القدرة على الحصول على مساعدة الكنغرس لرعاية مصالحها وخاصة في سنة انتخابية، ولا أدل على أهمية هذه الصناعة من وجود واحد وستين وكالة في هذا البلد، تقوم حاليًا بدراسة مشكلة النفط والبحث عن الحلول، لذلك يوصف النفط بأنه «البضاعة السياسية».

ورغم التخوف الذي تبديه أو تخفيه واشنطن بخصوص مستقبل مصالحها البترولية في الشرق الأوسط، ورغم تذمرها من تزايد

التأثير السوفياتي تدريجيًا (حسب المزاعم الأمريكية) في المنطقة، فإن مساعدتها العمياء لإسرائيل وتصريحات الزعماء الأمريكان العاطفية لخدمة إسرائيل كل ذلك يكشف عن مناقضة صارخة أشبه ما تكون بحالة الطفل الذي أكل قطعة الحلوى وبدأ يبكي عليها.

ويبكي الأمريكان على نفوذهم الضائع في الشرق الأوسط وفي البلاد العربية فبالأمس كان الأسطول السادس يصول ويجول ويزور أي ميناء في البحر المتوسط، واليوم ليس هناك ميناء يرحب به في جميع جنوب المتوسط.

ولنرجع لقضية النفط وما تتخذه الولايات المتحدة أو تنوي اتخاذه من إجراءات لتوفير الطاقة لنفسها، لقد بعث نيكسون بتقرير واقتراحات لمجلس الكنغرس بشأن قضية النفط، ولكنه تناسى حاجيات الحاضر أو المستقبل القريب، وراح يتحدث عن الثمانينات. غير أن وزارة الخارجية الأمريكية زادت من اهتمامها بالقضية قبل حلول الأزمة التي تتوقع بعد عام 1975، ورغم أن الدراسة التي قامت بها وزارة الخارجية لا زالت سرية فإنه يستفاد من بعض الأوساط أنها تحتوي على مجموعة من الاقتراحات من بينها:

- توسيع التنقيب على النفط في أمريكا بما في ذلك الشواطيء.
- تشجيع زيادة الإنتاج في البلدان المستقرة نسبيًا وخاصة بلدان القارة الأمريكية.
- محاولة عقد اتفاقيات مع كندا حول الغاز والنفط، غير أن كندا ما زالت مترددة.

- إنشاء أنبوب ألاسكا.
- رفع أسعار النفط والغاز الطبيعي في أمريكا لتقليل الاستهلاك وهذا الاقتراح سيلاقي معارضة في الداخل.
- إيجاد وسائل نقل جماعية غير السيارات .
- حض الشركات البترولية على مسايرة مطالب الدول المنتجة وتلبية رغباتها قبل الوصول لوضع التأميم أو التهديد. ويلاحظ بهذه المناسبة أن شركة أرامكو وافقت على مطالب الحكومة السعودية بالمشاركة بنسبة عشرين بالمائة وأن هذه النسبة قد تتضاعف.
- تضمن الحكومة الأمريكية للشركات أرباحًا كافية تمكنها من تمويل المزيد من التنقيب في هذا البلد وفي الخارج، وتدل دراسة قام بها البنك المشهور تشاس منهاتن على أنه في العشر سنوات القادمة سيستهلك من النفط مقدار أكبر من جميع ما استهلك حتى الآن منذ حفر أول بئر بترولي وأن الاستثمارات ستتجاوز خمسمائه مليار (ما عدا البلاد الاشتراكية).
- التشجيع على إنشاء اتحاد للمستهلكين تكون له القدرة على التعامل مع منظمة الأوبيك، وللقضاء على تنافس الدول المستهلكة للنفط.

وبالإضافة لذلك يشير بعض الخبراء الأمريكان إلى إمكانية خزن النفط لاستعماله عند الأزمات، غير أن عملية الخزن باهظة التكاليف، كما أنهم يشيرون إلى ضرورة تعيين شخص كفء لضبط سياسة الحكومة الأمريكية حول الطاقة وتنسيقها مع الشركات المعنية.

وبما أن قدرة أمريكا في نظر المسؤولين المحليين، على حماية مصالحها والتدخل عسكريًا قد تدهورت، فلابدّ من تنسيق نشاط الشركات وسياسة الحكومة لتجنب مزيد من التدهور .

ويلاحظ أنه رغم حرص الشركات البترولية على حماية مصالحها في البلاد العربية فإن ضغطها على الحكومة الأمريكية، أو على الأقل سعيها لتقلل هذه الأخيرة من غلوائها في حماية المصالح الإسرائيلية، قد تناقص، بل يبدو للملاحظ أن سياسة أية حكومة أمريكية تجاه إسرائيل قد أصبحت شيئًا مرسومًا مخططًا لا يقبل المناقشة بل أنها أصبحت من معطيات العلاقات الدولية التي تتقبلها شركات البترول على علاتها.

ومن المهم الإشارة بهذه المناسبة إلى ازدياد الاهتمام في هذا البلد ببحث إمكانيات استيراد الغاز الطبيعي من الاتحاد السوفياتي. وتقوم وزارة التجارة الأمريكية بدراسة الموضوع وتزعم بعض الجرائد أن الدراسة يجب أن تتناول أيضًا قضية أمن الولايات المتحدة، وإلى أي مدى يمكنها الاعتماد على دولة منافسة لها في العالم، بخصوص قضية حيوية مثل قضية الطاقة وقد يحصل تبادل القمح الأمريكي مقابل الغاز الطبيعي السوفياتي.

وعلى كل فإن الاتجاه السياسي العام يشير إلى استعداد كل من الطرفين للاستفادة مما لدى الطرف الآخر. وقد بدأت الولايات المتحدة تشعر بضرورة تنويع مصادر استيراد الطاقة ، والغاز الطبيعي على الخصوص، نظرًا لاستمرار أسعار النفط في الصعود، ولكون الميزانية التجارية الأمريكية تعاني مشاكل العجز منذ سنوات.

06 juin 1972

*****

النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة

وجد اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا شعبًا ساذجًا فعزموا على استغلاله. إن دين الصهيونية الحقيقي في أمريكا هو السيطرة السياسية.

إنهم يوجدون وراء كل زعيم من قريب أو بعيد، إنهم على استعداد دائم لتقديم خدماتهم، منهم المشير، والباحث، والمدير، والمفكر، والصحفي، والمعلم، والعالم، والممول، والمحافظ، واليساري.. وكلهم متفقون على هدف واحد ويعملون لغاية واحدة مد التآمر للاستيلاء على مقاليد الحكم، «ولكن من وراء حجاب».

والواقع أن اليهود وصلوا إلى درجة من النفوذ السياسي في هذه البلاد جعل عددًا من الأمريكان يتحدثون، دون الإجهار بذلك طبعًا، عن خطر السيطرة الصهيونية على المراكز الحساسة في الحياة الأمريكية.

ويفسر بعض علماء الاجتماع الغربيين هذه الظاهرة - أعني ظاهرة حرص اليهود على الحصول على النفوذ السياسي - بأنها رد فعل جاء نتيجة ما تعرض له اليهود خلال الألفي سنة الماضية من التشريد والإهانة. ووجد اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا شعبًا ساذجًا فعزموا على استغلاله، وفي هذه البلاد قرروا أن يحولوا مخاوفهم المزعومة، وانعزالهم المعتاد إلى مشاركة فعالة في نظام الحكم لتحقيق أهدافهم.

واشتهر اليهود في أمريكا بالمراوغة والمطاوعة والمجاراة وبتنظيم مجهوداتهم وصبها في قناة واحدة. وهم يستعملون كثيرًا من الدهاء والحذر في معاملة الزعماء الأمريكان. من ذلك مثلاً أنهم عندما ينجح بعضهم في الوصول إلى مناصب سياسية واجتماعية يحاولون ألا يأخذوا الصدارة وأن يعملوا وراء شخصية، أمريكية غير يهودية، فهم يعملون في الخفاء، والقول السائر على ألسنة زعمائهم هو «حرك المياه دون أن تخلق أمواجًا».

إنهم يقدمون الاقتراحات ويحررون التصريحات ويصيغون القرارات ويؤثرون على سير الأمور في كثير من المجالات ولكنهم يقومون بذلك كله بدهاء وحذر، فإذا برز أحدهم واشتهر، كما هو الحال مع كيسنجر، مستشار نيكسون، بدأوا ينشرون المزاعم المختلفة مؤكدين أنهم لا يرغبون أن تسلط الأضواء على نشاطهم وأنه لا ينبغي، إذا ما أخطأ كيسنجر في مهمته أو فشل، أن يوجه اللوم إلى جميع المسؤولين اليهود، وهم في تصرفاتهم وتخوفهم يكادون أن يعترفوا بأنهم يخشون مغبة طموحهم المفرط ودسائسهم.

وقد نشرت بعض الصحف الأمريكية خبرًا مفاده أن مكّافرن، مرشح الحزب الديموقراطي للرئاسة، طلب من سناتور يهودي أن يقبل نيابة الرئاسة فرفض هذا الأخير، معللاً رفضه بأنه في حالة فشل مكّافرن في الحصول على الرئاسة قد يوجه اللوم إلى المجموعة اليهودية، وعلقت إحدى الصحف على ذلك بقولها: «إن اليهود في أمريكا، رغم نشاطهم وتفوقهم في عدد من المجالات، تنقصهم

خصائص الزعامة مثل القدرة على الاندماج في المجتمع، والتجاوب مع الناخب الأمريكي، والتعبير على المصالح التي لا تمسهم مباشرة، والاهتمام بالقضايا الشعبية والإخلاص لها».

ورغم ادعاء الأمريكان بأن بلادهم بوتقة تنصهر فيها مختلف الأقليات والأجناس فإن انتماء الشخص اليهودي إلى جماعته وتمسكه بتقاليدها والمحافظة على المميزات الخاصة للشخصية اليهودية تكذب هذا الادعاء، فالملاحظ أن اليهودي الأمريكي، بعد مرور أكثر من مائة سنة على وجوده بأمريكا. ما زال ولاؤه موجهًا نحو دولة أخرى، وما زال يختلف في تقاليده ومهنته وذوقه وسكناه.. وغير ذلك عن الأمريكي العادي، وهذا بالعكس تمامًا مما يحدث للشخص العربي الذي يهاجر إلى هذا البلد، إذ يصبح أكثر تشبهًا بالأمريكان وأكثر تحمسًا وتمسكًا بنوع الحياة الأمريكية وأسلوبها من الأمريكان الذين بنوا الولايات المتحدة، ومن الأقوال السائرة على ألسنة اليهود هنا: إن الشخص الوحيد الذي لا ينال احترام الأمريكي هو اليهودي الذي يستحي أن يكون يهوديًا.

والواقع أن اليهود هنا يتمسكون بنوع من العصبية القبلية تكاد تكون غريزية. ولعل رغبة المجموعات والأقليات اليهودية، التي عاشت في الشرق الأوسط وأوربا والاتحاد السوفياتي وأمريكا عدة قرون رغبتهم في عدم الاندماج هي التي سببت لهم مشاكل عديدة عبر التاريخ، لقد أصبحوا يشكلون خطرًا على الأقطار التي عاشوا فيها مما حدا ببعض الحكام إلى تشتيت شملهم أو القضاء عليهم.

إن السيطرة الصهيونية على المراكز الحساسة في الحياة الأمريكية هي هدفهم الأول ودينهم الحقيقي، ويوجه الشباب اليهودي في أمريكا إلى الاهتمام بالمواد التي تؤهله للخدمات الاجتماعية. مثل الحقوق والإذاعة والتأليف والمهن المالية والتجارية، إن هذه الاختصاصات تمكنهم من ناحية من التأثير على الحياة الاجتماعية ومن جهة أخرى تسهل عليهم التقرب من ذوي السلطة سواء بالتبرع بالمال أو عن طريق تقديم الخدمات الاجتماعية. ومما لا شك فيه أن اليهود قد نجحوا في السيطرة على جزء كبير من وسائل الإعلام بواسطة الراديو والتلفزيون والصحافة والسينما، وسنتحدث في المقال القادم على دورهم في مجال الإعلام وعلى تصويت اليهود في الانتخابات الأمريكية للرئاسة.

لا يزيد عدد اليهود في أمريكا على ثلاثة بالمائة من مجموع السكان، غير أن الإحصاءات تشير إلى أن نسبة من يتعاطون مهنة المحاماة والمتخصصين في الدراسات الاجتماعية تبلغ خمسة عشر بالمائة، وقد ركز اليهود على هذه الميادين لأنها توصلهم إلى مناصب سياسية.

وقد أشرت فيما سبق إلى أن اليهود هنا بذلوا ويبذلون مجهودات كبيرة، للسيطرة على مجال الإعلام، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا، حتى أصبح من الصعب على الكتب والمجلات التي تنتقد السياسة الإسرائيلية أن تجد طريقها إلى القراء، وقد لقي اليهود صعوبات عندما حاولوا التغلغل إلى ميدان الإعلام، فلجأوا إلى شراء دور الطباعة واستعمال الحيلة والإغراء وتبديل الأسماء أو الاختفاء وراء شخصيات أمريكية لبلوغ أهدافهم.

وعندما أصبح التلفزيون وسيلة مهمة للاتصال بالجماهير، ركزوا اهتمامهم ووجهوا عنايتهم إليه، وقد نجحوا إلى حد كبير، كما أنهم وجهوا عنايتهم إلى «هوليود» التي أصبحت من مجالاتهم المفضلة والتي لعب فيها الممثلون اليهود والأموال الصهيونية، دورًا مهمًا، يقول المؤرخ اليهودي إبرام صقر في كتابه تاريخ اليهود: «لا توجد هناك صناعة أخرى تركت أثرًا أعمق في الحياة الأمريكية أكثر من السينما».

وهذا صحيح لأن دور السينما في هذه البلاد لا يقتصر على تصوير الحياة بل يوجهها، وقد لجأ عدد كبير من الممثلين اليهود إلى تغيير أسمائهم ليزداد تجاوب الشعب الأمريكي مع أدوارهم، وما أسماء كيرك دوغلاس، طوني كورتيس، وجيري لويس، وغيرهم من الممثلين اليهود إلا أسماء مستعارة.

أما في مدينة نيويورك فتوجد طبقة كبيرة من المثقفين اليهود يمكن وصفها بأنها تسيطر لا على الحياة الثقافية فقط بل وعلى النشاط السياسي، ومن النظريات التي يؤمن بها اليهود هنا كون الإنسان صانعًا وليس صنيعة للتاريخ، وأن الإنسان ومحيطه قابلان للتغيير ، فإذا ما عجز المرء عن تغيير هذا المحيط يجب عليه أن يغير فلسفته وتصرفاته ليكسب القوة اللازمة للتأثير على المحيط.

وبالإضافة إلى الميادين الأنفة الذكر التي نجح فيها نشاط اليهود، لابد من الإشارة إلى دور الأموال التي يبذلونها للمساعدة على انتخاب مرشحهم المفضل، والشيء الأول الذي يرغب فيه اليهود عندما يقدمون خدماتهم ومساعداتهم للمرشح هو التعرف عليه شخصيًا.

وقد سأل أحد كبار المتبرعين لنكسون في عام 1968 السؤال التالي: «إذا ما نجحت وأصبحت رئيسًا فهل سترفع التليفون عندما أكلمك في البيت الأبيض؟».

وقد اشتهر اليهود خلال التاريخ، بأنهم يحبون المال حبًا شديدًا، ولعل سبب ذلك أن اليهود لم يعرفوا خلال تاريخهم الطويل إلا حياة الإهانة والتشرد، وكانوا أينما عاشوا تغلق في وجوههم أبواب المناصب الكبرى في الجيش والحكومة كما كانوا يمنعون من امتلاك الأراضي، فلم تبق لهم إلا مهنة التجارة التي برعوا فيها. ووجد اليهود أن كسب المال يمكنهم من استعمال الرشوة وتقديم الهدايا لقضاء مآربهم وحماية مصالحهم، وما من شك في أن هذا الأسلوب قد أحرز نجاحًا كبيرًا في أمريكا.

لقد أنشأ اليهود في هذه البلاد عددًا كبيرًا من الجمعيات لتسهر على مصالحهم ومصالح دولة إسرائيل تقوم هذه الجمعيات بتتبع الأخبار ومعرفة من هو ضد إسرائيل ومن بجانبها، وبجمع الأموال وبدراسة تاريخ وظروف المرشحين وهي التي تقرر أي مرشح يحظى بتأييد اليهود والمبلغ الذي «توظفه» في هذا المرشح أو ذاك، تبعًا لما يعد به ولإمكانيات نجاحه.. إلى غير ذلك.

لقد أعار كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي اهتمامًا خاصًا للأصوات اليهودية هذه السنة، فمن جملة نشاط الحزب الجمهوري أنه قام بتوزيع منشورات وضح فيها رضاء إسرائيل على سياسة نيكسون واستشهد على ذلك بالحملة التي قامت بها الصحافة في إسرائيل

محبذة إعادة انتخاب نيكسون، كما قام سفير إسرائيل في واشنطن بالإعلان عن رضاء حكومة تل أبيب على سياسة نيكسون، ومن الغريب أن الزعماء الأمريكان لا يعتبرون نشاطًا كهذا من قبيل التدخل في الشؤون الداخلية من قبل دولة أجنبية.

أما الحزب الديموقراطي فقد قام بطبع وتوزيع رسائل ومنشورات عديدة موضحًا الأعمال التي عملها أو سيعملها الحزب من أجل المحافظة على المصالح الإسرائيلية، ويقرأ الناخب الأمريكي على بعض اللافتات: «انتخبوا نيكسون لأنه من أشد الناس دفاعًا عن إسرائيل» أو «انتخبوا مكافرن فهو الذي سينقذ يهود الاتحاد السوفياتي» أو «صوتوا على فلان إن أردتم أن تظل الشعلة التي أوقدتموها في سيناء مشتعلة».

وهكذا بلغ من تأثير شرذمة من اليهود أن جعلت سياسة أكبر دولة خاضعة لمصالح دولة أجنبية صغيرة، وبلغ زعماء أمريكا درجة من الأنانية، أنهم أصبحوا يتجاهلون مصالح الشعب الحقيقية لإرضاء الأقلية اليهودية من أجل الحصول على تأييدهم في الانتخابات.

11/11/1972

*****

اكتشاف الفضاء: ماذا بعد أبولو 17؟

دشن يوري قاقارين رحلة أول إنسان يتحرر من جاذبية الأرض ليدور حولها في أفريل 1961 ووضع نيل أرمسترانق رجله على سطح القمر في جويلية 1969 ففي يوم 4 أكتوبر من عام 57 شق قمر صناعي سوفياتي طبقات الجو حاملاً قمرًا صناعيًا ليضعه في مدار حول الأرض وتلته صواريخ أقوى تحمل أقمارًا أكبر، إلى أماكن أبعد داخل الفضاء، لتبقى هناك مددًا أطول أو تعود إلى الأرض بعد انتهاء مهمتها.

وهكذا تحولت التنبؤات إلى حقائق وأصبحت النظريات المدونة في الكتب حوادث نعيشها ووقائع نشاهدها تأتينا بصور ومعلومات من الفضاء الخارجي.

وصحب ذلك تغير في تصورنا للأرض بمحيطاتها اللانهائية وقاراتها الواسعة. فبدأنا نشاهدها مثلاً كما تبدو من على سطح القمر، وكما كان يراها العلماء في نظرياتهم، كتلة صغيرة وكرة منعزلة تسبح في ظلمات الفضاء الموحشة.

وبدأ الإنسان يشاهد محيطه لا ببصره المحدود المدى فقط وليس من فوق أرضه التي لا تسمح له إلا بصورة جزئية بل من الفضاء

البـعـيـد؛ وقـد أحـدث نزول الإنسـان على سطـح القـمـر والصـور التي التقطها من هناك للأرض عند شـروقها وغـروبها حول القمـر، أحـدث انقـلابًا في كثيـر من النفوس وشعـورًا بفضـل الأرض وخيـراتهـا ومـائهـا وهوائها واعتدالها. كما جعل الإنسـان يشعـر بوحدة مصيره وضـرورة التضامن للمحافظة على كوكبه الأزرق الجميل الذي يتمتع بمزايا لا توجد فوق الكواكب الأخرى.

وما من شك في أن المعلومات العلمية التي جاءت سواء نتيجة الأقمار التي بقيت تدور حول الأرض أو المركبات الفضائية التي اتجهت نحـو القـمـر وغـيـره من الكواكب، مـا من شك في أن هـذه المعلومـات قدمت للعماء فكرة أوسع وأدق وأوضح حول مجموعة النظام الشمسي كما قدمت للرجل العادي صورة جديدة عن الأرض نفسها.

لقد ذكر لي بعض الأصدقاء عندما رأوا لأول مرة صورة الأرض كـمـا تبـدو من على سطح القـمـر على شـاشـة التلفـزيون، ذكـروا أن تصورهم للأرض قبل ذلك كان أشبه بقصة العميان الذين تعرفوا على الفيل لأول مرة. والواقع أن المرء يحتاج إلى خيال خصب وثقة عندما يشاهد لأول مرة صورة الأرض من الفضاء البعيد ليصدق توًا بأن ذلك الشبح البيضاوي الصغير هو الأرض التي يعيش فوقها هو وما يقرب من أربعة ملايير من البشر .

ومن ناحية أخرى فقد جعلت زيارة الإنسان للقمر والاكتشافات التي حققها في كواكب أخرى جعلت الإنسان أكثر يقينًا من قبل من أنه

لا مفر له من الأرض ولا ملجأ له سواها وأنها هي منزله الأفضل، منها خلقناكم وإليها نعيدكم وإن في ذلك لعبرة.

لقد تحدث كثير من العلماء في الخمسينات عن إمكانية الخروج إلى الفضاء ودراسة النظام الشمسي فماذا حدث منذ ذلك الوقت؟ لقد نزلت في جويلية الماضي المركبة الفضائية فينوس رقم 2 على كوكب (فينوس) كما تمكنت المركبة الأمريكية مارينار رقم 9 من تصوير مخطط واضح لسطح الكوكب مارس وينتظر أن تصل في هذا الشهر مارينار 10 إلى محيط جوبيتر أما جارنا القمر فقد تلقى عددًا من الزوار، ووصلت تربته وأحجاره إلى الأرض وأجريت عليها بحوث لم يتنبأ بها العلماء في الخمسينات.

وقد أصبحنا الآن في فترة يجري فيها نوع من التعاون الجزئي بين أمريكا والاتحاد السوفياتي، والمرجو أن تكون نتيجة التعاون والاكتشافات استفادة جميع دول الأرض من استعمال الفضاء في المجالات المختلفة. ومما يساعد على هذا الشعور استغلال بعض الأقمار الصناعية لتسهيل المواصلات بين القارات ومعرفة الأحوال الجوية وغير ذلك. وقد أصبح يوجد الآن فوق سطح الأرض حوالي سبعين مركزًا لتيسير المواصلات وربط الدول المختلفة ببعضها.

وبإرسال أبولو 17 إلى القمر انتهى البرنامج الحالي لاكتشاف القمر بواسطة إنزال رجال الفضاء الأمريكيين ويركز العلماء والمنظمة المكلفة بشؤون الفضاء، يركزون اهتمامهم الآن على إنشاء مركبات تستعمل عدة مرات لنقل الناس إلى مدار حول الأرض حيث سيوضع

مختبر دائم ثم تستعاد المركبات إلى الأرض لاستعمالها عند الحاجة، والهدف من ذلك هو خفض تكاليف الاكتشافات الفضائية. وقد عهدت المنظمة الفضائية الأمريكية إلى شركة لصنع هذا النوع من المركبات خلال السنوات القليلة القادمة. وتقدر تكاليفها بما في ذلك الصواريخ التي تحملها إلى الفضاء بنحو خمسة ملايير دولار وهناك تفاؤل كبير بنجاح أمريكا في تحقيق مشروع المركبة المذكورة التي ستستعمل في السفر بين الأرض والمختبرات الموجودة في مدارات حول الأرض ناقلة الخبراء والآلات والمعلومات من مكان لآخر بصفة منتظمة.

غير أنه بعد أن انخفض حماس الأمريكان تجاه غزو الفضاء لم تعد المخصصات المالية التي يوافق عليها الكنغرس للمشاريع الفضائية تتجاوز ثلاثة ملايير سنويًا ذلك لأن عددًا كبيرًا من الأمريكان أصبح يعتقد أنه بعد النزول على القمر يجب أن تصرف الأموال على مشاريع إصلاح الحياة في المدن الأمريكية ومحاربة المشاكل التي يعاني منها الشعب الأمريكي مثل البطالة والجرائم والتلوث المتزايد وغير ذلك.

ولكن العلماء الأمريكان المختصين في شؤون الفضاء يعتقدون أنه لا بد من مواصلة الأعمال للمحافظة على الخبرة التكنولوجية الواسعة، والأيدي العاملة المختصة التي قد تتبعثر وتهمل أو تستعمل في صناعات أخرى إذا توقفت المشاريع الفضائية. وهم يخشون أن تصبح المعلومات الحالية عديمة الجدوى بعد عدد من السنين إذا لم يستمر الاكتشاف ولذلك فهم يفكرون في إنشاء محطة دائمة فوق سطح القمر تمكن عددًا من المكتشفين والعلماء أن يقيموا هناك لمدة معينة، وتكون

نواة لبناء محطات أكبر في المستقبل كما أنهم يسعون لإنشاء محطة فضائية تصبح نقطة انطلاق ومركز تموين واستراحة عند إرسال مركبات لكواكب بعيدة.

ويبدو واضحًا الآن أن الخطوات المقبلة في الأعمال الفضائية هي ثلاث رحلات تجريبية طويلة قد تجري في الصيف القادم في المختبر الفضائي الذي سيوضع في مدار حول الأرض ويلي ذلك المشروع الأمريكي - الروسي وهو تجربة اللقاء في الفضاء التي ستجرى في عام 1975.

إن الولايات المتحدة دخلت مجال اكتشاف الفضاء تحت ضغط ومنافسة بعد النجاح الذي حققه الاتحاد السوفياتي في السنوات الأولى.

ولذلك يبدو أن النجاح في إرسال رجال إلى القمر قد أعاد إلى الزعماء الأمريكان الثقة، وقضي إلى حد كبير على روح المنافسة التي دفعتهم إلى تخصيص مبالغ كبيرة وبذل مجهودات جبارة للوصول إلى القمر ولو كان هذا لا يعتبر إلا نجاحًا جزئيًا في مجال اكتشاف نظام المجموعة الشمسية.

كما يبدو أن السياسة السوفياتية تجاه غزو الفضاء كانت ولا تزال مبنية على مفهوم واسع يتعلق بالمصير الكوني بأجمعه.

لذلك كانت مشاريعهم وإن بنيت على أهداف قومية أوسع مجالاً وأبعد مدى تحدوها آمال الاطلاع على أسرار الفضاء والتعطش لاكتشاف خبايا الكون والاستفادة من كل ذلك .

وسنرى في السبعينات والثمانينات مزيدًا من التركيز على اكتشاف الكواكب البعيدة، بواسطة مركبات فضائية مسيرة من الأرض.

وينظر العلماء إلى الكواكب الثلاثة فينوس والأرض ومارس بأنها أمثلة صالحة للمقارنة بينها لإدراك التطورات التي حصلت على الأرض، لأن قرب فينوس من الشمس جعل تاريخ تطوره يحدث بسرعة فنجده الآن قد فقد الكثير من مياهه وأن جوه يبلغ مائة مرة كثافة الأرض وهو مكون أساسًا من مادة الكربون ديوكسيد مما ينتج عنه جو حار وشديد القسوة. أما مارس الذي يوجد على مسافة أبعد من الشمس فيعتقد العلماء أن تاريخ تطوره يحدث ببطء وأنه ما زال في البداية ولم تتكون فوق سطحه بعد كميات كبيرة من المياه كما يوجد فوق الأرض. أما الأرض فقد حظيت بوجودها على بعد مناسب من الشمس ولذلك كان جوها معتدلاً ووجد عليها الهواء والمياه وجميع الشروط الصالحة لنشوء الحياة واستمرارها.

إذًا مقارنة أحوال الكواكب الثلاثة يساعد على تكوين إدراك أعمق وعلى دراسة أكمل لنشوء النظام الشمسي وتطوره. وفي نفس الوقت تسهل دراسة الحوادث الجوية حول الكواكب الأخرى على العلماء تحليل الظواهر الجوية الأرضية وفهم نظامها وعملياتها ذلك لأن هذه تعتبر أكثر تعقيدًا من الظواهر الجوية حول الكواكب الأخرى.

وهكذا شاركت الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض والمركبات الفضائية التي أرسلت للقمر والكواكب البعيدة الأخرى على توسيع معارف الإنسان حول عالمه والعوالم البعيدة.

لقد أصبح علماء الفضاء يتحدثون عن النظام الشمسي ويراقبون بعض مظاهره بطريقة تجعل الإنسان، وخاصة الذين تتبعوا حوادث الاكتشافات الفضائية - يشعر بأن عالمه الحقيقي ليس هو الأرض وحدها بل أنه أوسع وأعظم من ذلك بكثير، لقد أصبحت حدود الحياة لا تنتهي بحدود الكرة الأرضية اتسعت آمال الإنسان لتشمل آفاقًا وراء السحب والسموات والقمر.

صحيح أن الأرض هي مهد الإنسان ومنبع الفكر، ومصدر الحياة المعروفة حتى الآن ولكن إنسان اليوم أصبح يرفض أن يعيش في مهده ويقتنع بحدود الأرض، فما أكبر الإنسان في طموحه وتحديه للفضاء وما أصغر مهد الإنساء في عين الفضاء.

28/12/1972

*****

الحلقة الأولى

الأمريكان السود بين العُبودية والحرية

خلد الرجل الأفروأمريكي تجاربه في أمريكا في أناشيده وأشعاره ونثره؛ والذي يهمنا في هذا البحث هو النوع الأخير، أعني كلمات الخطباء السود الموجهة للجماهير، والمقالات التي نشرت في المجلات والجرائد، وقصصًا شخصية تحدث فيها رجال ونساء عن تجاربهم.

وهناك أيضًا النوادر والحكايات التي تشكل جزءًا من النثر الشعبي، بعضها مكتوب وبعضها شفهي، وهناك رسائل تذكر بحوادث الماضي ومشاكل الحاضر وآمال المستقبل، ونجد أحيانًا مقطوعات هجائية في شكل فكاهات لاذعة تضحك من حيث لا يقصد منها الضحك، وأخيرًا في القرن العشرين، نجد أحاديث ومناقشات تجري على شاشة التلفزيون، إذا يمكن القول بأن النثر الشعبي للأمريكان السود يمثل سجلاً لرحلتهم من العبودية إلى الحرية.

بدأ هذا السجل في سنة 1619، ففي تلك السنة جلبت باخرة هولاندية عشرين رجلاً أسود إلى مدينة «جيمز تاون» في ولاية فرجينيا، لم يكن أولئك الرجال عبيدًا بل عمالاً يخلى سبيلهم بعد عدد من السنوات بناء على وثيقة مكتوبة، ولكن ما أن حل عام 1670 حتى كانت ولاية فرجينيا، مثل بقية الولايات قد رخصت الاسترقاق.

كان عدد العبيد قليلاً قبل سنة 1793، وهو العام الذي اخترع فيه محلج القطن، سهلت هذه الآلة عمليات محالجة القطن فتزايد الطلب عليه وعلى العبيد، وما إن حلت نهاية القرن المذكور حتى بلغ عدد العبيد ألف مرة ضعف العدد الذي أحضر إلى «جيمز تاون» عام 1619.

عندما أطْبَقَتْ أجنحة العبودية الحالكة على أمريكا، عومل الرجال والنساء والأطفال معاملة الحيوانات، فشردت عائلات وفصلت أمهات عن أولادهن وبعول عن زوجاتهم. أجبر الناس على العمل في قطف القطن ساعات طويلة تحت شمس محرقة، ترعرع الأطفال السود تحت الخوف من سياط السيد ، وعاش الرجل الأسود تحت الاضطهاد والاستبداد من طلوع الشمس إلى غروبها.

وثار الرجل الأسود كما يثور جميع الذين غلبوا على أمرهم، وقد بدأت ثورته قبل نزوله فوق تراب أمريكا كما حدث على الباخرة «كانتاكي» عندما ثار الرجال السود على ربان الباخرة وملاحيها فقتلوهم جميعًا، وأحيانًا كانوا يفضلون الموت جوعًا بدلاً من أكل طعام عصبة السفينة التي تحملهم للعبودية، ومنهم من كان يفضل الانتحار فيرمي بنفسه في البحر.

وواصل الرجل الأسود ثورته في العالم الجديد فدعا جماعته للاتحاد وقام بثورات دامية، وكان أحيانًا يسمم سيده أو من يشرف عليه، وتارة يهرب تحت جنح الظلام للالتحاق بزعماء مثل «هاريت توبمان» الزعيمة السوداء الشجاعة التي أنقذت عددًا كبيرًا من العبيد مستعملة مواصلات سرية بواسطة السكك الحديدية.

وطورًا كان كفاح الرجل الأسود من نوع آخر مستعملاً سلاح الكتابة والخطابة، ناضل من أجل حرية إخوانه في المؤتمرات والمجلات والجرائد. ومن الذين قاموا بهذا النوع من الكفاح من حصل على شهادة جامعية، ومنهم من ثقف نفسه، منهم من ولد حرّا، ومنهم من فر من الرق.

ولكن لم يكن جميع الأمريكان السود على رأي واحد تجاه مشكلة الرق، لم يرفع بعضهم صوته ضد ظروف حياته وحياة إخوانه، وكان بعضهم من نوع العبيد المحظوظين، بينما فضلت شرذمة الاعتماد على شعور الشعب الأمريكي لتحطيم نظام الاسترقاق، واختارت فئة أن تعيش خارج البلاد. ورغم هذا التباين في وجهة النظر فإن الأمريكان السود اتفقوا على نقطة واحدة ألا وهي وجوب القضاء على نظام الاسترقاق، قال فريدريك دوجلاس: «إن نظام الاسترقاق لا ينتهي إلا بإراقة الدماء» وقد أريقت الدماء فعلاً في عام 1861، عندما اشتبك الشمال والجنوب والسود والبيض في حرب أهلية وقاتل الرجل الأسود بضراوة لأنه اعتقد عندئذ بأن مصيره مربتط بنتيجة الحرب، قاتل ببسالة ليزيح أجنحة الاستبداد المظلمة عن كتفيه وأكتاف إخوانه وأخواته في الحاضر والمستقبل.

وفي سنة 1865، عندما انقشعت الأدخنة عن ساحات المعارك، ظن الرجل الأسود بأن فجر الحرية قد بزغ، وتمت الموافقة عندئذ على التعديل الثالث عشر للدستور الذي قضى بمنع الاسترقاق منعًا باتًا، وجاء بعد ذلك التعديل الرابع عشر للدستور مصرحًا بأن الرجل الأسود أصبح مواطنًا كاملاً، ثم الخامس عشر مؤكدًا حقه في

الانتخاب. بقي على الأمريكي الأسود أن يعمل ويكافح من أجل التمتع بهذه الحريات والمحافظة عليها.

استطاع بأصواته، أن ينتخب بعض إخوانه لمناصب مهمة في الدوائر الحكومية والتشريعية ولكن سرعان ما اكتشف أنه لم يحن موعد العهد الجديد، وأن الذين انتخبوا كانوا أحسن حظًا من المنتخبين، فظل بعض هؤلاء تحت حماية ورحمة «مكتب السود المحررين، وبقي بعضهم مشردًا يجوبون الطرقات بحثًا عن الأكل واللباس، ورجع جماعة خافوا على أنفسهم إلى المزارع التي كانوا يعملون فيها كعبيد. ومما زاد الوضع سوءًا أن الرئيس روثر فورد هيز سحب القوات الفيدرالية من الجنوب سنة 1877 وترك الإنسان الأسود تحت رحمة الطغاة من أسياده السابقين. وما أن غادر الجنود الجنوب حتى بدأ الظلم والاستبداد من جديد.

وفجأة ظهرت منظمات لاضطهاد السود، مثل منظمة «الكلو كلاكس كلان»، وفرسان الكاميلية البيضاء، ومنظمة القمصان الحمر، ومنظمات أخرى عديدة قاموا بقتل وتشويه السود وكذلك البيض اللذين ناهضوا نظام الرق، نشرت تلك المنظمات رعبًا لم يلحق له مثيل حتى الآن.

وماذا كان في وسع السكان السود العزل أن يفعلوا ضد الطغيان الجارف في نهاية القرن، أصبح اختيارهم محصورًا بين اتباع قيادة «بوكرت» واشنطن، أو زعامة الدكتور أ.ب. دوبوا.

فإذا اختار أفكار واشنطن فإنه يتقبل التمييز العنصري في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وإذا تبع الرجل الأسود أفكار دوبوا فإنه يتعين عليه أن يكافح من أجل حقوقه التي اعترف له الدستور بها. لم يكن الاختيار سهلاً حذا جماعة حذوا واشنطن وفضل آخرون قيادة دوبوا. وظل الهدف يحظى باهتمام الجميع، ولم يتردد رجل في مناصرة هذا الهدف الذي يقضي بأن الكفاح لضمان الحريات التي نالها الرجل الأسود في القرن التاسع عشر يجب أن يستمر في القرن العشرين.

ما زال الرجل الأسود يناضل منذ وقت طويل، لم يكافح من أجل بلوغ القمر بل في سبيل التمتع بالحقوق التي خوله الدستور إياها. ولكن ما زالت الحرية التي ناضل من أجلها بعيدة المنال. وقد أشار إلى ذلك الرئيس كندي في خطاب له على شاشة التليفزيون يوم 11 جوان 1963 عندما قال: «انقضت مائة سنة منذ حرر الرئيس لينكولن العبيد. ولكن أحفادهم ما زالوا حتى الآن لا يتمتعون بالحرية الكاملة. لم يتحرروا من الظلم ولم يتحرروا من الاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي ولن يصبح هذا الشعب حرًا حتى يصبح جميع مواطنيه أحرارًا».

تحققت بعض النتائج. فقد حرمت المحكمة العليا التمييز العنصري في المدارس عام 1954، ووافقت على وثائق الحقوق المدنية في عام 1960 و1964 و1965 و1966، وأكدت هذه الوثائق حقوق الانتخاب والسكن والخدمات العامة.

ولكن هذه النتائج لا تعني شيئًا لأغلبية السود، فلم تتغير حالتهم ولم يتحسن وضعهم، والواقع أن الرجل الأسود في عام 1960 شعر

بأنه مهمل من قبل النظام الأمريكي تمامًا كما شعر إخوانه في عام 1860.

لذلك قام بمظاهرات، ورحلات مشيًا، واحتل مقاعد بعض المؤسسات احتجاجًا، وقام بثورات في 1964 ، 1965، 1967 و1968، كل ذلك من أجل الحرية والكرامة، بالإضافة لذلك فقد قام بنشاطات اجتماعية وانضم إلى حركات مثل منظمة المسلمين السود ومنظمة «كور» وس. ن. س س ومنظمة مؤتمر الجنوب المسيحية و«البلاك بانثرز».

طالب الرجل الأسود بزعماء جدد، فبرز عدد منهم مثل مارتن لوثر كينغ، وجيمز فارمر، ومالكوم أكس، وراب براون، وأليجا محمد، وستوكلي كار مايكل. ولم يتفق هؤلاء على منهاج معين مثلما كان الأمر مع الزعماء الأوائل. رغب بعضهم في خوض معركة الستينات باحتجاجات سلمية ومنظمة. وقال البعض بأن المعركة يجب أن تشمل «أية وسيلة ضرورية» بل هناك جماعة منهم يئست من إصلاح أمريكا ومن بلوغ الرجل الأسود أهدافه فحرضوا السكان السود على البحث عن موطن آخر.

وبدأ الأمريكي الأسود يشك ويتساءل عن معنى أمريكا الحقيقي، هل يمكن لأمريكا العنصرية أن تسمح له أن يعيش حرًا؟ وهل بإمكان أمريكا التي أبت أن تتغير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن تتغير في القرن العشرين؟ وما هي الوسائل لبلوغ الأهداف؟ هل ما زال الدمج العنصري هدفًا مرغوبًا؟ أم الجواب في الفكرة المنادية بانفصال السود وتكوين قومية خاصة؟

خلقت مثل هذه التساؤلات انشقاقًا في صفوف السود أنفسهم. فالدكتور كينغ مثلاً كان يميل للدمج العنصري، بينما أصبح آخرون مثل ستوكلي كار مايكل يرفضون الإيمان «بالحكم الأمريكي» ويؤمنون بأنه لا يمكن للرجل الأسود أن يتحرر إلا إذا أصبح يحكم نفسه ويدير شؤونه بنفسه. وكانت هذه الفكرة جزءًا من مفهوم جديد وعي «القوة السوداء».

وهكذا كان تحدي القرن العشرين واضحًا. فقد انقسم الشعب الأمريكي حول قضايا الحرية والعدالة، ووقع الخلاف في صفوف البيض، وبين البيض والسود وفي صفوف السود، وبدأ الرجل الأسود وكأنه يحيا بداية تاريخه من جديد. فلا مناص لسود عشرية السبعينات أن يبدأوا بتنظيم أنفسهم أولاً إذا كانوا يرغبون في نيل الحرية.

وبعد فترات من الخلاف والشقاق بدأ الأفروأمريكان يوجهون جهودهم ضد العدو المشترك: الظلم والفقر والاضطهاد. وبالرغم من أن الوضع أصبح أكثر جدية من أي وقت مضى، فقد ساد الاعتقاد بأن الأمريكان السود سيضمون صفوفهم لإنهاء المعركة التي بدأها أجدادهم منذ أن توجهت أول باخرة محملة بالرقيق إلى أمريكا.

5/4/1972

*****

الحلقة الثانية

الأمريكان السود يعقدون مؤتمرًا قوميًا

عقد الأمريكان السود مؤخرًا مؤتمرًا في ولاية أنديانا حضره، أكثر من ثمانية آلاف ممثل جاءوا من جميع أطراف الولايات المتحدة لمناقشة الطرق والوسائل التي تؤدي إلى تحسين أوضاعهم، وتحقيق مطالبهم.

وبما أن الصحافة الأمريكية، ما زالت تحت سيطرة بعض المصالح ومقيدة ببعض الاتجاهات المعينة فإنه لم يكن من الغريب أن تلعب هذه الصحافة دورًا في تشويه أعمال المؤتمر ونتائجه وأن تقوم بدعايات تهدف إلى استغلال الخلافات متناسية القرارات الإيجابية التي توصل إليها المؤتمرون.

ولكن المشاركين في المؤتمر صرحوا مرارًا بأن الوقت قد حان لغلق الأبواب في وجه سيطرة «البيض» وأكدوا بأن السكان الأمريكان السود هم وحدهم الذين يمكنهم الحكم على نتائج المؤتمر بالنجاح أو الفشل لا المراقبون والصحفيون.

وكان من نتائج هذا المؤتمر القومي قرارات تتضمن أماني ورغبات وحقوق الأمريكان السود وبرنامج يصف الطرق التي يجب اتخاذها للحصول على هذه الحقوق التي كثر حولها الحديث والنقاش على مستويات مختلفة وفي مناسبات متعددة، منذ أن بدأ الرجل الأسود يستيقظ من سباته ويتحرر من قيوده.

والأسئلة التي كانت تطرح في المؤتمر هي كيف نجابه المسيطرين؟ كيف نعالج الموقف؟ كيف نتغلب على العراقيل؟ كيف ننفذ مضمون البرنامج، وكيف نجابه نظامًا أصبح خبيرًا في خلق الوسائل التي تعطل قضايانا وتشوه سيرتنا، إنه ليس من السهل تغيير وضع اثنين وعشرين مليونًا من حالة الفقر والاستضعاف إلى وضع المسؤول والمنفذ والسيد.

لقد قبل الأمريكان السود بأن حل مشاكلهم يكمن في الحصول على قوانين تضمن لهم تساوي الفرص وتوفر العمل، وقبل ذلك كان الكثير من زعمائهم يعتقدون بأن الحل يكمن في الثقافة وتوفير فرص التعليم للجميع، وبعد أن نفذ الصبر وفشلت المساعي الأخرى لجأ السكان السود إلى المظاهرات واستعمال القوة.

وظهر أخيرًا جماعة تعتقد بأن الحل هو أن يحصل السود على مقدار كاف من القوة الاقتصادية والمالية، وبدأ آخرون يدعون إلى ضرورة التسرب إلى جميع المجالات الحيوية بما في ذلك المجال الاقتصادي وميدان الإعلام والصحافة والدوائر الحكومية، وخلاصة ما يدعو إليه الجميع هو أن الخلاص يكمن في الحصول على القوة السياسية التي تمكنهم من المساومة والمناورة واستعمال الضغط لتحقيق الهدف.

ويبدو أن المؤتمر القومي للسود قد وضع فعلاً برنامجًا للسبعينات بقصد تنظيم القوة الانتخابية للأمريكان السود واستعمالها للحصول على النفوذ السياسي، وتجدر الإشارة هنا إلى نفوذ اليهود الأمريكان وسيطرتهم على المجالات الحيوية بينما لا يبلغ عددهم سوى ربع من مجموع عدد السكان السود.

ومعنى هذا أن أول مرحلة هي محاولة توحيد كلمة السود وتنظيم قوتهم الانتخابية ليصبح لها وزن في الانتخابات الرئاسية وغيرها للمساومة (كما يفعل اليهود) للحصول على الإصلاحات المرغوبة، لزيادة عدد موظفيهم في الدوائر الحكومية وفي النهاية للوصول إلى المشاركة فيما يتخذ من إجراءات وقرارات حكومية سواء في مجال السياسة الداخلية أو الخارجية.

وقد أشار أحد الزعماء السود في المؤتمر إلى السيطرة الصهيونية فقال: «لننظر إلى اليهود، إن من بينهم الديموقراطي والجمهوري والليبرالي والاشتراكي والمحافظ، ولكن جدول أعمالهم يبدأ دائمًا بنقطة واحدة هي كيف نسيطر، كيف تحيا إسرائيل».

ويبدو أن الصعوبة التي يلاقيها الأمريكان السود هي أنهم حتى الآن لم يجدوا شخصية قوية تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم بل ولم يكونوا منظمة واحدة تنظم مجهوداتهم وتوجهها للمطالبة بحقوقهم أولاً، وجعل مصلحة الرجل الأسود قبل كل شيء، إن عدد المنتخبين السود يبلغ ثمانية ملايين مصوت، فإذا عرفنا أن السناتور همفري خسر الرئاسة لنيكسون في عام 1968 بنصف مليون منتخب فقط، تبدو لنا أهمية ثمانية مليون مصوت ومدى تأثيرها في ترجيح كفة أحد المرشحين إذا توحدت وصوتت ككتلة واحدة.

ولا بد من القول بأن عملية التوحيد هذه تستغرق وقتًا، ونلاحظ حتى بعد توصيات المؤتمر أن الأمريكان السود ما زالوا متفرقين في المعركة الجارية لترشيح الطامحين للرئاسة، إنهم لم يلتفوا حول قضية

أو مرشح معين، ومما زاد في صعوبة توحيدهم تداخل المصالح، وكون بعض الأشخاص الذين يلعبون دور الزعماء ما زالوا تحت سيطرة جهات معينة، خاضعين لمصالح خاصة، ومن ذلك أن أحد الحزبين الجمهوري أو الديموقراطي قد يلجأ لاختيار بعض السود لشغل وظائف معينة أو للمشاركة في مؤتمر الحزب لا لأنهم يمثلون جماهير السكان ولكن للتغطية والمناورة.

وبما أن الاتجاه في المستقبل سيكون كما تقدم المطالبة بالحقوق، لا بالقوة ولكن بالالتجاء إلى النشاط السياسي، فقد بدأ بعض الملاحظين يفكرون بأن الأمريكان السود قد يستقلون عن الحزبين الجمهوري والديموقراطي، إذ أن تجربة الماضي لم تأت بنتيجة، ويلجأون لتكوين حزب جديد.

غير أن هذا الاتجاه لم يثبت حتى الآن ويبدو أنهم ينوون إعطاء فرصة أخرى للحزبين لأخذ مصالح ومطالب السكان السود بعين الاعتبار.

وقد انتهى المؤتمر القومي للسكان السود بالموافقة على برنامج بعنوان «جدول الأعمال القومي للسكان السود»، ذكر في مقدمته أن النظام الأمريكي لا يخدم مصالح الجماهير وأنه لا يمكن أن يأتي بنتيجة ما لم يحصل فيه تغيير جذري، وسيكون في المستقبل تصويت الملايين من السود مع أحد الحزبين مقيدًا بمدى قبوله لهذه التغييرات.

ومن المطالب التي ينص عليها جدول الأعمال الموافقة على أن يكون للأمريكان السود 66 نائبًا و15 سيناتورًا في الكونغرس، ونسب

معينة في الوظائف على جميع المستويات الحكومية، وأن تكون لهم السلطة في مقاطعة واشنطن العاصمة إذ أن عددهم يتجاوز 70٪. غير أن هذه المطالب تبدو في نظر كثير من الأمريكان كأنها مطالب ثورة قامت في القرن السابع أو الثامن عشر للمطالبة بالحرية والمساواة والعدالة.

إن الانتخابات الأمريكية لاختيار رئيس للجمهورية ستقع في شهر نوفمبر القادم، وما علينا إلا أن نراقب مجرى الحوادث وما سيقوم به الأمريكان السود والكيفية التي سيوجهون بها مجهوداتهم في المستقبل، للحكم نهائيًا على ما إذا كان مؤتمرهم القومي الأخير يعتبر ناجحًا ويمثل اتجاهًا جديدًا فعالاً.

ملاحظة: إن الأمريكان السود أنفسهم يستعلمون كلمة «الأمريكان السود» ولذلك لم أستعمل كلمة «الأفرو أمريكان».

10/6/1975

*****

الحلقة الثالثة

عن حياة السود في أمريكا
العبودية وما بعدها

ينفجر سخط السود الأمريكيين وغضبهم من تاريخ غذته قرون من الاضطهاد والوحشية والعبودية، إنه انفجار الطموح السجين والآلام المكبوتة والنفوس القلقة والكرامة المهانة. انفجار وغضب واقعي وشقاء ملموس، نبتت جذوره في تربة الرق والاستبداد منذ أن حملت أول باخرة غربية أول رجل أفريقي إلى شواطىء الولايات المتحدة.

ومن خصائص الأمريكان التفكير في المستقبل والتركيز على ما سيأتي. وإذا كانت هذه الخصال قد أوصلتهم للقمر وما وراءه، فإنهم أبعد ما يكونون عن تفهم مشاكل السود الأميركيين.

يقول الأمريكي الأبيض:

«ما يريد منا السود؟ إن ارتقاء السلم الاجتماعي إنما يكون ببذل مجهودات لماذا لا يفعل السود ذلك؟ إنهم لا يفتأون يتحدثون عن حقوقهم أليس للبيض حقوق أيضًا؟!».

بمثل هذا المنطق يرد معظم الأمريكيين على قلق المواطنين السود المتزايد، وما يزداد هولاء إلا قلقًا وثورة ضد العراقيل والأنظمة التي تحبط مساعيهم وتسد منافذ التقدم في وجوههم.

والواقع يشهد بأن عددًا كبيرًا من السود حاول أن يقتحم الحواجز الاجتماعية لتغيير نظرة المجتمع الأبيض المعادي ، ولكن بدون جدوى.

كان جاكسون دهانًا وكان بحكم مهنته ووضعه وطموحه يرحب بدهن أعلى البنايات وأخطر الأماكن. وكان يعمل بجد وحماس لا نظير لهما ليجمع ثروة ثم يحترف لعبة الجولف.

وذات يوم زلت رجله فسقط من ارتفاع عال، كاد الحادث أن يؤدي بحياته . وبينما هو عائد إلى منزله شعر بألم في أعلى الفخذ ودام ألمه طوال الليل.

كان جاكسون قبل الحادث يتمتع بصحة جيدة، سليم البدن، يتعاطى الرياضة البدنية بانتظام. لذلك توقع الجميع أن يشفى بسهولة. وكان خلال العمل الشاق يتوق ليوم يكرس فيه أوقاته للعبة الجولف ويحيا حياة أفضل.

وبعد مغادرته المستشفى ازدادت حالته سوءًا فنصح بزيارة طبيب نفسي. وقص على الطبيب النفسي قصة حياته وسقوطه وكيف كان يتقبل الأعمال الشاقة ليعوض عما كان يشعر به من إهانة الفقر الذي ذاق مرارته عندما كان يعيش مع أبويه وأخوته في قرية في الجنوب.

كان يرى نفسه مثل الذئب الذي يجابه الصيادين والمطاردين ويصارع العقبات معتقدًا بأن العمل الجدي يأتي بالنتيجة ويبلغ الغاية. وفي نفس الوقت كان يشعر بخوف في أعماق نفسه عندما يتخيل نفسه راجعًا للقرية الصغيرة ينوء تحت أعباء الفشل والخيبة.

ازداد قلق جاكسون فأصبح لا يقدر على النوم. وزاده عجزه

شعورًا بالمرارة، فأصبح يفكر في الانتحار . وظل خلال ذلك يعتمد على ما يقدم له المجتمع من مساعدة مادية.

واتضح مما قصه على الطبيب النفسي، بعد الحادث، مدى ضعف عزمه وقوته النفسية، وسرعان ما تحطم الأساس الذي بنى عليه أحلامه. كان يتوقع الانهزام، ويشعر أنه لا حق له في النجاح لأن ذلك هو مصير بني جنسه. وما الأسباب التي أدت إلى سقوطه والأعراض النفسية التي تلت الحادث إلا نتيجة للوسط الذي عاش فيه جاكسون، وحالة أبائه وأجداده منذ ثلاثة قرون. وهكذا تتجلى هذه المأساة الصغيرة في حياة جاكسون لتعبر عن مصير شعب، وتتضاعف أكثر من عشرين مليون مرة حسب عدد إخوانه في أمريكا.

لمعرفة الحياة اليومية للأمريكي الأسود المعاصر لابد من معرفة تاريخه. وقلما كتب تاريخه بدقة وصراحة ونزاهة. يتجلى ماضي الأمريكي الأسود في مزاجه وأخلاقه وتصرفاته وفي تربية أطفاله وحياته المنزلية ونظرته للزواج وعلاقاته العائلية، وفي خطب الكنائس التي يتعبد فيها، والأحياء التي يسكنها، وفي الغضب الكاسح الذي يسيطر على نفسه من حين لآخر.

راقب حياة رجل أسود في حي «هارلم» تجد أنها لا تكاد تختلف عن حياة أجداده. فمهما اختلفت المظاهر فإن الشعور الداخلي والمرارة النفسية هي كما كانت عليه. والمثال التالي يوضح ذلك.

كانت مجموعة من السود يقفون ثلاثي ورباعي أمام مكتب للعمل المؤقت في يوم بارد. كان بعضهم يتحدث ويقوم بحركات والبعض ساكن يلتفتون بعيونهم يمينًا وشمالاً وعلى وجوههم أمارات القلق.

كانت مشكلتهم الأولى أنهم عاطلون عن العمل. ويعلل البعض ذلك بكونهم غير متعلمين وبأنهم فقدوا القدرة على الانسجام والتكيف أو بأنهم كسالى. وقد يكون ذلك صحيحًا إلى حد ما. ولكن السبب الأول وهو أنهم سود، لذلك لم يحصلوا على عمل مفيد ودائم. فكم من صباح قضوه أمام ذلك المكتب يأملون الحصول على عمل يومي.

وبعد مدة توقفت سيارة شحن فانتبه الجميع. وأخرج رجل أبيض رأسه من الشاحنة محدقًا ومدققًا في الجميع، واحدًا بعد الآخر. ويكاد المرء يقرأ لغة شفتيه وهو يتمتم: «هذا نحيف، ذاك غامق السواد، ذلك يبدو ثقيل الحركة، لعل الشاب الموجود في الخلف أكثرهم كفاءة..» ولا يحتاج المرء إلى مخيلة خصبة ليدرك أن هذا المشهد حلقة في تاريخ تجارة العبيد في أمريكا. فإذا رجعنا للوراء قليلاً في نفق هذا التاريخ يصبح نفس المشهد بيعًا للعبيد بالمزاد العلني. يعتقد صاحب الشاحنة أنه يعطيهم عملاً وكذلك كان أجداده. والأمر من ذلك أن نفسية الأبيض الذي يقوم بالانتقاء وموقفه تجاه السود ونظرته لهم لم تتغير إلا قليلاً.

تثور مدينة أو حي وتتفجر جماعة ضد الظلم ، فتشكل لجان (بمشاركة السود أحيانًا) ويبدأ البحث عن أكباش الفداء. فتوجه التهم للمهرجين والمشاغبين والشيوعيين. وتظل الأسباب الحقيقية بدون علاج. وهكذا بعد ثلاثة مائة عام من الظلم والعبودية، ما زال يسود الاعتقاد بأن الرجل الأسود يحتاج إلى مهرج ومشاغب لإثارته.

لا أعتقد أنه بقي شيء مسجل عن حياة أول أفريقي جلب

لأمريكا. لقد سلطوا على السود كل وحشية وقساوة لتحطيم معنوياتهم. واستمرَّ الحقد والمكر ينهب ويعبث بحياة الرجل الأسود في أمريكا.

ما زالت سياسة العبودية سائدة. فقد رمى الناس رداء الرق، ولكن الشعور النفسي الداخلي ما فتىء كما كان. توقف تعاطي تجارة العبيد منذ أكثر من مائة سنة، ولكن عقولاً كثيرة لم تتحرر بعد.

كون عهد الرق نوعًا خاصًا من الأشخاص، وفرض عليهم الانسجام مع نوع الحياة المفروضة عليهم. إن كون المرء عبدًا معناه الشعور بتجربة نفسية تختلف تمامًا عن تجربة السيد. فالمفروض في الأول أن يحمل شعورًا عميقًا بالنقص أمام الثاني. واتخذ اللون رمزًا لهذا النقص. ثم أوحى له بسلطة وقوة السيد اللامتناهية. فإذا طبقت هذه التعاليم والقوانين على الأمريكان السود طوال ثلاثة قرون فكيف نتوقع زوالها بسرعة.

وعلل الرجل الأبيض مصير الإنسان الأسود في أمريكا بطرق شتى. فقال إن العبيد أطفال في حاجة لحماية أهل الخير. وما زال هذا الرأي سائدًا لدى الكثيرين حتى اليوم. وزعم آخرون بأن الرجل الأسود لا يختلف عن الأبيض إلا في حالتين هما نقص المال ونقص التعليم. ومعنى ذلك أنه يبذر المال ولا يهتم بالتعليم. وهناك وجهات نظر أخرى ترمي إلى تحطيم شخصية الرجل الأسود وإلى تبرير المظالم العديدة والمعاملات الوحشية التي عاناها منذ عهد الرق إلى اليوم.

26/10/1975

*****

الحلقة الرابعة

العبودية وما بعدها

استطاعت المجموعات التي هاجرت إلى الولايات المتحدة أن تحافظ على استمرارية بعض نظمها الاجتماعية وتقاليد وعادات الوطن الذي هاجرت منه. كان «تأمّركُهم جزئيًا تدريجيًا وإراديًا» بل احتفظوا بهوياتهم الأصلية وبعلاقات نفسية وثقافية مع ماضيهم.

فالصينيون مثلاً الذين هاجروا وعملوا في أغلب الأحيان كعبيد، سمح لهم بالاحتفاظ بأنظمتهم العائلية. ومن المجموعات التي عانت الظلم والتعسف أولئك الإيرلانديون والإيطاليون الأوائل الذين هاجروا إلى أمريكا. ولكنهم لم يلصق بهم عار اللون، كما حظوا بحماية الكنيسة.

أما تجربة السود فتختلف تمامًا عن تجربة أي قوم هاجروا إلى أمريكا. بدأت هذه التجربة القاسية ببيعهم كعبيد، وبقطع جذور ماضيهم، وهدم حياتهم العائلية وتحطيم معنوياتهم والقضاء على تراثهم الحضاري، وحتى يومنا هذا نقرأ على وجوههم نوعًا من القلق والعزلة لا يمكن تفسيرهما إلا بالرجوع للماضي.

فكل فئة أو مجموعة في الولايات المتحدة، باستثناء السود، تورث بنيها الاعتزاز بالماضي، أما السود فلا يعرفون شيئًا عن أوطانهم ولا يذكرون شيئًا يحدثون به أبناءَهم، ما عدا العبودية والذل والاستبداد والحقد الذي يضمرونه للرجل الأبيض.

فاليهودي الأمريكي يستغل العوامل الدينية والعنصرية ليحقق التماسك ويساعده في ذلك الافتخار بخلفيته وبسلفه وبنجاحه.

ويقف الرجل الأسود حائرًا منعزلاً، لا ينكر وجود بعض الطقوس المشتركة بين السود، وهي تنتقل من جيل لآخر ولكن ليس بينهم من يعترف بأصالتها.

إذا ليس للسود ماض في أمريكا يلذ لهم الحديث عنه وقد بلغ ببعضهم أن يتنكروا لهذا الماضي المرير لدرجة أنهم ينكرون ما لذلك الماضي من صلة بمشاكلهم الحالية، وكأن الحقيقة أصبحت بغيضة، وكأنهم لا يريدون الاعتراف بضفعهم ولا يعترفون بكون استبداد الرجل الأبيض أفسد مصيرهم.

حكت عجوز سوداء تجاوز عمرها الثمانين، حكت أنها كانت تعيش في قرية في الجنوب، وكان عمرها آنئذ اثنى عشرة سنة عندما جاء رجال بيض وأخذوا طفلاً من القرية بتهمة أنه اعتدى على شرف سيدة بيضاء. وضع الطفل داخل صندوق منتظرًا لحظة الإعدام، وهي ما زالت تذكر بعد مرور سبعين سنة شدة الرعب الذي سيطر على سكان القرية وهم يهمسون: «كيف يشنقون طفلاً لم يبلغ الحلم»، وما زال حقد هذه العجوز نارًا مضطرمة رغم الخوف ورغم مرور السنين.

وهذه قصة امرأة سوداء تقول أنها ولدت سنة 1888 في قرية في أقصى الجنوب من فتاة سوداء ورجل أبيض هو ابن مالك المزرعة.

وعندما كبرت أخبرتها أمها بأنه وقت ميلادها، عندما علمت سيدة المنزل بأن ولدها أصبح أبًا «ولو بطريقة غير شرعية» استدعت الفتاة

الأم وعندما رأت الفتاة أعجبت بها واقترحت على الأم عندما لاحظت بياض بشرة ابنتها، اقترحت أن تتركها لتربى كفتاة بيضاء في منزل سيدة المزرعة، ولكن الأم السوداء رفضت ذلك وفضلت الاحتفاظ بابنتها.

وما زالت هذه المرأة العجوز معجبة بشجاعة أمها وحسن اختيارها، وإن دلت هذه القصة على شيء فإنها تظهر الخيوط الشفافة والفروق الواهنة التي تفصل بين الأجناس وإن برهنت على شي فإنها تبرهن على إمكانية القضاء على هذه الفروق والحدود عن طريق التسامح والتزاوج وغير ذلك.

كثيرًا ما يوجه اللوم والانتقاد لمجموعة الأمريكيين السود لأنهم لم ينجحوا مثل بقية الفئات والأقليات الأخرى في تحصيل العلم وفي الأعمال.

إن مقارنة السود ببقية العناصر التي تشكل الشعب الأمريكي مقارنة فاشلة مجحفة، لأنها تتجاهل الفوارق الكبيرة في الخلفيات ولأنها تتجاهل التاريخ.

لقد اغتصب الأفريقي وجلب قسرًا للولايات المتحدة ووضع حاجزًا نهائيًا بينه وبين ماضيه، اغتصبت منه عائلته ولغته، حرم من أن يظل أفريقيًا، ومنع من أن يصبح أمريكيًا.

لنقارن تراث الرجل الأسود بتراث الرجل الهندي الأمريكي، عرف هذا الأخير شتى أنواع وحشية الرجل الأبيض غير أن تراثه يختلف، فبالرغم من أن الهنود شردوا وقتلوا وغلبوا على أمرهم فإن الذين عاشوا منهم ما زالوا يقصون أخبار تاريخهم المجيد على

أحفادهم. فهم عندما يتذكرون عهود سيادتهم وأمجادهم يشعرون بالعزة والكرامة.

إن كون الشخص ملونًا في أمريكا له معنى أعمق من مجرد الجلوس في مؤخرة الحافلات، فالملون آخر من أن يوظف وأول من يطرد، يسكن الأحياء الوسخة ويشعر أنه أقل أهمية من غيره.

لعل المرأة العجوز محظوظة لعلمها بقصة اختيار أمها عند ميلادها، فهي على الأقل واعية لبعض العوامل المحيطة بظروف اختيار أمها.

وقد أثرت معاملات البيض وتركت انطباعًا عميقًا يوحي للأمريكيين الملونين بمكانتهم «الوضيعة» ويفرض الشعور بالنقص.

فمنذ أن اتخذت قرارات تجعل اللون عاملاً حاسمًا في تجارة الرقيق، بقي ذلك جزءًا من التراث القومي الأمريكي. لقد جاء المهاجرون والمزارعون الأوائل إلى الولايات المتحدة فرارًا من الظلم والاضطهاد وساعدهم الحظ فوجدوا أرضًا طيبة خصبة.

ولم يلبثوا أن بدأوا في استغلال الضعفاء والمعوزين الذين كانوا في البداية من البيض والسود، وفي حالات شاذة من الهنود، واتسع حجم الأراضي المزروعة وانتهى قانون العرض والطلب إلى إخضاع الرجل الأسود وحده لنظام الرق ولخدمة مصالح الرجل الأبيض في أمريكا، تولى هذا الأخير زمام السلطة المطلقة وتغير تصرف ونفسية كل منهما.

إذا ادعى الأوروبي كفالة الرجل الملون ليبرر ما يسلط عليه من وحشية واستغلال، ولكن لم يكن جميع الأمريكيين يملكون عبيدًا، وحتى

وقت قريب كان المجتمع الأمريكي يتكون من مزارعين، وكان المزارع الأمريكي يستعمل جميع ما لديه من وسائل ليخدم مزارعه الواسعة ولا ينتقد جاره الذي يملك عبيدًا.

ولم يكن الأمريكيون الأوائل يخضعون لعادات وقوانين محددة إذ أنهم لم يكونوا مستعمرة مثل البرازيل مثلاً التي كانت تخضع لقوانين دولة أوروبية، ولم يكن آنئذ في أمريكا رجال دين أقوياء يؤكدون للناس مبادئ المساواة وحقوق العبيد، يضاف لذلك حالة اقتصاد بدأ ينمو ويتسع وأناس طامحون لزيادة الإنتاج وتوسيع الأسواق.

وساد البلاد شعور غريب بخصوص تجارة العبيد الذين لم يكونوا يعانون من تعاسة الاستغلال فحسب، بل أصبحوا يعتبرون نوعًا من المخلوقات أقل من بني الإنسان.

ولم يتغير موقف الشعب الأمريكي في النصف الثاني من القرن العشرين إلا قليلاً، لقد مر وقت طويل منذ تجارة العبيد، والغريب أن عددًا كبيرًا من البيض أصبح يشعر ويشكو من مضايقة السود ويصفهم بالوحشية، فهل يمكن وهل يعقل أن يتغلب الأفروأمريكانيون على مضطهديهم، ويتخذونهم عبيدًا؟! أم ذلك من قبيل المناورات لتبرير ما يسن من قوانين مجحفة بحقوق السود؟ لقد روجت نظريات «علمية» مزيفة تقول بتفوق بعض الأجناس، كما نشرت دعايات تخوف الأمريكيين من (همجية) السود لتبرير الهجومات ضد السود الأحرار، وهكذا يولد الطفل الأمريكي في وسط حضارة تتضمن كراهية السود واحتقارهم كجزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي.

9/11/1975

*****

الحلقة الخامسة

العبودية وما بعدها

خلقت الأمريكية السوداء في ظروف لم تولها قدرًا من التقدير والاحترام. فقد كانت وما زالت ينظر إليها كأداة رخيصة للعملية الجنسية ولإشباع نزوات الرجل. وظلت قيمتها، من الناحية التاريخية، مرتبطة بما تنتجه من عبيد وبمقدار ما تقدم من خدمات.

إن المرأة السوداء في أمريكا مهانة حتى من بني جنسها. انسدت المجالات أمامها، فلا ترى إلا مستقبلاً مخيفًا، يستحيل فيه تحقيق دورها كامرأة ناضجة محترمة سليمة الفكر والبدن.

وإذا رجعنا إلى عالم الجنس اللطيف نجد أن إعجاب المرأة ومحبتها لنفسها أمر ضروري لاستمرار حيويتها ونمو قوتها العاطفية. كما نلاحظ أن المرأة ترغب في أن تصبح جديرة باهتمام الرجل وإعجابه قبل أن ترحب بحبه.

ولكن كيف يهيئ هذا الجو المناسب وهذه التربة الصالحة لإنشاء وتربية فتاة تثق بنفسها وتقبل على الحياة وتعجب بالناس؟

لابد أولاً من الارتباط والتعاطف الودي بين الطفلة وأمها. ولابد أن تحظى الطفلة بعطف وتقدير أبيها وعائلتها وأن تشعر بأنها محبوبة لدى المجموعة الكبرى التي تعيش في وسطها. في ظلال هذه الظروف الحسنة تنشأ الفتاة معززة ويهيأ لها المسرح لتصبح امرأة واثقة من

نفسها مستعدة للدخول في علاقات ودية وعائلية بكل حماس، وتنشر نفس الروح والعطف والثقة والحرارة والمودة في حياة شريكها وأولادها.

وعلى ضوء هذا، ما هي حالة الأم السوداء في أمريكا؟ وما هي حياة تلك الطفلة التي ستصبح أمًّا؟

الجواب أنه لا قيمة للأم، إنها تشعر بأن المجتمع كله يستهزئ بها. وتولد طفلتها فتجد نفسها مرتبطة بهذه الأم التي أهين قدرها، الأم «المخطئة المقصرة الجاهلة السوداء». تلك لا ريب قسمة ضيزى.

إن مقدار ما من محبة الذات مفيد. وهو في نهاية الأمر ينبع من جمال نفسي وجسدي. وقد ذكرنا أن الجمال النفسي يقضى عليه في المهد. أما الجمال الجسدي فإنه يحدد بمقاييس يختارها كل مجتمع وكذلك بمعايير شاملة. فما هي مقاييس الجمال في أمريكا؟ وهل هي لصالح المرأة السوداء؟

الفتاة الجميلة هي تلك الشقراء النحيفة ذات العيون الزرقاء والشعر الناعم والبشرة البيضاء. وقد عملت وسائل الإعلام على نشر هذه «الصورة المثلى» ولم تدع مجالاً للخروج عنه.

وتنفق النساء أموالاً طائلة ومجهودات لتتقرب من هذا المثل. أما المرأة السوداء في أمريكا فلا اختيار لها ولا قدرة لها ولا حيلة في تقليد تلك الصورة. بشرتها سوداء، وشعرها قصير مجعد وشفاهها ثخينة وهي عادة سمينة وكل ذلك عكس «الجمال الأمريكي». وعندما يبلغ سوء حظ الفتاة أنه، بالإضافة لقلة جاذبيتها حسب المقاييس المحلية، تعاني من ظروف عائلية واجتماعية سيئة، فإن كل ذلك يجعلها

تنمو شاعرة بالنقص والإهانة والسخط والقلق النفسي مما يؤثر على خلقها وتصرفاتها.

وهكذا تملي عليهن مقاييس الجمال من طرف مجتمع يسعى لمسخ شخصيتهن واستغلالهن اليوم وبطرق شتى كما فعل في عهد الرق.

وتطمح وسائل الإعلام الموجهة لإقناعهن بأن الجمال هو عكس ما هن عليه. ويوجه هذه الوسائل من أفلام ومجلات وجرائد تجار ماهرون ومحترفون لا يهمهم سوى بيع مستحضرات وأدوات التجميل.

وضع المجتمع الأمريكي المرأة السوداء في موقف حرج يصعب عليها أن تتخلص منه. وما هفواتها وتصرفاتها وتعاستها إلا مظهر للأعباء والمشاكل التي تحز في أعماق نفسها. فبقدر ما نتعمق في دراسة واقعها وتفهم نفسيتها بقدر ما يظهر لنا عمق مأساتها.

فإذا أردنا مثالاً من الحياة الواقعية اليومية فلنراقب فتاة عمرها ثمانية وعشرون سنة ولكنها تبدو متوسطة العمر. أنها بدينة نوعًا ما وتلبس شعرًا اصطناعيًا. تعيش مع أولادها في شقة وسخة بصحبة الفئران. عادة ليس لأولادها أب شرعي.

تعتمد في قوتها على مساعدة رمزية تقدمها لها الحكومة وغالبًا ما يصرف المبلغ الزهيد حوالي منتصف الشهر، فتحصل على مساعدة من أمها أو قريب لها.

ومما يزيد في ضيق عيشها أنها تعيش مع رجل عاطل عن العمل، سرعان ما يختفي عندما يلاحظ أن نقودها قد نضبت.. ليعود في أول الشهر.

ويمكن أن نسهب في تصوير حياة هذه الفتاة وعن علاقاتها الفاشلة وصدماتها النفسية، غير أن ما سبقت الإشارة إليه مما يرجع لإهانة المجتمع ومظالمه واستغلاله لها عبر التاريخ لكونها فتاة سوداء يتجاوز جميع العوامل والعلاقات الفردية والعائلية.

هذه قصة مئات آلاف الفتيات السود عبر الولايات المتحدة.

بدأت مشاكلها منذ قرون ، أخمد طموحها منذ وقت مبكر. ولكن وراء وداعتها يكمن غضب شديد. نشأت في الخوف وأجبرت على الخنوع، عندما شاهدت منذ فجر حياتها أن أمها وجميع السود معرضين لنزوات الرجل الأبيض.

تواجه هذه الفتاة ما تتعرض له من متاعب بأنواع الدفاع المعروفة لدى علماء النفس. والوسائل التي تستعملها لكبت غضبها ذات علاقة مباشرة بالحرب الخامدة والحقد المضطرم الذي نلاحظه بين السيد والمسود.

إن جروح الأمريكي الأسود عميقة وجروح شقيقته أعمق. ولكن كفاحهم لم ينته. تتجلى عبقريتهم في كونهم ما زالوا على قيد البقاء، وما زالوا يأبون الظلم ويثورون ضد الطغيان. لقد اكتسبوا خلال القرون قدرة على التكيف مع الحياة القاسية. نلاحظ ذلك في خطبهم الدينية وفي أناشيدهم الشعبية وفي موسيقاهم.

لقد شوهت شخصيتهم الأصلية ولكن من خلال التشويه ظهرت عظمة أثبتت قوانين بقاء الأصلح.

23/11/1975

*****

الحلقة السادسة

العبودية وما بعدها

في عام 1619 جلبت باخرة هولاندية عشرين رجلاً أفريقيًا إلى مدينة «جيمزتاون» في ولاية فيرجينيا. جلبوا كعمال يخلي سبيلهم بعد عدد من السنوات. وما أن حل عام 1670 حتى كانت ولاية فيرجينيا قد رخصت نظام الرق.

لم يأت السود إلى أمريكا برضاهم ليختاروا حياة جديدة. لم تكن لهم أحلام وآمال الأوربيين عندما وصلوا إلى سواحل العالم الجديد، ولم يطأوا أرض أمريكا بأنفس بهيجة متشوقين إلى التمتع بخيراتها. لم يرحلوا إلى أمريكا بحثًا عن الغنى والحرية بل سيقوا إليها بقلوب دامية وإهانة لا مثيل لها. وكانت أول معاملة لاقوها من أشخاص يدعون بأنهم من أتباع المسيح تعبيرًا واضحًا عن مدى طغيان وجشع الأمريكيين البيض. ولم تنته مصائب الجيل الأول من السود بموتهم بل ورثت الأجيال التي تلتهم أغلالهم.

وثار الرجل الأسود، كما يثور الذين غلبوا على أمرهم، فانتهز جميع الفرص واستعمل مختلف وسائل النضال. فلجأ أحيانًا للخطابة والكتابة وطورًا للثورة فخلد تجاربه في نثره وأناشيده وخطبه ورسائله وأشعاره وقصصه الشعبية.

وعندما شعر حماة نظام الرق البغيض بعواقبه السيئة وشروره

المتزايدة وجهوا اللوم إلى بريطانيا وقالوا أنهم إنما ورثوا هذا النظام عنها وأنهم يرغبون في التخلص منه «لو استطاعوا».

وسرعان ما اختبرت الأيام دعواهم عندما تخلصوا من الحكم البريطاني وأصبحت الولايات المتحدة تتمتع بسيادتها. كانت وثيقة إعلان الاستقلال عملاً جليلاً، احتوت مشاعر وآراء ومبادئ إنسانية. ولكن ماذا استفاد الرجل الأسود في أمريكا؟ وهل تغير وضعه بعد الاستقلال؟

وأريقت دماء كثيرة (في سنوات 1861 - 1865) عندما اشتبك الشمال والجنوب والبيض والسود في حرب أهلية. وقاتل الرجل الأسود لأنه كان يعتقد أن مصيره مرهون بنتيجة الحرب. وفي سنة 1865، عندما انتهت الحرب ظن الرجل الأسود بأن فجر الحرية قد طلع، ولكن سرعان ما خاب ظنه.

ووفق على التعديل الثالث عشر للدستور. وكان هذا التعديل يقضي بمنع الرق. ولكن ذلك لم يغير من واقع الأمور شيئًا كثيرًا. وظهرت منظمات تهدف إلى نشر الرعب والفوضى وتهدف إلى اضطهاد السود مثل منظمة «فرسان الكاميلية البيضاء»، وجمعية «الكوكلوكس» (Kuklux KLAN)، وجمعية القصمان الحمراء.

وظل الرجل الأسود يشك في صلاحية المجتمع الأمريكي وفي أهدافه، وبدأ يتساءل من جديد عن خير وسيلة للتحرر. وظهر في القرنين التاسع عشر والعشرين من ينادي بوجوب فصل السود الأمريكيين تحت إدارة خاصة تمكنهم من تسيير شؤونهم بأنفسهم.

وظهر من يميل إلى دمج العنصرين وتجديد الثقة بينهما مثل مارتن لوثر كينغ ومن يدعو «للقوة السوداء» مثل ستوكلي كارل مايكل.

ولم يكن الأمريكي، خلال كل ذلك يكافح من أجل الوصول للقمر، بل لم يكن هدفه أكثر من تحقيق العدالة الاجتماعية والتمتع بالحقوق التي اعترف له بها الدستور. وما زالت الحقوق الأساسية للسود، تلك الحقوق التي تحدث عنها لينكولن وكندي، ما زالت موضع الرفض والازدراء، وما زال السود يعانون من الضغوط الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

وقد يتساءل الإنسان «لماذا كل هذا التمييز العنصري في الولايات المتحدة؟ ولماذا هو في الجنوب أكثر منه في الشمال؟ ولماذا هو موجود في أمريكا أكثر من كندا مثلاً؟ يوجد عدد كبير من السود في كندا. وقد ثبت أن الرجل الأبيض في ولاية المسيسبي يحمل كرهًا أعمق تجاه الأمريكي الأسود من زميله الكندي.

لا ريب أن العامل الأساسي في وجود التمييز العنصري، وفي وجوده بمقادير أكبر في بلاد دون أخرى، يرجع للتربية وللنظام الاجتماعي الذي يقوي ويغذي العوامل الثقافية والنفسية المؤدية للتمييز العنصري. إنها طريقة للحياة ومواقف أخلاقية يتعلمها الطفل وينشأ عليها، تحت أنواع من الإغراءات والضغوط الاجتماعية.

لقد بلغت مشاعر التمييز العنصري لدى جنوب الولايات المتحدة درجة لم تقف في طريقها العوامل الدينية ولا الأخلاقية ولا الوطنية ولا علاقات القرابة في معظم الأحيان.

ولسنا هنا بصدد إصدار حكم شامل على جميع الأمريكيين في جنوب الولايات المتحدة بأنهم أشرار، ولا على سكان الشمال بأنهم أخيار. فهي مواقف وعواطف يبالغ فيها في منطقة، عندما يعتقد أنها تخدم مصالح مجموعة معينة. وتجدر الإشارة إلى أنه بجانب الجو الجماعي المتطرف الذي.. يحرض على احتقار الأمريكيين السود وسوء معاملتهم، قد توجد أحيانًا عوامل نفسية فردية تدفع الأمريكي الأبيض للابتعاد أو الاحتراس من المواطن الأسود. وقد تحدثت مرة إلى أمريكي كان من البيض المحظوظين والمثقفين، فأبدى كثيرًا من النضج وحرية التفكير في مواضيع عديدة ما عدا مسألة الفروق الموجودة بينه وبين الأمريكي الأسود.

منذ أن يبدأ الطفل في إدراك المحيط يوحي إليه باستمرار بأن النجاح يكمن في تقليد الرجل الأبيض الذي يعتبر مثالاً للحكمة وحسن التصرف. وكان المجتمع يوحي للواحد بأنه ذكي، والثالث بأنه أقل، وللآخر بأنه سيد، وتجري سموم الدعاية فتحطم قوى الإبداع الكامنة في طفل وتنعشها في طفل آخر. وهكذا يعاقب المجتمع طفلاً فيحكم عليه بعدم صلاحيته للحياة ويحن على طفل آخر فيؤهله للنجاح.

وتلعب الديانة دورًا مهمًا في الحياة النفسية لدى السود الأمريكيين والواقع أن معظم الديانات توصي بالتوجه إلى خالق أعلى أو قوة سامية، بالتفكير في اليوم الآخر وباتباع عدد من الوصايا والمبادئ التي تقود للسعادة.

فالديانة المسيحية تحرض على الإحسان وعمل البر وعلى العدل والتواضع ومحبة الجميع وكبت العواطف الضارة، وتعلم بأن المخلوقات

ضعيفة مجبولة على الخطأ، وتذكر الإنسان بذنبه وبالحساب والعقاب والجزاء.. إلخ.

وبما أن الأمريكيين السود ترعرعوا في جو حكم عليهم منذ البداية بأنهم أشرار مخطئون فإنهم يضطرون، حسب تعاليم الكنيسة للاعتراف بأخطائهم وذنوبهم لكي ينعموا بالبركة والغفران، ولكن مطالبة الكنيسة لهم بالاعتراف إنما يؤكد شعورهم بالإثم والخطأ الذي اتهمهم به المجتمع.

بالإضافة لذلك نجد أن الأخطاء التي يطالبون بالاعتراف بها هي من صنع الرجل الأبيض في أمريكا ووفقًا لتقاليده وثقافته وتمييزه العنصري. فالأمريكي الأسود يتهم بالسرقة والاعتداء والمشاغبة والقمار والسكر، وتكتسي هذه النشاطات صبغة خاصة لدى السلطات فيستغلونها «لتهدئة السود» كما تكتسي أهمية خاصة لدى الكنيسة فتوجه طاقاتها لمحاربتها والتشنيع بها.

يمكن القول إذًا بأن نظام التمييز العنصري في أمريكا هو نتيجة شنيعة أساسية مرسومة، تؤمن بتفوق الأمريكي الأبيض وتهدف لخنق المواطن الأسود. لقد بلغ من اضطهاد السود في الولايات المتحدة أنهم أصبحوا يكرهون أنفسهم وأحيانًا يظهرون بغير مظهرهم. أرهق الخوف والضغط بعضهم فتحولوا إلى انتهازيين يصفقون مع الأقوى ويهتفون للمنتصر.

14/12/1975

*****

القســم الرابع

أضواء على المشاكل الدولية

البحر الأبيض المتوسط ومشكلة التلوث

إن البحر الأبيض المتوسط مهد حضارات قديمة، وليس تاريخ تلوثه بجديد، فمنذ عهد الفينيقيين والرومان بدأت صناعات النحاس والحديد والقصدير في روما وقبرص وآسيا الصغرى... إلخ.

أما اليوم، في عصر التسابق نحو التصنيع وتضاعف عدد السكان، فإن تلوث الجو والأرض والبحار قد بلغ درجة أثرت على التوازن الطبيعي بين الحياة في جميع أنواعها وبين المحيط الذي توجد وتنمو فيه.

ويخشى كثير من الخبراء بأن البحر المتوسط قد بدأ يقترب من الموت. ويصفه العلماء بأنه أصبح مثل المعتل الذي يخبره الطبيب بأن «مدة حياته محدودة ما لم تتخذ الدول المجاورة تدابير وقائية قوية وعاجلة للحد من مصادر التلوث».

وقد أصبح الوضع خطيرًا في المناطق الشمالية والغربية من البحر المتوسط حيث أغلقت سلطات الصحة العمومية بعض مناطق السياحة، وبدأت كميات الأسماك المستخرجة تتناقص، وأنواع من النباتات البحرية تموت. وحيث نشاهد لطخات نفطية تلوث الشواطيء. ويؤكد أحد الخبراء بأنه من بين الخمسة آلاف صنف من أنواع الحيوانات التي تسكن خليج نابولي (إيطاليا) مائة صنف قد

اختفت نهائيًا من مناطقها المعهودة. ويؤكد العالم الفرنسي «جاك كوستو» بأنه عندما كان ينزل للبحر قبل خمسة وعشرين سنة كان المتوسط مليئًا بالحياة، أما الآن فقد تناقصت طاقته الحيوية بما لا يقل على ثلاثين بالمائة. ويتنبأ العالم السويسري «بيكار» بأن معالم الحياة في البحر الأبيض المتوسط ستزول في نهاية القرن العشرين ما لم تستطع المجتمعات المجاورة إيقاف التلوث. وفي العام الماضي شاركت عالمة سوفياتية مع بعثة فرنسية لاختبار البحر المتوسط؛. وكان جوابها عندما سئلت عن أجمل منظر شاهدته في البحر قالت: «إن أروع منظر شاهدته في أعماق المتوسط هو العلب والصناديق والنفايات، ومختلف القطع التي يرميها الإنسان»!!

ويبدو البحر الأبيض المتوسط كبحيرة إذ أنه لا يتمتع إلا بمنفذ واحد مهم نحو المحيط الأطلسي وهو مضيق جبل طارق، إن ما يجعل البحر حيًا هو كميات الأكسجين الموجودة في مياهه، ولكن من سوء حظ المتوسط أن المناطق التي تزوده برياح باردة منعشة عبر القارة الأوربية مثل منطقة الأدرياتيك وبحر إيجي أصبحت مناطق صناعية تلوث الرياح الواردة نحو البحر .

والمناطق الشمالية والغربية من المتوسط مكتظة بالسكان والصناعات مما ينتج عنه كميات كبيرة من التلوثات المختلفة التي تنتهي إلى البحر، ولا شك في أن بعض النفايات وملوثات المصانع وأوساخها تسمم نباتات وحيوانات البحر، والأسماك الموجودة بقربها، وملوثات أخرى مثل النفط الذي ترميه السفن في البحر يفسد كميات

كبيرة من الأوكسجين الموجود في البحر لدرجة تجعل مصير النباتات والأسماك التي تنافسها على الهواء الاختناق. وتقدر كميات النفط التي أفرغتها السفن، شاحنات النفط، بسبب تنظيفها، في المتوسط والمرافئ، تقدر بحوالي ثلاثمائة ألف طن.

وبالإضافة لذلك فإن النفط الذي يلوث البحر يسبب ضررًا كبيرًا للشواطئ والحياة الموجودة على السواحل كما يقتل الطيور البحرية. وبالإضافة لدول المناطق الشمالية فإن دولاً أخرى تعاني من تلوث شواطئها مثل لبنان وسوريا ومالطا، وهناك نوع آخر من الأخطار يكمن في كون بعض الملوثات تشجع نمو نوع خاص من النباتات أو الحيوانات الذي ينتشر ويتغلب على ما حوله.

ومن الملوثات مثل (ددت) ومواد كيمياوية أخرى ما ينتقل لجسم الإنسان عن طريق الأسماك. وقد تتزايد كمياتها حتى يصبح السمك خطرًا على الصحة. وتتمتع بعض أصناف الحياة البحرية بالقدرة على خزن وتحمل هذه المواد السامة الملوثة لمدة طويلة، غير أن هذه الأصناف تصبح خطرًا على حياة أنواع أخرى من الأسماك التي تقتات عليها ولكن لا تتمتع بقوة تحمل المواد السامة المختزنة في غذائها.

وبالإضافة لذلك فإن الأنهار الكبيرة التي تصب في المتوسط تشبه البلوعات التي تنقل مزيدًا من الملوثات للمتوسط وشواطئه. إن إيطاليا وحدها تعد أكثر من أربعة عشر مليونًا من السكان على السواحل، يقول العالم «جافكولو» الإيطالي واصفًا حالة شواطئ بلاده: «لقد أصبح سبعون بالمئة من شواطئنا ملوثًا وخمسة عشر بالمائة

مسممًا». إن حوالي سبعين مؤسسة صناعية تفرغ نفاياتها في بحيرة اللاغون في فنيسيا، تلك البحيرة التي طالما تبارى الفنانون مثل تورنر وكناليتو في رسمها.

ويصف كثير من الخبراء البحر الأبيض المتوسط بأنه مريض يتنفس بصعوبة وأن الدواء في يد الزعماء والسياسيين، ولابد أن يتفقوا على العلاج قبل فوات الأوان. وبما أن النشاط الصناعي يزداد انتشارًا والدول تتسابق في مجال النمو الاقتصادي، مما يزيد في كميات الملوثات التي تنساب نحو البحر دون انقطاع، فإنه لابد للتكنولوجية الحديثة أن تلعب دورها في إيجاد الوسائل الفعالة لتحويل الملوثات والنفايات إلى مواد كيماوية غير ضارة.

ولا ريب أن الحلول تتوقف من ناحية أخرى على مدى نجاح العلماء في وضع برامج صالحة وفعالة لمحاربة التلوث وعلى مدى تقبل الحكومات المجاورة لحوض المتوسط لهذه البرامج .

وقد شاركت منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في دراسات لوضع برنامج لمحاربة التلوث، وقد قُدّم هذا البرنامج إلى دول البحر المتوسط، كما أن دراسات وبحوثًا أخرى قد نظمت تحت إشراف الخبير نورتن كانسبيرق، وستقدم نتائج هذه البحوث لندوة تجمع عددًا من العلماء في شهر إبريل الجاري، وسيعقد اجتماع آخر لعدد من العلماء ورجال السياسة والصناعة في مالطة في شهر جوان القادم ليطلع على ما توصل إليه في هذه الندوة ولاتخاذ إجراءات أخرى وتبادل الآراء والاقتراحات .

وتوافق معظم الدول حتى الآن على ضرورة اتباع سياسة مشتركة للمحافظة على مصادر الثروة المشتركة بين عدة دول والعمل على تطويرها.

والنقطة التي ينطلق منها العلماء هي أملهم في وضع مجموعة من القواعد والأنظمة تمكن من اكتشاف مصادر التلوث الجديدة ومراقبتها، وكذلك تساعد على التقليل من التلوث الموجود بواسطة تشريعات ونشاطات الدول المشاركة، ويمكن للمنظمات الدولية أن تلعب دورًا مهمّا في هذا المجال بإنشاء لجان مراقبة فى الأماكن المناسبة.

ولكن دول البحر المتوسط ليست على درجة متساوية من التطور والتصنيع، ولذلك فليس من السهل أن تتوصل إلى اتفاق شامل بخصوص مراقبة التلوث والحد من مضاره . إن دول شمال وغرب المتوسط هم الذين لعبوا دورًا كبيرًا في تلويث البحر حتى الآن وذلك لأن مستوى إنتاجهم الصناعي وعدد مصانعهم أكثر انتشارًا من دول جنوب وشرق المتوسط، ومن الطبيعي أن يقود هذا إلى وجهتي نظر مختلفة ترى الأولى ضرورة العمل على مراقبة التلوث والتقليل من مسبباته وتدعو الأخرى إلى ضرورة مواصلة تصنيع بلادها لبناء اقتصاد وطني مستقل.

ويوجد هذا الاختلاف في الرأي حول مشكلة محاربة التلوث ليس فقط على مستوى دولي بل أيضًا على المستوى الوطني في البلاد الصناعية، ففي الولايات المتحدة مثلاً نجد جماعات الصناعات والإنتاج يقولون بأنه يكفي أن لا يخلق التلوث ضررًا أكثر مما هو

مقبول في ظروف معينة، ومعنى هذا أن الصناعة ستستمر في الإنتاج إلى أن تصبح درجة تلوث الهواء والبحر والأرض غير محتملة. بينما يدعو السكان الموجودون قرب المناطق الصناعية وفي المدن الكبرى إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة بإنقاص كميات التلوث ولو أدى ذلك إلى الحد من نشاط المصانع.

إن الازدياد الكبير في مقادير أنواع الطاقة التي يستهلكها الإنسان في مختلف الاستعمالات دليل على مدى التغيير الذى حدث في نشاط الإنسان وإنتاجه وأعماله، بلغ مقدار ما استهلكته الولايات المتحدة من الطاقة خلال عام 1970 ما يعادل احتراق مليارين ونصف مليار طن من الفحم، وبلغ مجموع استهلاك العالم سبع مليارات ونصف مليار طن.

وتتضاعف مطالب الناس المادية مع مرور الزمان وازدياد سكان العالم وانتشار التقدم ، ويقول الخبراء بأنه في الثلاثين سنة القادمة سيشارك الإنسان بإضافة ضعف كمية النتروجين المحددة في الهواء، وأن الإنسان الآن يضيف إلى الأرض والبحار كميات من السلفور أكبر مما تستعمله الكرة الأرضية في مجراها الطبيعي المتعلق بإنبات الأشجار والحشائش وزوالها.

وبما أن نتائج تلوث الأجواء والبحار والأنهار الدولية لا تقتصر على الحدود الوطنية للدولة الملوثة فقد أصبحت المشكلة تهم جميع الدول، ومن الطبيعي أن تلعب التنمية الاقتصادية والسياسية دورًا في ما يقدم من حلول واقتراحات لمعالجة قضية التلوث.

ولكن المنطق والواقع يقضيان بأن الدول الصناعية هي المسؤولة الأولى على أخطار التلوث ونتائجه، ولهذا يجب عليها أن تسارع إلى اتخاذ الوسائل اللازمة الكفيلة بتقليل كميات التلوث والملوثات الصناعية، سواء كان ذلك في منطقة البحر المتوسط أو غيرها.

أما الدول النامية التي لا زالت تكافح لبناء اقتصادها فلا يمكنها أن توافق على أنواع القيود التي قد تنتج عن المحادثات الدولية سواء في الأمم المتحدة أو استوكهولم أو غير ذلك.

11/04/72

*****

سياسة البحار
من المشاكل الدولية الجديرة بالاهتمام

تمثل البحار والمحيطات المخازن الأخيرة لثروات الكرة الأرضية، وقد ازداد اهتمام الدول في السنوات الأخيرة بقضية البحار والمحيطات، ومما أوجد هذا الاهتمام التقدم التكنولوجي الذي سهل اكتشاف أعماق البحار، وأدى إلى اختراع الوسائل التي تمكن من استغلالها.

لا شك أن الدول اهتمت بالبحار منذ القديم لعدة أسباب منها: أهميتها الاستراتيجية. وقد ضاعفت الاعتبارات العسكرية حديثًا من أهمية المحيطات إذ أصبحت الغواصات البحرية قادرة على تحطيم مدن تبعد آلاف الأميال. غير أن الناحية التي تهمنا في هذا المقال هي الناحية الاقتصادية والقانونية، وبعبارة أخرى يمكننا منذ البداية أن نتساءل: كيف يمكن للدول أن تستغل خيرات البحار؟ وإلى أي حدود يمكن لدولة ما أن تواصل الاستغلال؟ وهل هناك أنظمة وقوانين دولية تعين الحدود وتحدد الأعماق وتنظم الاستغلال وتحل المشاكل الأخرى؟

إن عدد سكان العالم يتزايد وهذا طبعًا يجعل الدول تفكر في استغلال مناطق جديدة لتوفير الحاجات، ولا ريب أن أعماق البحار مهمة لما يوجد في باطنها من ثروات منجمية: من نفط، منغنيز، كوبلت، فوسفات... إلخ. وتدل الإحصاءات أن ستة عشر بالمائة (16٪) من

إنتاج النفط العالمي الحالي، يستخرج من البحار. وستصل النسبة الثلث في عام 1980. وأغنى المناطق البحرية بالنفط هي تلك التي تعتبر امتدادًا للأراضي المجاورة، إذ أنه أصبح من المعروف أن النفط لا يوجد في الأعماق البعيدة جدًا عن سطح الأرض. ونلاحظ ازدياد عدد الدول التي تسعى لإيجاد النفط في المناطق البحرية المجاورة لها بغية الاستقلال بقدر الإمكان عن سوق النفط الدولية، وتكوين ثروة محلية.

وفي عام 1967 بدأت الدول النامية تنتبه، بصفة واضحة وجماعية، إلى خطر استمرار استغلال ثروات أعماق البحار من طرف الدول الكبيرة. وقدم مشروع لهيئة الأمم المتحدة يدعو إلى اعتبار مناطق أعماق البحار غير تابعة لسلطة أية حكومة، وإلى اعتبار ثرواتها ملكًا للإنسانية جمعاء، وإلى منع استعمال الأعماق للأغراض الحربية. وكونت لجنة خاصة بالمحيطات، تابعة للأمم المتحدة، لدراسة المشكلة، ووافقت على أن هذه الثروات الموجودة وراء الحدود الإقليمية المعينة، تعتبر ملكًا لجميع الدول.

لقد بقي الوضع القانوني للبحار حتى الحرب العالمية الثانية مستقرًا طيلة ثلاثمائة عام. وظلت معظم الدول مقتنعة بالنظام الذي يحدد المياه الإقليمية بمسافة ثلاثة أميال طولاً، ابتداء من الشاطيء.

وفي سنة 1945 أصدر الرئيس الأمريكي ترومان بيانًا مفاده، أن سلطات الولايات المتحدة على الثروات البحرية تمتد داخل المحيط إلى منطقة عمقها مائتى متر. ولا بد أن نلاحظ قبل مواصلة الحديث أن «عمق 200 متر» قد يأتي على بعد عشرة أميال أو مائة ميل من

الشاطيء، حسب التكوين الجيولوجي للمناطق التي تغطيها المياه. وصدر مرسوم آخر في عام 1953 يجعل حقوق الاستغلال هذه تمتد إلى مسافة غير محدودة من أعماق المحيطات.

ثم جاء تصريح «سانت ياغو» (شيلي) عام 1952 أوضحت فيه الدول الثلاث شيلي والبيرو والأكوادور بأن حقوق بلادهم على سطح المحيط وعمقه تمتد إلى مسافة طولها مائتي ميل (وليس مترًا لأننا نتحدث هنا طولاً وليس عمقًا) من الشاطيء؛ ومن الواضح أن هذا الإجراء جاء نتيجة لتصريح ترومان. وبدأت بعد ذلك عملية حجز البواخر الأجنبية (أمريكية عادة) التي تصطاد السمك ضمن المسافة المحددة.

وقد نتج عن مؤتمر قانون البحار الذي انعقد في جنيف عام 1958 أربع اتفاقات دولية ، صنفت بعض القوانين الدولية الموجودة، ووضعت فكرة «مسافة الاثنتي عشر ميلاً» التي تتمتع فيها كل دولة بحرية بحقوق خاصة في المناطق المجاورة لسواحلها. غير أن هذا المؤتمر فشل في تحديد منطقة المياه الإقليمية بصفة نهائية. وبينما وافق المشتركون على مبدأ سلطة كل دولة بحرية على ثروات المناطق المتاخمة لشواطئها، لم يحصل بينهم إجماع على تحديد عمق هذه المناطق.

واستمر التقدم التكنولوجي فوسع في إمكانيات اسغلال مناجم توجد على مسافات أعمق في المحيطات وشجع الشركات البترولية على المزيد من التنقيب، فراحت تساند بحماس نظرية ترومان المشار إليها والتي تنادي بتوسيع مناطق الاستغلال في أعماق البحار إلى أبعد

حدود ممكنة. غير أنه في نفس الوقت ازداد عدد الدول جنوب أمريكا المنادين بفكرة المحافظة على ثرواتهم البحرية ومبدأ المائتي ميل للمياه الإقليمية. وتلت بعض الدول مثل الهند وباكستان وسيلان وغانا فحددت مائة ميل لنفس الغاية.

وقد حدث خلاف ضمن الحكومة الأمريكية فساندت وزارة الدفاع فكرة تضييق حقوق الدول البحرية بتحديد سلطتها على المياه المجاورة، لأن ذلك في مصلحة أمريكا الاستراتيجية، إذ يعطيها حرية أكبر في التنقل والمراقبة، بينما دعت وزارة الداخلية الأمريكية ووزارة التجارة، والمصالح البترولية إلى توسيع المساحة للمحافظة على الثروات الموجودة قرب الشواطيء الأمريكية على المحيطين.

وأوضح نيكسن سياسة بلاده في بيان طويل في شهر ماي 1970 بخصوص هذه المسألة ثم صيغ بيانه في شكل اقتراحات بقصد استعمالها كمذكرة أمريكية خلال اجتماع لجنة الأمم المتحدة لأعماق البحار. تتضمن المذكرة دعوة إلى التخلي عن المطالبة بالسلطة على الثروات البحرية في المناطق البحرية، التي يزيد عمقها على مائتي متر ووصفت هذه الثروات بأنها «ميراث الإنسانية المشترك» كما دعت إلى تكوين حماية دولية على الأعماق البحرية التي تتجاوز مائتي متر بقصد تنظيم استغلالها للصالح العام.

وفي نفس الوقت وافقت واشنطن على امتداد حدود المياه الإقليمية إلى مسافة اثني عشر ميلاً بشرط ألا يمس ذلك بحرية الملاحة الدولية في المضايق البحرية التي تتأثر بهذا الاقتراح. غير أن

دول جنوب أمريكا ظلت تعتبر امتداد حدود مياهها الإقليمية إلى مائتي ميل بدل اثني عشر، وواصلت حجزها للمراكب والبواخر الأمريكية التي تخترق هذه الحدود لصيد الأسماك.

وفي ديسمبر 1970 فشلت اقتراحات قدمت للأمم المتحدة للموافقة على حماية - أعماق البحار وعدم التدخل في البحوث العلمية في البحر -، وقبل بدلها قرار يعترف بكون المنطقة «ميراث مشترك» ويحض على استعمالها للأغراض السلمية فقط.

وفي مناسبة أخرى أظهرت الاجتماعات التمهيدية لمؤتمر قانون البحار التابع للأمم المتحدة والذي انعقد في جنيف خلال ربيع 1971، أظهرتْ ضعف موقف الولايات المتحدة. فقد أكدت كندا وأسبانيا والنرويج، واستراليا حقوقها في حماية سواحلها من أي خطر أو تهديد يأتي من المحيطات. ولاحظ الممثل الإسباني أن عبور شاحنات النفط والبواخر النووية التي تحمل شحنات خطرة قرب المياه الإقليمية الإسبانية ومضيق جبل طارق لا يتمشى مع أمن وسلامة بلاده.

وبالإضافة لذلك أبدت مجموعة من الدول الأفروأسيوية مساندتها لموقف دول أمريكا الجنوبية وطالبوا باعتبار مائتي ميل حدودًا للمياه الإقليمية «تستغلها الدول المعنية سواء لصيد الأسماك أو التنقيب عن النفط والمناجم».

وهكذا تبدو سياسة الدول الكبرى التي تملك القوة التكنولوجية والمادية لاستغلال سطح ومياه وأعماق البحار، متعارضة مع مصلحة

الدول النامية بصفة عامة سواء منها التي تطالب بالمراقبة الدولية على مناطق محدودة من البحار، أو التي تطالب باعتبار المناطق المجاورة لشواطئها على مسافة مائتي ميل مناطق إقليمية لا يجوز للدول الأخرى استغلالها إلا باتفاق مع الدولة ذات السيادة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الدول التي ليس لها حدود بحرية تطالب بالمراقبة الدولية على ما وراء المائتي متر عمقًا واستغلال هذه المناطق لصالح جميع الدول.

وبينما تدور المناقشات وتجري الاتصالات والمفاوضات على المستوى الثنائي والدولي، تستمر الدول الكبيرة في استغلال واكتشاف المحيطات وتوسيع سلطتها على حساب الدول النامية، ذلك لأن التقدم التكنولوجي لدى الزمرة الأولى يمكنها من استعمار البحار اقتصاديًا حتى في حالة وضع القوانين والأنظمة والاتفاقيات التي تعين الحدود وتعترف بالحقوق.

إن بواخر الدول الكبرى وغواصاتها وصناعاتها.. إلخ هي التي تلعب دورًا كبيرًا وسيئًا في تلويث البحار والقضاء على أنواع من الحياة فيها من ناحية، ونهب خيراتها من جهة أخرى. وتتزايد شقة الخلاف بين مصالح الدول الغنية المصنعة والدول الضعيفة لأن أنانية الأولى في الاستيلاء على منابع ثروات الكرة الأرضية تتعارض مع عجز الثانية ودورها السلبي في كثير من القضايا التي تمس مستقبل البشرية.

ولذلك نرى الدول النامية تدعو إلى وضع جزء كبير من البحار تحت مراقبة دولية لإيقاف توسع القوى على حساب الضعيف، ولأن

مثل هذا النظام قد يمكن الدول النامية من الاستفادة من تكنولوجية الدول المتقدمة. وهل من السهل تنظيم ثلثي الكرة الأرضية؟ هذه مشكلة ستجري مناقشتها في المؤتمر الذي سينعقد في العام القادم.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض البحار الصغيرة أو المغلقة قد أصبحت مقسمة بين الدول المجاورة مع الاحتفاظ بحقوق المرور الدولية. فقد اتفقت إيطاليا ويوغوسلافيا على تقسيم البحر الأدرياتيكي كما فعلت الدول المجاورة لبحر الشمال شيئًا مماثلاً.

وتنحصر المفاوضات الدولية لحل مشكلة البحار فيما يلي:

1 - اقتراح يدعي بـ«البحيرة القومية» وهو يقول بأن كل دولة يجوز لها استغلال أية منطقة من البحار. وهذا الاقتراح يجعل بعض الدول تستفيد من ثروات هي ملك لدول أخرى. وهو أيضًا يتعارض مع السياسات الاستراتيجية وأمن الدول .

2 - اقتراح يقول بإنشاء نظام دولي يراقب ويدير قضية استغلال البحار.

ومهما كثر الخلاف حول هذه المشكلة من المفيد أن نستنتج أن هناك مناطق عميقة (3500 متر فأكثر) وبعيدة عن المناطق التي تطالب بها الدول البحرية. وفي هذه المساحات العميقة لا بد من التعاون الدولي بغية الاستفادة من ثرواتها، ولابد أن تخصص مبالغ من الأرباح لتطوير الدول النامية. كما يمكن أن نستنتج أيضًا أنه لا مناص

للدول النامية من الوقوف في وجه الدول التي تدعو لتحديد سلطة الدول البحرية وتضييق مساحة الشواطىء والمياه الإقليمية لتتمكن من أن تصول وتجول وتستغل وتلوث وتستعمر.

وقد أصبحت حرية البحار تعني استنزاف خيراتها والتأثير على مستقبلها واستغلالها للأغراض الحربية. وتتحدث الدول على سطح البحر تارة ومياهه مرة وأعماقه حينًا آخر، وتفرق بين الأجزاء القريبة من القارة، والأجزاء الأكثر عمقًا، وهذا كله مفيد لإعطاء أجزاء مختلفة من البحار أنظمة مناسبة لطبيعتها ونوعية استغلالها.. إلخ غير أنه ينبغي أن لا تبالغ في اعتبار الأجزاء ونسيان الكل. فالبحار قبل كل شيء وحدة متماسكة. فمياهها وسطحها وحياتها وأعماقها ومناجمها كل ذلك تكون نظامًا طبيعيًا واحدًا، يؤثر بعضه على الآخر كما أنه يؤثر على الأرض ويتأثر بما يجري على سطحها.

وقد بدأت أنواع من الصناعات تزحف على البحار وما زالت الوسائل التي تشجع هذا التوسع تنمو وتتحسن. وقد بدأت الدول المتقدمة تكنولوجيًا تهتم بتنظيم نشاطاتها في البحر على نمط ما يجري فوق الأرض من تدابير تتعلق بالضمانات والضرائب والتأميم والحماية والمصلحة العامة والسيادة إلى غير ذلك. وتنص لجنة السوق الأوروبية المشتركة بأن الإجراءات المطبقة على المناطق البحرية التابعة للدول الأعضاء هي نفس الإجراءات التي يجري العمل بها فوق سطح الأرض في هذه البلدان.

ولابد من الملاحظة أن المناطق التي يجري استغلالها اقتصاديًا

في الوقت الحاضر لا تتجاوز أكثر من عشرين بالمائة من مجموع مساحة البحار وهذه المناطق هي التي تجاور الأرض مباشرة وتعتبر امتدادًا لها تشبهها في التكوين .

وعلى كل حال فإن الدول تنتظر بل وتتهيأ لمؤتمر قانون البحار التابع للأمم المتحدة والذي سيعقد في العام القادم لبحث مشكلة البحار والمحيطات. ولا ينبغي التفاؤل كثيرًا بخصوص ما سيحققه هذا المؤتمر، لأن اختلاف وجهات نظر الدول وتباين سياساتها وتناقض المصالح تجاه مشكلة تمس بالمستقبل وبالسيادة وتمت بصلات إلى الاقتصاد والتطور والاستغلال والحرية وغيرها، كل ذلك يجعل اجتماع أكثر من مائة دولة يذكر بالمثل «أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا».

وأكثر ما يمكن أن تتفق عليه الدول في اجتماعها القادم هو الوصول إلى مبادئ عامة بدون تحديد المسؤوليات ولا إنشاء نظام دولي فعال لإدارة البحار واستغلالها. ذلك لأن القضية تمس حقوق وسيادة كل دولة وهذه مشكلة حساسة أثبتت التجارب صعوبة حلها إذا كانت تتعلق بالأرض اليابسة فما بالك إذا كانت غارقة تحت مياه المحيطات.

03/06/72

*****

الدول النامية ومشكلة المحافظة على المحيط الطبيعي

أصبحت قضية تنظيف المحيط والمحافظة على الطبيعة والقضاء على الملوثات تحتل مكانًا مهمًا، ولا ريب أن مشكلة كهذه تتعلق بالماء والهواء والأرض والبحار والصناعات والمواد الأولية والنمو الاقتصادي، جديرة بأن تحظى بعناية جميع الدول. ولا بد للدول النامية أن تلعب دورًا إيجابيًا؛ لأننا لا يمكننا أن نفصل قضية التصنيع عن التطور ولا نوعية الحياة عن المشاكل الاقتصادية. ولذلك فإن قضية «المحافظة على الطبيعة» لم تبق مشكلة إنسانية فحسب، بل أضافت إلى المجال السياسي موضوعًا جديدًا تتعارض فيه مصالح الدول المصنعة التي أصبحت تعاني من التلوث والدول النامية التي ما زالت تكافح من أجل التطور والنمو الاقتصادي.

وقد بدأت أزمة تلوث المحيط بصفة خاصة خلال الحرب العالمية الأخيرة عندما بدأت الدول المتحاربة تنتج المواد الحربية بسرعة هائلة. ومنذ ذلك الوقت ازداد طلب الدول المصنعة على موارد الأرض وتضاعف الاستهلاك الفردي في هذه الدول، فتنوعت المنتجات والكماليات لدرجة لا تكاد تحصر. يقدر الآن أن ثلث سكان الأرض يستغلون ويستهلكون أربعة أخماس خيراتها.

ومن الواضح أن وضعًا مجحفًا كهذا لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، لأن كثرة الاستهلاك تعني زيادة التلوث ، وتلوث الهواء والبحار لا يعرف حدودًا وطنية، ومن هنا مسئولية الدول التي تسبب التلوث وتهدد مستقبل الحياة والإنسانية فوق الأرض. أن نظام الاقتصاد الحر والتنافس المطلق يدفع بالشخص أو الشركة للسعي وراء إنتاج أكبر كمية بأقل الأسعار والتكاليف، وإلى أقصى استغلال للموارد الطبيعية بأسهل وأرخص الوسائل، وهذا لا يؤدى فقط إلى سوء استغلال الموارد الأولية في الطبيعة بل إلى سوء استعمالها وإلى تلوث المحيط.

إن عمليات المحافظة على الطبيعة وإصلاح المحيط تكلف أموالاً باهظة. ومن المنطقي أن تدفع هذه التكاليف تلك الدول الغنية التي استبدت واستعمرت واستغلت وأفسدت ولوثت وما زالت تلوث البحار والأنهار والأجواء.

وقدر مبلغ عمليات المحافظة على المحيط والتنظيف والإصلاح في أمريكا بمبلغ مائة وخمسة وستين مليارًا من الدولارات لمدة خمس سنوات التالية. وقدرت اليابان بأنها ستصرف أحد عشر بالمائة من مجموع الأموال المستثمرة في الصناعة للقيام بنفس المهمة.

وبالنتيجة فإن عملية تطهير المحيط ستجعل سعر كل بضاعة في العالم يرتفع بين 50٪ و12٪ لدفع مصاريف تلك العملية. وبما أن الدول التي تنتج أكثر هذه البضائع والتي ستقوم بمساعي المحافظة على الطبيعة هي الدول المصنعة فإنها ستسعى بدون شك إلى تحويل بعض هذه التكاليف المتمثلة في ارتفاع الأسعار إلى الدول النامية. كما

يخشى أن تستعمل الدول المصنعة ما تقدمه من مساعدات هزيلة كوسيلة للضغط على الدول النامية التي تدعو الدول المصنعة إلى إيجاد حلول منصفة، مبينة بأنها لا تتحمل تكاليف تنظيف المحيط الطبيعي الذي أفسدته الدول الغنية.

وما زالت الدول الإفريقية والآسيوية واللاتينية ترفض تنظيف بيوت الغير، ما لم يقع اتفاق بين الطرفين لتعويض دول العالم الثالث عن ما يلحق بها من خسارة. ويكون التعويض بصفة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق التجارة وغيرها. وترفض الدول النامية أن تصبح مضطرة لدفع مصاريف سياسات التصنيع في البلدان المتقدمة، أو القبول بشروط مجحفة كتحديد عدد السكان. وهذه شروط لا يمكن أن تقبلها جميع دول العالم الثالث. بل هناك وسائل ضغط متعددة قد تلجأ إليها الدول المصنعة مثل غلق أسواقها لمصنوعات الدول النامية أو رفع الجمارك، أو الإقلال من استيراد المواد الأولية واستبدالها بالمواد الصناعية مثلما يحدث بالنسبة للمطاط مثلاً.

وبما أن الكلام والكتابة قد كثر حول مصير العالم وخراب الطبيعة وفناء بعض أصناف الحياة، وبما أن الدول المصنعة تقوم بحملة دعائية «للمحافظة على هذا الكوكب الأزرق السابح في الفضاء الذى لا يوجد شيء مثله في الكون، فإنه من حق الدول النامية أن تتساءل: من هي الدول التي تنعم بالرفاهية والتي يجب عليها أن تستعمل ما لديها من تكنولوجيا لمحاربة التلوث؟

وبما أن السيطرة والغنى والرفاهية مقتصرة على عدد من الدول، فهل ستظل الدول الأخرى تعاني من التأخر والفقر؟

إننا عندما نطلب من دولة مثل الهند مثلاً ألا تستعمل مادة د.د.ت في الحقول بدعوى أنها تضر بالطيور أو الأسماك، ننسى ونتهاون بحقوق الملايين من الأشخاص الذين يعانون من الجوع والبطالة في الهند.

وإذا طبقنا دعوة الدول الغنية بالتخلي عن التصنيع للمحافظة على المحيط الطبيعي نتوصل إلى القول أيضًا بأنه لم يكن من حق الجمهورية العربية المتحدة أن تبني السد العالي.

هذا السد الذي جلب لتلك المنطقة القاحلة الري والكهرباء ومنع الفيضانات عن القرى، والذي استفادت منه الأيدي العاملة والصناعة وغير ذلك. إن دعاة المحافظة على الطبيعة دون تمييز يقولون بأن بحيرة السد العالي والمياه المنتشرة حولها قد تسببت في نشوء أمراض عديدة لم تكن توجد في مصر.

إن كثيرًا من المفكرين ينظرون إلى قضية المحافظة على المحيط كسلاح جديد ترغب الدول المصنعة في استعماله للإبقاء على نفوذها وأسواق منتجاتها وعلى مميزاتها.

إذا تعتبر دعوة الدول المصنعة للدول النامية بالتخلي عن كثير من برامج التنمية الوطنية تحت شعارات القضاء على التلوث والمحافظة على سلامة المحيط الطبيعي، تعتبر دعوة أنانية ومجحفة وغير منطقية.

غير أن السؤال الوجيه هو من يتحمل مسؤولية الضرر الذي لحق بالطبيعة؟ ومن الذي سيدفع الثمن؟ لا يشك أحد في أن كثيرًا من الدول المصنعة تعاني اليوم من جراء المشاكل الصحية والسياسية والاقتصادية التي نتجت عن تلوث الماء والهواء والأرض والبحار والأنهار والبحيرات. لقد ذهب أحد الاقتصاديين الأمريكان إلى اقتراح دَعَاهُ «طابع التناسل الأخضر» تباع هذه الرخصة وتشترى في السوق تبعًا لنظام العرض والطلب المحدودين. وقد نجحت حركة حماية الطبيعة ومحاربة التلوث نجاحًا كبيرًا في الولايات المتحدة. بدأت المظاهرات وانتهت إلى مكاتب السياسيين والمشرعين والشركات. وقد أثرت على برامج صناعية كبيرة مثل برنامج إنتاج الطائرات الضخمة المماثلة لطائرات الكونكورد ونجحت في إلغائها، كما أخرت مشروع أنبوب ألاسكا لجلب النفط وعددًا آخر من المصانع الضخمة المنتجة للقوة النووية.

أما ما يتعلق بمؤتمر ستوكهولم فقد تجنبت أمريكا أن تتعهد بأي تعويض للدول النامية بخصوص ما قد يصيبها من جراء عمليات المحافظة على المحيط وحماية الطبيعة. والواقع أن كل ما يمكن لمؤتمر كهذا أن يقوم به هو إصدار توصيات، وليس أوامر وقرارات، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الهوة التي تفصل بين موقف الدول المصنعة والدول النامية.

17/06/72

*****

التسلح وتجارة الأسلحة

بينما كانت لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ تستمع باهتمام إلى ممثل عن وزارة الدفاع الأمريكية «يشرح لهم كيف ولماذا يجب على الشعب الأمريكي أن يدفع مزيدًا من الضرائب لتنفيذ برامج المساعدات الخارجية، وكان الموضوع يدور حول ما سيقدم من مساعدات عسكرية لكامبوديا ومقداره ثلاثمائة مليون دولار»، كانت الأخبار تتوارد من سايغون وكامبوديا عن عمليات سرقة الأسلحة والمعدات الحربية التي يقوم بها الضباط الموالون للنظام الحاكم هناك وبيعها في السوق السوداء.

وفي قارة أخرى وجو يختلف عن الأول بسويسرا، جلس بعض التجار مع جماعة يدعون أنهم يمثلون حركة أفريقية انفصالية، يتداولون حول صفقة من الأسلحة الموجودة في مخازن منظمة الحلف الأطلسي، أسلحة قيل أنها أصبحت عتيقة بالنسبة لحاجيات الحلف.

وفي عاصمة أوروبية أخرى كان أحد رجال الجيش الإيرلندي الجمهوري يناقش مع مسؤول شركة للأسلحة لتزويد الجيش المذكور بالبنادق والرشاشات والذخيرة.

ومن عاصمة عربية كتب أحد الصحفيين المطلعين يقول بأن بعض الضباط الأردنيين يحاولون دائمًا أن يحصلوا على «قسمتهم» من كل ما تحصل عليه البلاد من مساعدات حربية ومعدات عسكرية.

يبدو من هذه الأمثلة التي ذكرت على سبيل التوضيح لا الحصر، إلى أي درجة أصبحت قضية تقديم المساعدات الحربية وبيع الأسلحة تجارة رابحة، ووسيلة تستغل من قبل الأفراد والحكومات، وأداة للمناورات السياسية الخفية والضغوط التي تجري من وراء حجاب.

بل يمكن القول بأن التجارة الدولية للأسلحة، سواء كانت تتمثل في تهريب صناديق المسدسات عبر حدود دول في أمريكا الجنوبية، أو شراء أحدث طائرات الفانتوم والميج والميراج، قد أصبحت من أقوى العوامل وأهم الوسائل في الدبلوماسية الدولية والسياسية العالمية.

أظهرت دراسة حديثة قام بها جماعة من الخبراء لحساب جمعية الأمم المتحدة أنه منذ عشرة أعوام كانت دول العالم تنفق مائة وعشرين مليارًا من الدولارات سنويًا على المعدات الحربية ويتجاوز هذا المبلغ اليوم مائتي مليار دولار .

وهناك دراسة أخرى حول «نتائج التسابق إلى التسلح وآثارها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في العالم» توضح بأن تكاليف التسلح ستصبح ثلاثمائة وخمسين مليارًا سنويًا في عام 1980، هذا إذا افترضنا بأن المبالغ المخصصة ستبقى على النسبة الحالية التي هي بين 7٪ و9٪ من الإنتاج العالمي، وكل ذلك يؤثر على المبالغ المخصصة للمشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية.

وإذا نظرنا إلى السنوات القليلة الماضية نلاحظ أن الارتفاع المستمر في تكاليف التسلح وإنتاج الأدوات الحربية قد حدث في فترة من الزمان لم تحصل فيها أية حرب بين الدول الكبرى مباشرة، بل كانت الدول الكبرى تجري محادثات وتتقدم تدريجيًا نحو الحد من إنتاج الأسلحة الاستراتيجية وتعمل على منع انتشار الأسلحة النووية

والكيماوية والبكترولوجية، وعلى عدم استعمال أعماق البحار للأغراض الحربية وحماية المحيط من التلوث بالإشعاعات... إلخ.

أصبحت مهنة إنتاج الأسلحة من أربح المشاريع في نظر الشركات المنتجة في الدول المتقدمة، وقد استفادت شركات أوروبية عديدة في ألمانيا الغربية وبلجيكا وإيطاليا، وحتى في النمسا المحايدة، استفادت من استمرار الحرب في جنوب شرق آسيا وظلت تحصل على رخص لإنتاج أنواع من الأسلحة لصالح وزارة الدفاع الأمريكية.

وحتى اليابان الذي تمنعه قوانينه الدستورية من تصدير الأدوات الحربية للدول الشيوعية والدول المعادية استفاد من حرب فيتنام فنمت صناعاته الحربية والصناعة المرتبطة بها.

وقد اشتهر في الماضي أفراد كوسطاء في تجارة الأسلحة، ولكن هذه القضية أصبحت الآن بيد الحكومات، ولو أن بعض الوسطاء لعبوا دورًا كبيرًا في تحويل الأسلحة إلى منطقة بيافرا بنيجيريا خلال الحرب الأهلية، وإلى عدد من بلدان أمريكا اللاتينية.

وفي الرد على قائمة من الأسئلة وجهتها الأمم المتحدة إلى حكومات الدول النامية حول قضية التسلح وبرامج المساعدات الخارجية، خلال الخمس والعشرين سنة الماضية، أكدت بعض هذه الحكومات بأن المساعدات العسكرية هي الآن أقل بكثير مما كانت عليه، نظرًا لصد هذه الدول على الأحلاف واهتمامها بالتنمية الاقتصادية.

01-07-72

*****

العلاقات الأمريكية المكسيكية

زار الولايات المتحدة مؤخرًا رئيس حكومة المكسيك لويس تشافاريا في محاولة لحل المشاكل المعلقة بين البلدين. وألقى خطابًا أمام مجلس الكونغرس الأمريكي جاء فيه: «لقد استعملت الولايات المتحدة سياسة فيها كثير من الجسارة والخيال لحل بعض المشاكل القائمة بينها وبين الدول المعادية لها. وإنني لا أدرك لماذا لا تتبع واشنطن نفس الجسارة لحل المشاكل القائمة بينها وبين أصدقائها». وكان يشير إلى المحادثات التي أجراها الرئيس الأمريكي في موسكو وبكين. وأضاف موضحًا بأنه في الوقت الذي تسعى فيه واشنطن إلى الوصول إلى التفاهم والتعاون وبناء الجسور بينها وبين الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي، لا تزال المشاكل العملية تقف في سبيل تحسين علاقاتها مع المكسيك.

والمشاكل العملية التي أشار إليها الرئيس المكسيكي هي مسألة ملوحة نهر الكولورادو وقضية هجرة اليد العاملة من المكسيك إلى أمريكا والمشاكل التجارية والاقتصادية بين البلدين.

أما نهر الكولورادو فقد ازدادت نسبة الملوحة فيه منذ فتحت الولايات المتحدة مشاريع الري في جنوب أريزونا، في عام 1961، ذلك لأن المياه التي تستعمل للري في أمريكا تعود فتنصب في النهر وتؤثر

على الزراعة ضمن الأراضي المكسيكية، مما نتج عنه الفقر والبطالة لآلاف من الفلاحين المكسيكيين.

وقد وافقت الحكومة الأمريكية، على اتخاذ التدابير العاجلة لتحفظ نسبة ملوحة النهر، كما درست قضية التعويض على المكسيك بعد تقدير مبلغ الخسارة التي لحقت به.

وتعتبر مشكلة اليد العاملة، المكسيكية من الأهمية بمكان، إذ يهاجر كل سنة عدد كبير للعمل في أمريكا، وبلغ عدد الذين طردتهم الولايات المتحدة في العام الماضي، ثلاثمائة وثمانين ألف مكسيكي. وتختلف وجهة نظر الحكومتين، بخصوص هذه القضية فتحاول واشنطن تحديد عدد المهاجرين، وترغب المكسيك في أن يحصل أبناؤها على الأقل على معاملة إنسانية عندما يدخلون أمريكا، وقد جاء في البيان النهائي عن الحكومتين الأمريكية والمكسيكية، «اتفقنا على دراسة مشكلة الهجرة بغية الوصول إلى حلول مرضية للعوامل الاقتصادية والاجتماعية، المتعلقة بالقضية».

إن اقتصاد المكسيك مرتبط باقتصاد جاره العملاق في الشمال، ولتوضيح العلاقة يمكن تشبيهها، بتجاور فيل وفأر، كلما تحرك الأول كانت حياة الأخير في خطر. تبلغ الاستثمارات الأمريكية في المكسيك ثلاث مليارات ونصف وهي تكون ثمانين بالمائة من مجموع الأموال المستثمرة في البلاد. وقد أضرت الإجراءات التي اتخذتها واشنطن في العام الماضي، لحماية الدولار والتجارة، أضرت باقتصاد المكسيك،

خاصة ضريبة العشرة بالمائة الإضافية التي فرضت على جميع البضائع المستوردة من المكسيك.

لذلك كانت المشكلة العملية الثالثة التي سعى الرئيس المكسيكي لحلها تتعلق بالعلاقة التجارية بين البلدين، ويدل نشاط الحكومة المكسيكية مؤخرًا على الاهتمام بتوسيع المبادلات التجارية واتباع سياسة اقتصادية خارجية تتلاءم أكثر فأكثر مع سياسة، ومجهودات العالم الثالث، فقد وقع المكسيك على إتفاقية اقتصادية جديدة مع كوبا، وإقام علاقات ديبلوماسية مع جمهورية الصين الشعبية، مما يدل على أنه يرغب في تنويع علاقاته وتأكيد أو على الأقل الشروع في تأكيد استقلاله تدريجيًا عن الولايات المتحدة.

كما أن الرئيس المكسيكي زار الشيلي في شهر أفريل الماضي وألقى خطابًا أمام مؤتمر لجنة الأمم المتحدة للتنمية والتجارة، وبدأ يساند سياسة بلدان أمريكا الجنوبية الذين يطالبون بمئتي ميل للحدود الإقليمية البحرية.

وقد تحدث الرئيس اتشافاريا، خلال زيارته لواشنطن أمام أجتماع لمنظمة الدول الأمريكية فأشار إلى أن هذه المنظمة قد ساندت السياسة الأمريكية ضد كوبا، ولاحظ بأن المنظمة لا ينبغي أن تظل مخزنًا للمبادئ المجحفة والسياسة البالية، وبين بأنه «إذا كانت واشنطن تضاعف نشاطها لتحسين علاقاتها مع دول أخرى بعيدة، فإننا هنا في أمريكا الجنوبية يجب أن نحارب السياسة التعسفية (يعني الأمريكية) التي تستعمل سلطتها لمنع دول جنوب أمريكا من حماية مصالحهم».

ويعتقد المكسيك بأن المشاكل المعلقة بين الولايات المتحدة ودول أمريكا الجنوبية يمكن حلها لو أن واشنطن تظهر رغبة كافية واحترامًا أكثر للشؤون الداخلية لهذه الدول وتفهمًا أوسع لمطالبهم الاقتصادية الشرعية ومصالحهم السياسية.

ومن جملة ما حاول السيد اتشافاريا الحصول عليه رخصة أمريكية تسمح للطائرات المكسيكية التجارية بالنزول في هنولولو في طريق سفرياتها بين اليابان والمكسيك، وهو يعتقد أن مثل هذه العملية تضاعف عدد اليابانيين، الذين يزورون المكسيك.

ومن بين القضايا المهمة المعلقة بين البلدين مسألة المخدرات. إنّ أمريكا تقوم بحملة لمحاربة تهريب العقاقير المخدرة التي يعاني منها الشباب الأمريكي، وتمس هذه الحملة بوضع المكسيك كدولة منتجة للمخدرات وكطريق يستعمل للتهريب على نطاق واسع إلى الولايات المتحدة.

يمكن إذا وضع هذه الزيارة في نطاق السياسة الجديدة التي ينوي المكسيك أتباعها، ويعتقد المراقبون أن السيد أتشافاريا تكلم بصراحة لم تكن متوقعة وخاصة خطابه الجرىء الذي ألقاه أمام مجلس الكونغرس ، غير أن النشاط الذي تبديه المكسيك، والذي وصف بأنه سياسة جديدة أو جريئة، قد أملته الضرورة بعد أن تضخمت المشاكل الاقتصادية وأصبح عجز الميزانية التجارية يقدر بمبلغ مليار دولار ومبلغ الدين الخارجي أربعة ملايير ونصف من الدولارات. ومن علامات هذا النشاط إرسال عدد من السفراء

«الاقتصاديين»، والبعثات التجارية إلى آسيا وأوروبا ودول أمريكا الجنوبية للبحث عن أسواق جديدة للمصنوعات المكسيكية.

أما من الناحية الأمريكية فيمكن إلحاق هذه الزيارة بالنشاط السياسي الذي يقوم به الرئيس الأمريكي، في سنة انتخابية، رغبة في الحصول على مزيد من أصوات الأمريكان المكسيكي الأصل، هذا طبعًا بالإضافة إلى ما حققته الزيارة (أو لم تحققه) من حلول جزئية أو كلية للمشاكل بين البلدين.

08/07/72

*****

حول العلاقات بين كندا والولايات المتحدة

إذا ألقينا نظرة على تاريخ علاقات كندا بالولايات المتحدة وجدنا أن استقلال الأولى ظل لمدة طويلة مرتبطًا بمصالح الثانية. بل يمكن القول بأن اهتمام أمريكا باستقلال كندا سبق وجود الولايات المتحدة كدولة. فلقد حاول جورج واشنطن وفرانكلين و«لافايات» وآخرون من زعماء الثورة الأمريكية دفع الكنديين للثورة ضد التاج البريطاني والانضمام إلى الثورة الأمريكية.

والشيء الذي يزعج الكنديين اليوم ليس خوفهم من أن أمريكا ستستعمرهم بقوة السلاح بل إن انتقادهم وشكواهم يدوران حول السيطرة الاقتصادية في بلادهم. وتتجلى هذه السيطرة في مجالات الدفاع والتجارة والاستثمار ووسائل الإعلام والنشر وفي الحياة الثقافية والشعبية. وقد دفع ذلك بعض الوطنيين والزعماء الكنديين إلى التفكير في نتائج هذه السيطرة وهذا الغزو الاقتصادي على الشخصية والاستقلال الكندي.

وكثيرًا ما علقت الصحف الكندية تقول: «إذا كانت الولايات المتحدة تهتم فعلاً بمستقبل كندا كدولة مستقلة في قوميتها وشخصيتها فإن عليها أن تعترف بتدهور الوضع في كندا بسبب الوجود الأمريكي وأن تعمل على إصلاحه».

ورغم اختلاف وجهات نظر الزعماء في كندا بخصوص الوجود الأمريكي المريب في بلادهم، فإن اختلافهم لا يتعلق بمدى أهمية هذا الوجود وتأثيره على الحياة الاقتصادية، بل بنتائج وأخطار هذا الوجود وطرق معالجته. ويتجلى ذلك في معالجتهم لقضية الاستثمارات الأمريكية في كندا. فمنهم من يدعو إلى السماح للأموال الأمريكية بأن تلعب دورها مع ما يتبع ذلك من نتائج حسنة أو سيئة. ومن الزعماء من يطالب بتشديد المراقبة على الاستثمارات الأمريكية وتحمل ما ينتج عن ذلك من مصاعب مادية.

ففي أوساط الحزب الديموقراطي الجديد يسود الشعور بالمرارة والسخط لكون كندا بدأت تفقد استقلالها لجارتها الكبرى، أما وجهة نظر جماعة الحزب التحرري والحزب المحافظ التقدمي فهي محاولة إيجاد حل وسط حتى لا يؤدى الشعور الوطني إلى السخط على كل ما هو أمريكي، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه.

ويختلف نوع الانتقاد الموجه إلى الولايات المتحدة من المذكرات الدبلوماسية إلى تعليقات الصحف وانتقادات الحزب الديموقراطي الجديد. وتشمل هذه الانتقادات جميع مجالات السياسة العامة، ولكنها توصف بأنها أقرب إلى التحريض والتأسف منها إلى التوبيخ والتهديد.

وعندما تولت حكومة السيد تّرودو السلطة في عام 1968 اتخذت إجراءات عديدة لإعادة تقييم علاقات كندا مع الولايات المتحدة. وهو ما زال يواجه من جهة الشعور الوطني المتزايد لدى الشعب يتجلى في مطالبته بالعمل على استقلال كندا عن أمريكا

اقتصاديًا. ومن جهة ثانية توجه إليه اتهامات مفادها أنه يسمح للعلاقات الخاصة التي كانت تربط كندا بالولايات المتحدة بأن تتدهور وتنهار.

ويشتكي الزعماء الكنديون من كون أمريكا لا تعير اهتمامًا كبيرًا لسياستهم ومطالبهم. وهدفهم السعي إلى جعل واشنطن تعترف بمصالحهم التجارية والصناعية وتأخذ وجودهم القومي بعين الاعتبار. ونحن إذا نظرنا إلى العلاقات بين البلدين نجد أن التسلط الأمريكي وسيطرة رؤوس الأموال قد بدأت تخلق بعض الانزعاج والقلق مثلما حدث في بعض البلدان الأوروبية. وقد فرضت الحكومة الأمريكية ضرائب إضافية على البضائع المستوردة من كندا، بالإضافة إلى إجراءات أخرى أثرت على الميزان التجاري بين البلدين. وفي نفس الوقت ظلت واشنطن تطمئن كندا بأن هذه الإجراءات مؤقتة لمواجهة العجز في ميزانية المدفوعات. ولكن الإحصائيات تشير أيضًا إلى وجود عجز في ميزان كندا التجاري مع أمريكا. وقد تحسن هذا العجز في السنوات الأخيرة عندما ارتفعت صادرات كندا إلى الولايات المتحدة وتنوعت. وتعمل أوتاوا على المحافظة على هذا التحسن في تجارتها مع جارتها لأنها تحتاج إلى استعمال مكاسبه لدفع ديون أمريكية ناتجة عن فوائد الأموال الأمريكية المستثمرة في كندا. وقد اعترف الرئيس ترودو في حديث صحفي بأنه بالرغم من أن بلاده في حاجة للأموال الأمريكية، التي تكون 80٪ (ثمانون بالمائة) من مجموع الأموال الأجنبية المستثمرة في كندا، فإنه لا يمكن أن تترك لهذه الأموال حرية اختيار مجالات الاستثمار.

وإذا ألقينا نظرة على الماضي وجدنا أن كندا قد خالفت سياسة الولايات المتحدة في مناسبات متعددة منها الاستمرار في المتاجرة مع كوبا، وتخفيض قوتها في الحلف الأطلسي، وسبقها للاعتراف بالصين الشعبية، والإعلان عن سيادتها في المناطق البحرية المجاورة وغير ذلك.

وتهدف سياسة كندا اليوم إلى تكوين علاقات مع جميع دول العالم وتنويع معاملاتها لخلق شيء من التوازن في علاقاتها مع جارتها الكبرى. ومن الواضح أن تزايد الشعور الوطني في كندا، وإتباعها سياسية خارجية أكثر استقلالاً في السنوات الأخيرة نتجا عن الوجود الأمريكي وسيطرته الاقتصادية.

وقد اعترف الرئيس الأمريكي نيكسون خلال اللقاء الذي جرى بينه وبين السيد ترودو مؤخرًا بأنه من مصلحة الولايات المتحدة أن لا تستمر في دور الوصي أو المسيطر في تعاملها مع كندا. ويرجع ذلك إلى شعور واشنطن وخوفها من أنه إذا استمر نفوذها في الانتشار فقد يؤدي ذلك إلى رد فعل لدى الشعب الكندي تكون أسبابه الشعور بالخيبة والقلق والنقمة على الوجود الأمريكي. ولذلك تحاول واشنطن التصرف بصفة لا تدفع هذا الشعور الوطني المعتدل إلى أن يصبح شعورًا بالسخط على كل ما هو أمريكي.

ومع كل هذا فإن المحادثات الهادفة إلى حل المشاكل المعلقة بين البلدين ما زالت راكدة وستبقى كذلك إلى ما بعد الانتخابات. ومن جملة القضايا المعلقة النزاع بين البلدين حول تجديد اتفاقية عام 1955 بخصوص تصدير السيارات الأمريكية إلى كندا. ومنها سن

قوانين جديدة لمراقبة الاستثمارات الأمريكية في كندا. وتبلغ هذه الاستثمارات اثنين وعشرين مليار دولار وتسمح لأمريكا إما بمراقبة أو ملكية الصناعات الكندية. لذلك تتعرض حكومة السيد ترودو إلى ضغط من طرف الشعب الذي يرغب في اتخاذ إجراءات لكبح جماح السيطرة الأمريكية. وبما أن الانتخابات ستجرى في كندا لتكوين حكومة جديدة، فلا شك أن العلاقات بين البلدين ستبقى مجالاً للبحث والانتقاد.

12/08/72

*****

دور النفط ومستقبله

تشير الدلائل إلى أن سيطرة الشركات العالمية التي تحكمت في صناعة النفط خلال القرن العشرين بدأت تتدهور بسرعة. فعندما كان النفط ومصادر أخرى للطاقة متوفرة وعندما كان الوعي القومي في البلاد المنتجة ضعيفًا كان في إمكان الشركات أن تفرض شروطها وتتحكم في الإنتاج والتجارة بل كانت شركات النفط الأجنبية تلعب دورًا حتى في سياسة البلاد المنتجة الداخلية فيعزلون من يخالف سياستهم وينتصرون لمن يسلك طريقهم.

أما اليوم وقد تزايدت وتضاعفت حاجات العالم للنفط وأصبح عدد البلدان التي تملك كميات وافرة من النفط للإيفاء بهذه الحاجات محدودًا فقد تحول الوضع من سيطرة المشتري والمنتج المتمثلة في الشركات الكبرى، إلى تولي الدول المعنية لزمام الأمر مما خلق لديها اهتمامًا متزايدًا بقضية النفط الذي ينبع من أراضيها. وهذا تحول كبير لصالح الدول المنتجة إذا عرفت كيف توجه سياستها وتستغل خيراتها وتوحد موقفها تجاه الشركات الدولية. ومن البديهي أن صناعة البترول وتجارته منذ اكتشاف أول بئر قد اختلطت بمؤثرات استراتيجية وسياسية سعت بواسطتها الدول الكبرى إلى استغلال البلاد النامية، واستعملت الحيلة والمخادعة والمماطلة والقوة بغية الاستيلاء على مصادر النفط.

وما زالت منظمة الدول المصدرة للنفط التي تضم اثنتى عشرة دولة تطالب بالمزيد من حقوقها، وقد حققت هذه الدول تدريجيًا مطالب شرعية لأنها تملك سلاحًا قويًا وبضاعة لا يمكن للغرب أن يستغني عنها في المستقبل القريب. والسؤال الآن هو متى سيتحول الوضع إلى صالح الدول المنتجة للنفط مائة بالمائة بحيث تصبح الشركات السبع الكبرى لا تمثل دور المنتجين المسيطرين بل مجرد زبائن للدول ذات النفط يتنافسون في شراء النفط مثلما تفعل شركات أخرى في الأسواق العالمية للقهوة والقطن والمطاط إلخ.. وبالرغم من أن شركات النفط الدولية ظلت تقوم لمدة طويلة بجميع العمليات المتعلقة بإنتاج النفط وتكريره وتسويقه فقد كانت دائمًا تعتبر أن أكبر مصدر للربح هو الإنتاج وكلما طالبت الدول ذات الحق في النفط بحق المشاركة في الإنتاج أو برفع سعر النفط الخام أصيبت الشركات بصدمة قوية .

ومن الدول (دول الخليج العربي مثلاً) من حددت مطالبها الدنيا بملكية 20 بالمائة من حصة الإنتاج التي تجري في أراضيها، ولكنهم ينوون تصعيد الكمية تدريجيًا إلى أن تصبح 51 بالمائة، وتجدر الإشارة إلى أن فنزويلا، وهي أكبر مصدر للنفط خارج منطقة الشرق الأوسط، تنوي تحديد كمية إنتاجها بما لا يتجاوز أربعة ملايين برميلاً يوميًا من النفط وذلك بغية المحافظة على مخزون النفط لمدة أطول.

ونلاحظ أن دولاً أخرى مثل إيران والمملكة العربية السعودية تعمل على رفع مستوى الإنتاج في بلادها إلى عشرة ملايين برميلاً

يوميًا في عام 1980، ويزداد اعتماد الدول الغربية واليابان والولايات المتحدة على ما يستوردون من مصادر الطاقة وهذا يعني أن نشاط هذه الدول وصناعتها وأمنها وكثيرًا من وسائل الحياة فيها مرتبط مباشرة برغبة الدول المنتجة للنفط في تصدير الطاقة لها.

تقدر الإحصائيات الحديثة بأن الدول العربية أنتجت في عام 1970 حوالي 60 بالمائة من مجموع النفط الذي بيع في الأسواق العالمية؛ وبعد سبع سنوات ستصبح النسبة 70 بالمائة. ويقول الخبراء أنه سيصبح عندئذ بإمكان أي دولة عربية مثل الكويت، السعودية، ليبيا. أن تحدث أزمة عالمية بإيقاف تصدير النفط. وسيختلف الوضع في حوالي عام 1980 عنه اليوم بحيث تنشأ علاقة جديدة مهمة بين العرض والطلب في سوق النفط، وسيكون هناك مركزان متباينان تتمركز المصالح السياسية والاقتصادية بصفة أكثر جلاء في قسم من العالم وفي القسم الآخر نجد الدول المنتجة للبترول. وتشير جميع الدلائل إلى أن مركز هذه المنظمة سيصبح أقوى مما هو عليه اليوم.

ويتميز القسم الأول من هذا التمركز بكونه يضم الدول المستهلكة للنفط والتي تجد نفسها مضطرة خلال الخمس عشر سنة التالية على الأقل لشراء نفط البلدان المنتجة. وتجدر الإشارة إلى أن الخبراء في الدول الغربية يعملون جاهدين على اختراع مصادر أخرى للطاقة تنوب عن النفط، ولكن هيهات أن يتم لهم ذلك. ولكن يحاولون أن يدفعوا الدول المنتجة للبترول أن تستعمل خيراتها للتصنيع والتطور خلال العشرين سنة القادمة فبعد ذلك من الممكن أن يكتشف العلماء مصادر أخرى للطاقة ومن الممكن أيضًا أن تنضب آبار النفط.

ومما لا جدال فيه أن دول الشرق الأوسط (بما في ذلك إيران) ستحصل على أموال ضخمة خلال الخمس عشر سنة القادمة وستصبح مركزًا ماليًا مهما في السوق المالية الدولية ويقدر بعض الخبراء أن المبالغ التي ستحصل عليها دول المنظمة بين 1973 - 1985 بحوالي ستمائة مليار دولار.

وتتجه العلاقات بين الدول المنتجة للنفط والشركات البترولية تدريجيًا نحو فصل عمليات الإنتاج عن الشركات وجعلها تحت سلطة الدول المعنية ذات السيادة. ولابد في النهاية أن يصبح النفط ملكًا للدول التي ينبع من أراضيها وأن يقضي على الدور الاستغلالي الذي حظيت به الشركات الكبرى.

وما زالت هذه الشركات تعمل على إدخال حكوماتها في كل نزاع ينشأ بينها وبين الدول المنتجة للنفط، وهي تهدف بذلك إلى استعمال أنواع من الضغط للمحافظة على امتيازاتها. وقد شرعت دول السوق الأوروبية في محاولات لتنسيق سياسة الطاقة بين الأعضاء، أما الولايات المتحدة فقد تقدمت باقتراح للتعاون مع كندا وفنزويلا وتحديد سياسة موحدة بخصوص مشاكل الطاقة في القارة الأمريكية.

19/08/1972

*****

اليابان والولايات المتحدة

ما زالت كل من الدولتين تظهر رغبتها في التعاون مع الأخرى لأهمية المصالح المتبادلة بينهما. فاليابان تعتبر ثالث دولة من ناحية النشاط الاقتصادي والصناعي والتجاري، وهي تصدر ثلاثين بالمائة من منتجاتها إلى أسواق الولايات المتحدة. أما واشنطن فقد بدأت تفكر في إعداد اليابان ليلعب دورًا مهمًا في منطقة الشرق الأقصى ولذلك تبدو حاجة الدولتين إلى استمرار التعاون بمقتضى مصالحهما المتبادلة.

ورغم ذلك فقد بدأت تتجلى مجالات للتنافس بين البلدين. لقد أصبحت الأرباح الضخمة التي تنالها اليابان من تجارتها مع أمريكا شيئًا غير مقبول لدى الأمريكان. فقد سجلت ميزانية التجارة بين البلدين فائضًا قدره أربعة ملايير دولار لصالح اليابان. وتشير بعض الدلائل إلى أن الدولتين اللتين تشغلان المرتبة الأولى والثانية في الاقتصاد الدولي تسيران نحو مزيد من التنافس على موارد العالم خلال السنوات القادمة.

أما من الناحية السياسية فتعمل كل من الدولتين على الانسجام مع الوضع السياسي الجديد في العالم والذي يتمثل في نشوء مراكز متعددة للقوى بعد أن بدأت معالم الكتلتين الغربية والشرقية في الاضمحلال.

ويعترف زعماء كل من الولايات المتحدة واليابان بأنهم لا يتوقعون أن مصالح البلدين ستبقى منسجمة إلى الأبد. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على فشل سياسة أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق الأقصى التي أسست بعد الحرب العالمية الثانية على مبدأين
- **أولاً**: اعتبار جمهورية الصين الشعبية عدوًا يجب أن يحارب ويحاصر
- **وثانيًا**: الاعتقاد بأن اليابان لعبة في يد السياسة الأمريكية تسخر لتحقيق المطامع في الشرق الأقصى.

إننا نلاحظ الآن أن مصالح البلدين لم تعد تسير في اتجاه واحد. كذلك لأن اختلاف الأهداف والدوافع بدأ يخلق جوًا يسوده نوع من الشك والتردد والتنافس. ويبدو هذا بجلاء في حقل السياسة التجارية بين البلدين. إن منتجي الأقمشة في جنوب الولايات المتحدة مثلاً بدأوا يحتجون على استيراد الأقمشة اليابانية الرخيصة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن وجود القوات العسكرية الأمريكية في اليابان ما زال يثير سخط اليابانيين الأحرار.

ومع هذا الاختلاف فإن سياسة الحكومة اليابانية الحالية ما زالت مبنية على المبدأ القائل بأن أولا وقبل كل شيء يجب المحافظة على العلاقات اليابانية الأمريكية وهذا بطبيعة الحال لا يمنع اليابان من أن تأخذ بعين الاعتبار التطورات الأخيرة في سياسة واشنطن نحو الصين الشعبية، والاتجاه الجديد في السياسة المالية الذي أضر بمصالح اليابان وتجارته وعملته، لأن كل ذلك جعله غير متأكد، كما كان من قبل، من مستقبل العلاقات بين البلدين.

فإلى أي درجة يمكن لليابان أن يعتمد على اتفاقية الدفاع المعقودة مع أمريكا؟ وهل تسعى هذه الأخيرة إلى مساعدة اليابان ليصبح الدولة الموازية لجمهورية الصين الشعبية في منطقة الشرق الأقصى؟ هل يمكن لليابان أن يستأنف علاقاته الدبلوماسية مع بكين دون الأخذ بوصايا واشنطن بخصوص جزيرة فرموزة؟ وهل يمكن لليابان أن يبقى واثقًا من الصداقة الأمريكية رغم تغيير سياسة واشنطن نحو الصين، ورغم المنافسة الكبيرة بين سياسة البلدين الاقتصادية والتجارية؟

إن لقاء نيكسون مع رئيس وزراء اليابان في هونولولو يشير إلى أن أمريكا ما زالت تضغط على اليابان لفتح أسواقه للبضائع الأمريكية. وقد وعدت اليابان بذلك بغية تخفيض التفاوت في ميزانيتي البلدين التجارية. ويقدّر هذا التفاوت بنحو أربعة مليارات دولار لصالح اليابان.

وبينما تسعى اليابان بدورها لتحسين علاقاتها مع الصين الشعبية فإنه من المتوقع أن ينصح نكسون رئيس وزراء اليابان بأن يتريث في إعادة العلاقات مع الصين «حتى ينجلي الموقف في الشرق الأقصى ويحصل بعض الاستقرار». والشيء الذي تحرص عليه واشنطن بشدة الآن هو أن لا تتقدم الصين بأية تعهدات وأن لا يعقد معها أية اتفاقيات من شأنها أن تجعل الاتفاقية اليابانية - الأمريكية ودورها في «حماية الشرق الأقصى» عديمة الجدوى.

09/09/72

*****

السياسة المالية والضغط الديبلوماسي

إن انسجام نظام النقد الدولي هو عامل مهم من عوامل الانسجام السياسي. وبينما نلاحظ تَنَاقُصَ إمكانية قيام صراع مسلح بين الدول الكبرى، فإن إمكانية الصراع في الميادين الاقتصادية والنقدية ما زالت قائمة، ومن هنا يبدو أنه بدون إدخال إصلاحات جذرية على النظام النقدي الحالي سيصبح من الصعب على الدول ذات العملات المختلفة أن تستمر في التعامل مع بعضها.

فبعد عدد من الأزمات بدأ نظام تبادل العملات المرتبطة بالدولار، وهو نظام المعدل الثابت، بدأ يتدهور مسببًا تهديدًا للتجارة الدولية وجميع المعاملات بين الدول.

من الممكن مثلاً لدولة ما أن تبيع بضائعها بأسعار رخيصة، وتربح المنافسة في الأسواق العالمية إذا احتفظت بسعر منخفض لعملتها.

وقد بدأ المسؤولون في أمريكا يعترفون بأن الخطأ في النظام النقدي القديم هو أنه لا يتمتع بأية سلطة للضغط على الدول ذات الميزان التجاري الفائض لترفع قيمة تبادل عملاتها لأن هذا يجعل بضائعها أغلى ويسمح لدول أخرى بمنافستها في الأسواق العالمية.

وما زالت واشنطن تشتكي منذ عدة سنوات من العجز المستمر

في ميزانها التجاري، وتلقي اللوم على دول السوق الأوروبية المشتركة واليابان لأنهم نجحوا في منافساتهم لتجارة الولايات المتحدة ولأن ميزانهم التجاري يحقق كل سنة فائضًا كبيرًا.

ولهذا اقترح وزير المالية الأمريكي في الأسبوع ما قبل الماضي بعض التدابير لحفظ تعادل ميزان المدفوعات بين الدول في المستقبل، من هذه التدابير القيام بتعديل أسعار العملات من حين لآخر بأن تخفض أسعار عملات الدول ذات العجز، وترفع أسعار عملات الدول التي حققت فائضًا في تجارتها الدولية. وبما أن تغيير أسعار أي عملة يؤثر على أسعار الصادرات والواردات والأموال المستثمرة والسياسة إلخ.. فإن هذه العملية تعيد التوازن في ميزان مدفوعات أي دولة.

وفي الواقع يجتاز النظام النقدي الدولي مرحلة انتقالية، انتهى فيها عهد النظام القديم ولم يولد بعد النظام الجديد، وتستمر المفاوضات بين أعضاء لجنة جديدة مكونة من عشرين دولة، إحدى عشر منها مصنعة وتسع دول نامية، وتسعى هذه اللجنة إلى وضع المبادئ الأساسية لتقديمها لاجتماع صندوق النقد الدولي في العام القادم.

وإذا تتبعنا سياسة الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية وجدنا أنها سعت دائمًا لاستغلال المنظمات الدولية المختلفة لتحقيق مصالحها وتدعيم سياستها، وقد قال نيكسون في الخطاب الذي ألقاه أمام اجتماع صندوق النقد الدولي «إن المصلحة الأمريكية هي عامل أساسي في سياسة حكومته الاقتصادية والدولية» ولقد حاولت

واشنطن خلال السنوات القليلة الماضية أن تستغل نفوذها في مختلف منظمات التنمية الدولية ولكنها لم تحْصُلْ على نتائج مرضية كما يبدو من الأمثلة التالية:

- حاولت إدارة نيكسون أن تمنع البنك الدولي من تقديم قرض يبلغ ثلاثة وثمانين مليون دولار للهند في شهر مارس الماضي، وكان هدف القرض شراء ست ناقلات للنفط من اليابان، وعارضت واشنطن منح القرض للهند على أساس «المصلحة القومية» لأن شراء الناقلات يخلق منافسة لناقلات النفط الأمريكية ، غير أن مساعي الولايات المتحدة فشلت وقرر البنك الدولي أن يمنح القرض للهند.

- وفي شهر جوان الماضي عارضت واشنطن تقديم قرض للعراق بدعوى أنه لا يجوز للبنك الدولي أن يقدم هذا القرض في الوقت الذي تقوم فيه العراق بتأميم مصالح الدول الغربية، وحصلت العراق على القرض.

- وقد تقاعست أمريكا عن دفع حصتها في هيئة التنمية الدولية، التابعة للبنك الدولي، ولم تفعل ذلك إلا بعد مرور خمسة عشر شهرًا عن تاريخ وجوب الدفع.

- وقد قررت واشنطن مؤخرًا أن تعارض إعادة انتخاب السيد بول شفا مدير صندوق النقد الدولي لنفس المنصب وذلك لمخالفته لرأي جون كونالي وزير المالية السابق ولأنه نجح في إقناعه بتخفيض قيمة الدولار.

ولم يقف ضغط أمريكا عند هذه الحدود بل استعملت نفوذها المالي، والتهديد بقطع المساعدة أو تخفيضها للضغط على منظمات دولية أخرى مثل البنك الدولي للدول اللاتينية - الأمريكية إذ تسيطر على أربعين بالمائة من ميزانيته. ومنذ عدة أشهر اتهم الرئيس نيكسون في خطاب له السيد فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة بأنه «انخدع بدعايات فيتنام الشمالية» بعد ما كان الأمين العام قد صرح بأن الطائرات الأمريكية قد قنبلت بالفعل سدود المياه في فيتنام الشمالية.

وقد حذرت الحكومة الأمريكية من أنها ستخفض مساهمتها المالية للأمم المتحدة وتخفض أيضًا من حصتها لبرنامج المساعدات الخارجية للتنمية، بعدما قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بطرد ممثلي فرموزا وقبول ممثلي الصين الشعبية في العام الماضي.

وأخيرًا يبدو أن واشنطن أنذرت مكنامارا بأنه سوف لا يحظى بتأييد بلاده للبقاء كرئيس للبنك الدولي إذا استمر البنك في تقديم مساعدات للدول مثل الهند والعراق والبيرو والشيلي ما دامت أمريكا غير راضية على سياساتهم.

09/10/72

*****

هيئة الأمم المتحدة وقضية السلم والتعاون

يتمثل النظام العالمي المعاصر في عدد من التكتلات الكبرى وفي عدد آخر أكبر من الدول المتوسطة والصغيرة التي تناهز المائة في تعدادها. كما يتمثل هذا النظام أيضًا في عدد من المنظمات والتكتلات السياسية والعسكرية والاقتصادية. وليس هناك من شيء مقدس يمنع انهيار هذا التنظيم أو تغيير اتجاهاته. فهناك الديناميكية الأوروبية حيث سنشهد في المستقبل بناء كتلة تضم أكثر بلدان القارة نشاطًا. ولم تشاهد أوروبا مثل هذا التكتل منذعهد الإمبراطورية الرومانية. وهناك نشاط اليابان في أقصى القارة الآسيوية والمعجزات الاقتصادية التي حققها. ومن جهة أخرى نشاهد أن سيطرة العملاق الأمريكي والمعجزات الاقتصادية التي حققها. ومن جهة أخرى نشاهد أن سيطرة العملاق الأمريكي وقبضته على عدد من الدول قد بدأت تضعف وتنهار، تمامًا مثل ما حدث للإمبراطورية الرومانية التي بعد أن بلغت أوجها، بدأت تدب إليها الشيخوخة والانحلال والفوضى والاضمحلال.

ومن الممكن أيضًا أن تظهر تكتلات جديدة وأحلاف ووحدات تختلف في سياساتها واتجاهاتها وأهدافها عن الأحلاف الموجودة.

ويجدر هنا أن نتساءل عما إذا كان بإمكان قارات ومناطق أخرى في العالم أن تحذو حذو أوروبا الغربية وتقلد نموذجها في تكوين وحدة اقتصادية ديناميكية قد تؤدي إلى نوع من الوحدة السياسية؟

فهل ستتأثر دول أوروبا الشرقية بالسوق الأوروبية المشتركة؟

وهل ستتجح مناطق أخرى في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا في إنشاء تكتلات اقتصادية أو سياسية؟ أم هل سيوجه الاهتمام إلى تقوية المنظمات الدولية الإقليمية منها والعالمية؟

إن تاريخ السنوات القليلة الماضية لا يشجع كثيرًا فنحن إذا تتبعنا نشاط بعض المنظمات الدولية في العالم الثالث، مثل منظمة الوحدة الإفريقية ومنظمة الدول الأمريكية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة ومنظمة الجامعة العربية وبعض المنظمات الدولية في آسيا نجد أن نجاحها كان محدودًا لأنها لم تستطع أن تصهر مصالح مختلف الدول الأعضاء وتوجه نشاطها في مجالات التعاون المثمر. فقد تصدعت الجبهة الإفريقية التي كانت تواجه مشكلة التمييز العنصري وحكم جنوب أفريقيا بصوت واحد، كما تصدعت الجبهة العربية حتى في مواجهة الخطر الصهيوني فأصبح بعض الحكام يسعون لإيجاد حلول انفرادية.

ومن الواضح أنه ليس من السهل تكوين اتحادات وتكتلات ومجموعات إقليمية لأن ذلك يتضمن تخلي الدول الأعضاء عن جزء من سيادتها وتضحيتها بجزء من حريتها في التصرف ففي مثال السوق الأوروبية نجد أن الدول الأعضاء قد تخلّت فعلاً عن بعض مفاهيم السيادة المطلقة وأصبحت تلتزم بقرارات وسياسة المجموعة الاقتصادية.

وما من شك في أن أهم المنظمات العالمية هي هيئة الأمم المتحدة وما تشتمل عليه من وكالات ولجان وجمعيات مثل منظمة اليونسكو،

ومنظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة، ومنظمة التغذية والزراعة، ولجنة التجارة والتنمية، ولجنة نزع السلاح، ومنظمتي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. ومن أهم الهيئات مجلس الأمن والجمعية العامة ومجلس الشؤون الاجتماعية والاقتصادية.

ومن المؤسف أننا نجد أن أكثر الدول اختراقًا لميثاق الأمم المتحدة هي الدول التي لعبت دورًا كبيرًا في إنشائها أعني الدول الغربية.

ينص الميثاق مثلاً على تسوية النزاع بالوسائل السلمية، واحترام وحدة تراب كل دولة، ويدعو الأعضاء إلى عدم التدخل في الشؤون الداخلية والامتناع عن استعمال التهديد والقوة ... إلخ.

إن أكبر تهديد لقضيتي السلام والأمن الدوليين ولمفاهيم العدالة والمساواة والتعاون بين الشعوب خلال ربع القرن الماضي إنما جاء نتيجة لتصرفات الدول الكبرى التي فشلت في تسوية خلافاتها بالطرق السلمية، فعمدت إلى استعمال القوة وجعلت من العالم مسرحًا لعملياتها البوليسية، ومن هذا القبيل التدخل الأمريكي في كوريا، ولبنان، وحربها العدوانية في فيتنام، ومحاصرتها لكوبا، ومن ذلك أيضًا العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956.

ولا يمكننا أن نعتبر الأمم المتحدة مسؤولة على مثل هذه الاعتداءات أو غيرها من التوترات التي سادت النظام السياسي الدولي خلال ربع القرن الماضي، إنّ المنظمة الدولية إنما تستمد قوتها من الثقة التي يضعها فيها الأعضاء، فإذا كانت الدول الكبيرة تحتفظ

لنفسها بحق التصرف لحل المشاكل الدولية حسبما تمليه مصالحها، فما ذنب المنظمة وما مسؤولية الدول الصغيرة التي لا تملك إلا شيئًا من الضغط المعنوي قد لا يتعدى مجال الاستنكار.

إذًا لا بد لتقوية هيئة الأمم المتحدة من ثقة الدول جميعًا وخاصة الدول الخمس الكبرى التي هي أعضاء دائمة في مجلس الأمن، ولابد من السعي لحل الأزمات الدولية ضمن نطاق المنظمة لا خارجه، ولا بد من استعمال أجهزة المنظمة لإحلال التفاهم والسلام في المناطق المضطربة بدلاً من اللجوء إلى التهديد واستعمال القوة وفرض الحلول بالحرب.

فدول العالم اليوم أمام أمرين إما أن تتبع في معاملاتها الطريقة الكلاسيكية، طريقة التنافس والصراع واستغلال القوي للضعيف، أو أن تستخدم الأمم المتحدة كحاجز بينها يلطف من المنافسات ويخفف من حدة أنانيات الدول وتطاحنها وذلك بأن تلعب المنظمة دور الوسيط أحيانًا ودور الحكم النزيه تارة أخرى.

وكثيرًا ما دعا الكتاب الدول الكبرى إلى استخدام الوكالات المختلفة للأمم المتحدة في تقديم مساعداتهم لدول العالم الثالث لأن هذا يجنب الطرفين المساعِد والمساعَد كثيرًا من مشاكل الاحتكاك المباشر.

وليس من المعقول في منطق السياسة والسيادة أيضًا أن يطلب من أية دولة أن تضع جميع مشاكلها في حجر الأمم المتحدة وخاصة

فيما يخص الدول الكبرى. ولكن ليس من المقبول أيضًا ألا تلجأ هذه الدول للمنظمة إلا عندما تفشل في جميع المحاولات وعندما يحدق بها الخطر. إن المشكلة الرئيسية هي حفظ الأمن والسلام العالميين ولقد وضع ميثاق الأمم المتحدة هذه المسؤولية في مجلس الأمن، ولا شك أن الالتجاء إلى الجمعية العامة ممكن عندما يصبح مجلس الأمن عاجزًا عن العمل بسبب الفيتو، غير أن صلاحيات ومسؤولية الجمعية العامة محدودة فيما يتعلق بقضية الأمن الدولي وحفظ السلام لأن صلاحيتها لا تتعدى مجال التوصية.

ومن المعلوم أن حق الفيتو هو سلاح تتمتع به كل الدول الخمس الكبيرة تستعمله للقضاء على المشاريع التي لا ترضى بها، وهكذا فقد استعملت الولايات المتحدة حق الفيتو لمعارضة كثير من المشاريع التي لم ترض بها إسرائيل. ولا يمكن إلغاء الفيتو لأن الدول الكبيرة إنما قبلت الانضمام إلى الأمم المتحدة على هذا الأساس. ويبدو لكثير من الكتاب أن حق الفيتو يمثل الحقائق الواقعية إذ أنه لا يمكن إجبار دولة كبيرة على قبول شيء بالقوة، فإذا كانت هذه الدولة تتمتع بقوة مماثلة كان ذلك معناه الحرب والدمار .

وقد بدأت بعض الدول القوية تتساءل عن حكمة تحديد عدد الدول التي تتمتع بحق الفيتو وحصره في الدول الخمس المعروفة، اليابان مثلاً تعتقد أنها جديرة بالانضمام إلى النادي لأنها تمثل قوة تفوق في بعض المجالات قوة فرنسا أو بريطانيا، ولكن المشكلة هي أنه لو التحق عضو جديد بهذا النادي (نادي الفيتو) لطالبت دول أخرى

مثل ألمانيا والهند وإيطاليا بالانضمام أيضًا. وبما أن ميثاق الأمم المتحدة حصر حق الفيتو في الدول الخمس فإنه لا يمكن إضافة دولة أخرى إلا بإعادة كتابة الميثاق وهذا ليس بالأمر السهل لأنه يتطلب تصويت الثلثين وموافقة الدول الخمس الكبيرة بأجمعها.

وهناك مشاكل أخرى تتعرض لها هيئة الأمم المتحدة منها عدم تمتع بعض المؤسسات المهمة مثل المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبنك الدولي ومؤسسة التنمية - بالسلطة الكافية لتنسيق وتوسيع العلاقات الاقتصادية بين الدول المصنعة والنامية، ومنها العجز المالي المزمن الذي لا يتجاوز المائتي مليون دولار .

وقلت لا يتجاوز المائتي مليون دولار لأن هذا المبلغ وإن كان مهمًا بالنسبة للمنظمة الدولية فهو مبلغ زهيد بالنسبة لعدد الأعضاء وخاصة للدول الكبيرة أنه يعادل المبلغ التي تصرفه الولايات المتحدة يوميًا في فيتنام لتقتيل الأبرياء، وتدمير المنازل بل إن إدارة المطافيء في مدينة نيويورك تكلف أكثر من مائتي مليون دولار سنويًا.

والواقع أن الشيء الذي يمنع بعض الدول الكبرى من مساعدة المنظمة الدولية هو أنهم لم يصبحوا قادرين على استغلالها لتحقيق أهدافهم ومصالحهم؛ لقد كانت الولايات المتحدة مثلاً تدفع بسخاء عندما كانت تتمتع بأغلبية الأصوات لقد كانت في الخمسينات مثلاً تحقق كثيرًا من مطامحها السياسية بواسطة المنظمة أما اليوم وقد ازداد عدد الدول المتحررة وأصبح من الصعب على واشنطن أن تسيطر على الأمم المتحدة، فقد أبدت عزمها على تخفيض حصة مشاركتها

المالية السنوية من واحد وثلاثين بالمائة من ميزانية المنظمة إلى خمسة وعشرين بالمائة.

لقد قيل بأن السياسة هي محاولة حمل الناس على أن يفكروا مثلك ويعملوا ما يرضيك، وهذا هو لسان حال بعض الدول الكبيرة التي ما زالت تسعى سواء بواسطة الأمم المتحدة أو غيرها من المنظمات الدولية إلى فرض إرادتها بالمناورات السياسية والطرق الملتوية على الدول النامية دول العالم الثالث والدول الصغيرة.

25/10/1972

*****

الدول اللاتينية والعلاقات مع كوبا

«أليس من السخرية أن تستمر واشنطن في سياستها التعسفية ضد كوبا تحت مزاعم «الخطر الشيوعي»، في الوقت الذي يسافر فيه نيكسون إلى بكين وموسكو ساعيًا لتجديد العلاقات مع الأولى، وتنمية التعاون مع الأخيرة؟».

قبل أسبوعين تلفظت وزارة الخارجية الأمريكية «بكلمات لطيفة» تجاه حكومة السيد فيدال كاسترو لم نسمع مثلها منذ أن قطعت العلاقات بين البلدين قبل اثنتي عشر عامًا، وكانت المناسبة هي اقتراح هافانا بالدخول مع واشنطن في محادثات بغية اتفاقية شاملة هدفها إيقاف الأعمال العدوانية التي وجهتها وتوجهها أمريكا ضد كوبا وكذلك حل مشكلة تحويل الطائرات الأمريكية إلى هافانا.

ومن المعلوم أن الكوبيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة قاموا في مناسبات عديدة بهجومات على كوبا بمساعدة وتشجيع أمريكا، كما حاولت هذه الأخيرة فرض حصار اقتصادي على كوبا واستعملت منظمة دول أمريكا اللاتينية للضغط عليها وأجبرتهم على قطع العلاقات معها عندما رفض فيدال كاسترو أن يتبع السياسة الأمريكية.

وأخيرًا وبعد مرور أكثر من اثني عشر سنة على الثورة في كوبا،

بدأ بعض الزعماء الأمريكان يعترفون بغلطهم في تقديرهم للثورة الكوبية، كما بدأت أكثر دول أمريكا اللاتينية تستفيق من سبات التقليد، وتسعى لإعادة العلاقات مع هافانا، يحدث هذا الآن بعد أن تبينوا أن منطق سياستهم خاطيء لأنه إذا كان سبب مقاطعتهم ومحاصرتهم للثورة الكوبية هو كون الأخيرة تمثل «خطرًا شيوعيًا عليهم» فإن هذا غير صحيح، أليس من السخرية أن يستمر نيكسون في سياسته التعسفية ضد كوبا متعذرًا بمزاعم «الخطر الشيوعي» بينما يسافر إلى بكين وموسكو رغبة في تنمية التعاون وتجديد العلاقات (ورفع الحصار الأمريكي) مع الأولى وزيادة التبادل التجاري والتقليل من خطر التنافس مع الثانية!؟ وبدأت واشنطن تشعر بأن سياستها التعسفية ضد كوبا لا يمكن أن تستمر طويلاً، وأن عددًا كبيرًا من دول أمريكا الجنوبية، قد بدأوا يعيدون النظر في مقاطعتهم لكوبا، وهل يعقل أن تبقى هذه الدول مقيدة بسياسة الحرب الباردة الفاشلة بعد أن أصبحت واشنطن نفسها تسعى بمزيد من الاهتمام إلى تحسين علاقاتها مع الدول الاشتراكية؟

لقد كانت كندا والمكسيك الدولتين الوحيدتين اللتين حافظتا على علاقتهما الديبلوماسية باستمرار منذ نجاح الثورة في كوبا واستلام كاسترو للحكم في عام 1959. وكانت كندا في ذلك الوقت هي الدولة الوحيدة المنتمية للكومنولث البريطاني في القارة الأمريكية، ومنذ ذلك الوقت برزت دول أخرى مثل جامايكا وبربدوس وترينيداد - توباغو، وغويانا، وأصبحوا أعضاء في الكومنولث.

وقد دعا زعماء هذه البلدان الأربع الأخيرة إلى تكوين وحدة اقتصادية بينهم كما أنهم أصدروا بيانًا دعوا فيه إلى إنشاء علاقات ديبلوماسية، واقتصادية مع كوبا، ولا شك أن لهذه الخطوة مغزى مهمًا، وقد لعب السيد بورنهام رئيس وزراء غويانا دورًا كبيرًا ويسعى سعيًا حثيثًا لتركيز اهتمام الدول المجاورة حول إنشاء تعاون متين بين دول المنطقة لخدمة مصالحها المشتركة ولتجديد العلاقات الودية مع كوبا.

وقد كانت مدينة جورج تاون عاصمة غويانا مركزًا لنشاط سياسي واجتماعات دولية مهمة خلال الأشهر الماضية، ضمت هذه الاجتماعات الديبلوماسيين والكتاب والفنانين والمفكرين، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن سياسة الولايات المتحدة الرامية إلى عزل كوبا عن جاراتها قد فشلت، وأن اليوم الذي ستلعب فيه كوبا دورًا ديناميكيًا وتصبح فيه عضوًا ناشطًا في المجموعة اللاتينية ليس ببعيد.

توجد منظمة بين الدول الكريبية تدعى بمنطقة التجارة الحرة لدول جزر الكريبي، ولكن هذه المنظمة ما زالت مقتصرة على الجزر الناطقة باللغة الإنكليزية، ويرجع ذلك التقسيم إلى عهود الاستعمار عندما كانت جزر المنطقة مقسمة بين السيطرة الإنكليزية والفرنسية والإسبانية، أما اليوم فيزداد الشعور بأنه يجب هدم الحواجز المبنية على الفروق اللغوية وغيرها وإنشاء تعاون شامل يضم كوبا وبعض دول المنطقة المتحررة.

ومما زاد من رغبة دول الجزر الكريبية في تدعيم التعاون بينها هو قربها من بعضها مما يجعلها تكون وحدة جغرافية واقتصادية

متكاملة، فترينيداد تعتمد على النفط الذي تستورده من فنزويلا لتنمية صناعتها، وكثير من سكان ترينيداد (الناطقين باللغة الإنكليزية) هم في الواقع من أصل أسباني، كما أن اليد العاملة تهاجر من بلد لآخر للعمل في المناجم وبناء الخطوط الحديدية وغير ذلك، وتسعى جمهورية الدومينيك لتصبح عضوًا في منظمة دول الكريبي، مما يدل على أن الحاجز اللغوي لم يصبح معتبرًا.

ومن العوامل التي دفعت عددًا كبيرًا من دول أمريكا اللاتينية إلى إثبات استقلالها وتوحيد مجهوداتها للتعاون في المجال الاقتصادي هو فشل مختلف برامج المساعدات الأمريكية في تطوير اقتصاد المنطقة. ومن الدول التي أصبحت تميل إلى تجديد العلاقات السياسية والاقتصادية مع كوبا فنزويلا وبنما ، وأخيرًا قد تلعب كندا، وهي عضو مراقب دائم في منظمة الدول الأمريكية، والدول الكريبية الثلاث الناطقة بالإنكليزية والتي أصبحت أعضاء في نفس المنظمة الأمريكية بعد استقلالها، قد تلعب دورًا في تقريب وجهات النظر بين الجمهورية الكوبية من جهة والدول اللاتينية من جهة أخرى، وكل ذلك يعتبر انتصارًا للثورة الكوبية التي حاولت واشنطن أن تقضي عليها في مناسبات عديدة، وبدأ يتجلى للدول اللاتينية أنه إذا كانت سياسة أمريكا الرامية إلى محاصرة كوبا وإخماد ثورتها لم تأت بنتيجة بعد اثني عشر سنة فإنه من العبث مواصلة تطبيق سياسة أثبتت السنون فشلها.

وقد اتخذت الدول الكريبية المشار إليها، بعد اجتماع رؤساء

وزرائها في ترينيداد ، قرارًا مهمًا جاء فيه «إن دول منطقة الكريبي المستقلة، تنفيذًا لحقوق سيادتها وعزمًا منها على تحقيق التضامن في المنطقة، ستسعى إلى إنشاء علاقات دبلوماسية واقتصادية مع كوبا في أقرب وقت ممكن، وستوحد هذه الدول مجهوداتها على أسس متفق عليها» وتجدر الإشارة إلى أن دولتي الشيلي والبيرو قد جددتا علاقاتهما السياسية مع هافانا خلال السنوات الثلاث الماضية بعد أن استلمت حكومات شعبية متحررة مقاليد الحكم في هذين البلدين.

والواقع أن كوبا نفسها لا ترغب في تكوين علاقات دبلوماسية مع حكومات عسكرية دكتاتورية أو زعماء صوريين لا يمثلون الإرادة الشعبية، وقد أوضح كاسترو في عدة مناسبات بأن الشرط الأول لإعادة العلاقات مع أية دولة لاتينية هي أن تكون حكومتها مستقلة، وهو يشير بذلك إلى عدد من الزعماء والقادة الذين يرضخون لأوامر واشنطن، ويقلدون سياستها ولو كان ذلك على حساب الحقوق الشعبية والسيادة الوطنية.

2/12/72

*****

واشنطن تسعى لتحسين أبولو "17" (وتحسين علاقاتها مع موسكو)

بعد أكثر من عشرين سنة من الحرب الباردة بدأت أكبر دولتين تبني جسورًا للتعاون في مختلف الميادين وليس معنى هذا أن التنافس بين أمريكا والاتحاد السوفياتي قد انتهى. غير أنه من الواضح أن ثلوج الحرب الباردة التي سادت الخمسينات والستينات قد بدأت تذوب تدريجيًا. لقد أصبح التعاون الفعلي بين الشرق والغرب ممكنًا عندما أصبح من الممكن التمييز بين المبادئ الأيديولوجية المحضة وبين القضايا التي تتعلق بالشؤون العملية مثل التبادل التجاري والاقتصادي والمجالات الأخرى التي يمكن فيها التعاون بين الطرفين مثل الميادين الفنية والعلمية والتكنولوجية.

وهكذا يبدو أن الاتحاد السوفياتي قد حقق انتصارات كبيرة خلال السنوات الماضية. فبعد أن أصبح أسطوله، أكبر الأساطيل البحرية في العالم، وأصبحت قواته النووية تعادل قوة أمريكا كما تبرهن على ذلك محادثات تحديد التسلح، وبعد أن استطاع أن يفرض على الدول الغربية الاعتراف بالنظام السائد في أوروبا، أصبحت الدول الغربية واليابان تتسابق على أسواق الاتحاد السوفياتي، كما تجرى الآن محادثات حول قضية الأمن الأوروبي في ظروف وتحت شروط كانت من قبل غير مقبولة لدى الأعضاء في منظمة الحلف الأطلسي.

ولم تمض بضعة أشهر بعد زيارة نيكسون لموسكو حتى بدأت الولايات المتحدة تبعث بأفواج من الخبراء والفنيين والعلماء ورجال الأعمال والأطباء وغيرهم، وبدأت العلاقات بين البلدين تتسع لتشمل التعاون في مشاريع عديدة مثل تنظيم رحلات فضائية مشتركة، ومحاربة التلوث ومجالات أخرى علمية واقتصادية وتجارية.

ففي ميدان الطب مثلاً بدأ أطباء من الاتحاد السوفياتي وأمريكا يوحدون مجهوداتهم لإجراء بحوث مشتركة للأمراض المستعصية مثل السرطان والأمراض القلبية والأمراض التي تنتج عن التلوث، وكذلك لدراسة أسباب الحوادث الخطيرة التي تحدث أثناء العمل وطرق تجنبها. وقد ذكرت بعض الصحف أن رجال الاتحاد السوفياتي قد سبقوا الأمريكان في عدد من هذه الميادين وخاصة في فنون المحافظة على صحة العمال وطرق الإسعاف المستعجل.

ومن نتائج سعي البلدين لتحسين العلاقات بينهما مشروع القيام بعملية مشتركة لغزو الفضاء في عام 1975. وبدأ توحيد برامج تدريب رجال الفضاء في البلدين بغية تحقيق المشروع الثنائي «أبولو – سويوز»، ومعنى هذا المشروع عميق وأثره كبير. إذ إن التدريب يشمل عدة مجالات من دراسة اللغة إلى بناء آلات متشابهة ولكن معقدة لتقوم بعمليات مختلفة في الفضاء الخارجي. وهكذا بدأنا نشاهد بداية النهاية للتنافس بين البلدين في مجال غزو الفضاء. ذلك التنافس الذي بدأ في عام 1957 عندما أرسل الاتحاد السوفياتي «سبوتنيك» رقم واحد حول الأرض.

أما في مجال تلوث المحيط فقد وقعت اتفاقية بين البلدين في شهر سبتمبر الماضي لتوحيد مجهوداتهما ومجابهة مشاكل تلوث الجو والماء والمحيط وما ينشأ عن ذلك من مشاكل. وتشتمل هذه الاتفاقية على أكثر من ثلاثين مشروعًا، منها اكتشاف الهزات والزلازل، ومشكلة تلوث البحار والموانئ بالنفط، ومعالجة مصادر الضجيج، والسيطرة على الأمراض الوبائية، تنظيف المدن والتخلص من النفايات وقضايا السكن والمواصلات إلى غير ذلك. وبصفة عامة سيشمل التعاون بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مجالات علمية وتكنولوجية واسعة. ويعمل الآن بعض العلماء في عدد من اللجان المشتركة، يعملون جنبًا إلى جنب في ميادين الطاقة والزراعة والمصادر المائية والعلوم الكيماوية والجيولوجيا واستغلال البحار والجيوفيزيا وتلوث المحيط.

كما وقعت اتفاقية بحرية بين البلدين تعتبر خطوة مهمة وضرورية لتوسيع التجارة بينهما، بعد أن كانت بواخر كل من البلدين تمنع من دخول موانئ البحر الآخر. تنص الاتفاقية الجديدة على أن كلا من الدولتين تسمح بفتح أربعين ميناء للدولة الأخرى في أي وقت بعد إشعار لا يزيد على أربعة أيام. وقد يزداد عدد الموانئ في المستقبل. إن أمريكا حرصت على أن كل البضائع المصدرة للاتحاد السوفياتي يجب أن يشحن ثلثها على بواخر تجارية أمريكية.

إن التجارة عامل أساسي ومهم من بين المجهودات التي تبذلها أمريكا لتعزيز علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي، ويبدو أن واشنطن تركز اهتمامها في الوقت الحاضر على استيراد المواد الأولية من الاتحاد

السوفياتي وخاصة الغاز والنفط إذ أن حاجة الأمريكيين إلى مصادر الطاقة ما تنفك تتضاعف.

ولابد من الإشارة إلى أنه من وراء مساعي أمريكا لتحسين علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي اعتبارات سياسية واقتصادية بعيدة المدى. وقد تنعكس نتائج التعاون بين الدولتين الكبيرتين في جميع المجالات المشار إليها، خاصة مجال التجارة، على نشاطات وعلاقات المنظمات الإقليمية والدولية وقد يؤثر ذلك على التجارة الدولية.

لقد أصبحت الآن دول أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة تتنافس وتتسابق (ولو بصفة غير مباشرة أحيانًا) على الوصول إلى أسواق ومنتوجات الدول الأخرى مثل الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، ولكن كما يقول المثل «إذا تعاركت الأفيال فإن الحشيش هو الذي يعاني». لذلك تعتبر المرحلة الحالية ، مرحلة الانتقال من ظروف الحرب الباردة إلى ما يدعى بحالة الانفراج وبناء الجسور وازدياد التعاون بين الشرق والغرب، تعتبر هذه المرحلة دقيقة ومهمة بالنسبة للدول النامية. يجب عليها أن تخطط لها سياسة جديدة وتظهر مزيدًا من التعاون للمحافظة على حقوقها.

ويمكن أن نتساءل هنا: ألم تكن أمريكا تدعى دائمًا أنها لا ترغب أن تصبح عالة على نفط وغاز الاتحاد السوفياتي؟ وتعلل بعض الصحف رغبة الاتحاد السوفياتي في بيع النفط لليابان وللغرب بكون الأول لا يملك بضائع متنوعة ليصدرها للغرب مقابل ما يستورده منه، لذلك فإن الاتحاد السوفياتي سيعمد إلى تصدير النفط والغاز والمعادن

الأخرى للمحافظة على الميزانية التجارية وهكذا سيوقد غاز سايبريا في البيوت الأمريكية واليابانية.

وقد بدأ عدد من الشركات الأمريكية استعداداته للقيام بهذه الصفقة التي قد تكون أكبر صفقة تحقق في تاريخ التجارة. وهناك مشروعان مدة كل منهما خمسة وعشرون سنة.

يهدف المشروع الأول إلى استيراد حوالي مليارى قدم مربع من الغاز يوميًا إلى ساحل أمريكا الشرقي. كما يهدف إلى إنشاء أنبوب من سايبيريا الغربية إلى مورمانسك، حيث يحول إلى غاز سائل ثم ينقل بالبواخر. ويهدف المشروع الثاني إلى استيراد حوالي مليار ونصف قدم مربع من الغاز يوميًا إلى ساحل أمريكا الغربي على المحيط الهادي. وهذا يعني صنع أنبوب من ياكوتسك في سايبيريا الشرقية إلى ميناء ناخودا على المحيط الهادي. حيث تبنى مصانع تحوله إلى سائل ومن ثم يصدر إلى الولايات المتحدة واليابان.

وقد صرحت عدة شركات معنية بالأمر أنها تتوقع أن تصل إلى اتفاق قبل نهاية عام 1972. ويقدر رجال الأعمال تكاليف مشروع الساحل الشرقي - بما في ذلك مصنع التمييع، وعشرون ناقلة و1500 ميل من الأنابيب - بحوالي ستة ملايير دولار. أما المشروع الآخر فيكلف حوالي عشرة ملايين دولار. وتتوقع الشركات الغربية أن يبدأ استيراد الغاز السوفياتي، إذا جرت الأمور بدون عائق، بين عامي 1978 و1980.

ويرحب رجال الأعمال اليابانيين بمشاركة الأمريكيين في استغلال النفط والغاز السوفياتي لعدة أسباب منها: أن الولايات المتحدة تملك أحسن وسائل التنقيب عن النفط، وأنها قادرة على توظيف أموال كبيرة في المشاريع، ومنها أيضًا رغبة واشنطن في تحسين العلاقات لا مع موسكو فحسب بل ومع بكين أيضًا.

وبما أن اليابان تعتمد على نفط الشرق الأوسط في تسعين بالمائة من حاجياتها وتحتاج إلى 25 يوم لنقله إلى موانئها، فإن الخبراء اليابانيين يشيرون إلى قلة تكاليف نفط الاتحاد السوفياتي وقرب المسافة (يومين فقط) من ميناء ناخودا إلى اليابان.

وعلى كل حال فبينما تجرى المحادثات والاتصالات بين أمريكا واليابان والاتحاد السوفياتي لتحقيق صفقات تجارية مهمة فإنه لم يبق مجال للشك في أن التعاون بين أكبر دولتين في مجالات أخرى قد أصبح جديًا. وبينما يحدث هذا النشاط فوق الكرة الأرضية يستعين رواد الفضاء الأمريكان الذين عادوا من القمر في مهمتهم بخرائط لرسم القمر (الجانب المظلم)، قدمها الاتحاد السوفياتي لهؤلاء الرواد.

23/12/1972

*****

الأمم المتحدة بين الأمس واليوم

هل بلغت الأمم المتحدة سن النضج ؟ هل أصبحت منظمة عالمية شاملة؟ وهل لا زالت بعض الدول تختلف فى فائدة وجودها؟ أجل ما زالت بعض الدول تعاملها بعدم المبالاة وأخرى بالاستهزاء، أما الجيل الجديد ، الذي ولد بعد الحرب العالمية الثانية فيبدو أنه غير متحمس للمنظمة، كما أن المشاكل الكبرى التي يتوقف عليها السلام أو الحرب ما زالت تحل في بعض العواصم الكبرى.

وما زالت أكبر الأزمات مثل العدوان على فيتنام خارج مجال الأمم المتحدة «كما فشلت المنظمة في فرض حل لمشكلة الشرق الأوسط، وبعض المشاكل الاستعمارية والعنصرية في أفريقيا. وقد يكون بعض التشاؤم الذي نشعر به اليوم نتيجة لمبالغتنا في التفاؤل بالأمس، لقد أصبح كثير من رجال السياسة والكتاب يؤكدون بأن الأمم المتحدة إنما تمثل «إرادة مجموع أعضائها» وأنه ليس لها وجود مستقل، وأن الدول الكبرى خاصة تتمتع بحق الفيتو وبقدرتها على استعمال القوة لمعارضة الحلول التي لا تتماشى مع مصالحها، ومعنى هذا أن وجود المنظمة الدولية وفعالياتها وإمكانياتها متوقفة على موقف الدول الكبرى، لأن الهيئة الدولية لا تقدر أن تعارض وأن تتجاهل وجود دولة كبرى.

ونحن نعيش في عصر يشتد فيه الشعور بالوطنية والاستقلال، وتزداد فيه رغبة بعض الدول في التوسع والاستغلال، وقد أصبحت

الأمم المتحدة، رغم عجزها عن حل المشاكل الكبرى، تستعمل كمحكمة لطرح الشكاوي، ومكتب لإصدار التوصيات والقرارات ومنبر للخطابة، تلقى منه الخطب الطويلة كل سنة، ولكن قليلاً ما يتبع ذلك حلول عملية لمشاكل العالم، فلم تحل المنظمة قضايا كوريا، وبرلين، والشرق الأوسط، وقبرص، وكشمير حلاً نهائيًا؟ كلا! إن كل ما يمكن للمنظمة الدولية أن تقوم به هو أن تحاول منع الداء من التسرب إلى بقية الأعضاء، دون القدرة على القضاء عليه.

ونحن نذكر مثلاً الشكاوى المتعددة التي قدمها العرب للهيئة، والخطب الطويلة التي ألقاها ممثلوهم في الجمعية العامة ومجلس الأمن، والقرارات المختلفة التي اتخذتها الأمم المتحدة بصدد العدوان الإسرائيلي، ولكن كل ذلك لم يحل جزءًا من مشكلة اللاجئين ولا من قضية فلسطين، بل ما زالت إسرائيل تتحدى جميع القرارات والتوصيات. وأذكر أن جريدة أمريكية نشرت في عام 1967 «كارتون» يمثل بناية الأمم المتحدة وعددًا من العرب يسجدون أمامها وكان التعليق: «مكة جديدة يصلون ويحجون إليها»!!

ولا ينكر أن المنظمة الدولية قدمت خدمات عديدة للإنسانية وساعدت، ولو بصفة غير مباشرة على حل بعض المشاكل، ولكن إنما جاء تدخل المنظمة بنتيجة مثمرة عندما قبلت الدول المعنية توسط الهيئة الأممية أو مساعدتها، وسبب ذلك واضح، أن الأمم المتحدة ليست حكومة دولية، وليست محكمة عالمية، ولا تتمتع بالقوة المادية التي تمكنها في فرض حلولها على الدول المعتدية وليس في استطاعتها أن تجبر دولة كبرى على تنفيذ قراراتها، ولو أن الميثاق يخولها نوعًا من

السلطة في حالة نشوب أزمة يمكن أن تؤدي إلى حرب عالمية والسبب في ذلك هو أنه إنما يمكن للهيئة الدولية أن تفرض الحلول وتستعمل القوة عندما تتفق جميع الدول الكبرى الخمس التي هي أعضاء مجلس الأمن والتي تتمتع بحق الفيتو، ويدل تاريخ العلاقات الدولية منذ إنشاء الأمم المتحدة أنه من الصعب أن توافق جميع الدول الكبرى على تبني حل واحد تجاه أزمة دولية كبيرة.

وبما أن المشاكل السياسية حساسة، تمس بالسيادة والوحدة الوطنية والكرامة... إلخ أو بمطامع ومصالح الدول الكبرى، فإن المتتبع لتاريخ المنظمة يلاحظ أن الدول التي تستطيع أن تفرض إرادتها بالقوة دائمًا تتجاهل المنظمة أو ترفض أن تتخذ قراراتها.

يفضل عدد من الخبراء أن تركز الأمم المتحدة مجهوداتها في الميادين الاقتصادية والمجالات الاجتماعية والصحية والثقافية، غير أننا إذا قلنا بعدم صلاحية الهيئة لمعالجة أو حتى مناقشة المشاكل السياسية فإننا نطبعها بطابع الضعف ونعطيها مركزًا ثانويًا.

فبينما تزداد حاجة دول العالم إلى منظمات دولية أخرى لتنسيق علاقاتها التي ما زالت تنمو وتتشعب، تزداد أيضًا الحاجة إلى هيئة عالمية مركزية قوية، وذلك لازدياد الترابط وتداخل المصالح بين الدول كنتيجة لطغيان التكنولوجيا الحديثة. لقد بلغ عدد الدول في العالم رقمًا لم يبلغه من قبل، وما زالت دول أخرى تستقل وحدود جديدة ترسم، وعلاقات جديدة تنمو.

فبينما، من وجهة نظر العلم، يبدو لنا العالم كله مترابطًا،

متقاربًا، ذا مصير واحد، كأنه قرية تتكون من عدة بيوت، نجد من الناحية السياسية أن العالم ما زال مقسمًا إلى حضارات وقوميات وأيديولوجيات. وبين الاعتبارات التكنولوجية التي تجعل العالم كتلة واحدة والواقع السياسي الذي يخالف ذلك، ما زالت نظرة بعض الدول للأمم المتحدة غير واضحة.

وقد أثبتت الحوادث أن أولئك الذين يتشدقون بالكلام عن مصير الإنسانية الوحيد وأمالها المتشابهة وكون المنظمة تمثل هذا المصير وتعكس تلك الآمال، إنما هم كتاب نظريون أو زعماء لا يعترفون بالواقع، لأن الوقائع اليومية تدل على أن هناك حوالي 140 دولة في العالم، والعدد في ازدياد، وأن الدول الغنية تستغل خيرات الدول الضعيفة. وأن كل دولة مستعدة لخوض الحرب دفاعًا عن حدودها ومصالحها. إن التباين الذي نشاهده اليوم بين دول العالم هو نتيجة آلاف السنين، والقوميات أصبحت أقوى ثباتًا وبقاء من الأيديولوجيات، فهي أكبر محرك للأمم وأمتن رابطة بين الشعوب وهي التي توجه نشاط الناس وتوحد قواهم وولاءهم لخدمة الوطن.

كثير من المشاكل بين الدول نتجت إما عن قمع المطالب القومية المشروعة أو عن طغيان وعدوان بعض القوميات على الأخرى، ونحن نسمع الدول الغنية القوية مثل أمريكا تشجع الشعور القومي في بعض البلدان لمحاربة الشيوعية ولكنها تقف ضد النشاط القومي، وتعاديه في بلدان أخرى مثل دول أوروبا الغربية لأن الشعور القومي هنا يدعو إلى التخلص من السيطرة الأمريكية، أما في الدول الصغيرة والنامية فإن الشعور القومي سيبقى سلاحًا مهمًا في جمع كلمة السكان والمحافظة على الوحدة والسيادة.

وإذا نظرنا إلى تاريخ دول أوروبية حديثًا يمكننا أن نصدر الحكم التالي: إن بلوغ دولة ما درجة عالية من التقدم العلمي والاقتصادي والثقافي لا يعني أن هذه الدولة ستتصرف على المسرح الدولي بطريقة ناضجة سليمة حضارية إنسانية، إذًا لماذا تزعم بعض الدول الغربية بأن بعض الدول النامية الصغيرة لا تستحق أن تتمتع بكامل عضوية الأمم المتحدة ومتى كان الحجم أو الغنى أو الفقر هو المقياس العادل في الحكم على قيمة الإنسان!؟

ومن نصب هذه الدول في كرسي القاضي أو الحَكَم؟!

بل يمكن القول بأنه من دواعي التفاؤل ما نشاهده من فتح أبواب الأمم المتحدة لانضمام دول مستقلة أخرى، فهذا يخول المنظمة أن تصبح بحق أول منظمة عالمية في تاريخ المنظمات الدولية. وتزعم بعض الدول الغربية أن الهيئة الدولية قد أصبحت أقل فعالية وانسجامًا من قبل، وإذا كانوا يعنون بذلك أن عدد الدول الأروبية وحضارتها وسياستها كانت تسيطر على المنظمة عندما أنشئت في عام 1945 فهذا صحيح إلى حد كبير، غير أن سنة 1945 لم تكن في تاريخ الأمم المتحدة إلا سنة الانطلاق والتكوين، ولم يفكر أحد في أن يجمد هيكل المنظمة على ما كان عليه في الأربعينات لإرضاء مصالح ومطامع بعض الدول.

بعد 27 سنة من الوجود برهنت الهيئة الدولية على قدرتها على الانسجام والمطاوعة والتلاؤم مع الظروف الدولية المتغيرة، ولو أنها لم تبرهن على قدرتها على حل المشاكل العويصة.

وتتصور الدول الغربية تاريخ الأمم المتحدة بأنه صراع سعت فيه الأولى جاهدة لخدمة ومساعدة الثانية على تحقيق أهدافها ومبادئها وهذا تصور خاطيء، أما الاتحاد السوفياتي فيرى أن الدول الغربية قد عملت جهدها لاستغلال المنظمة والتلاعب بميثاقها لتحقيق مطامح سياسية، ولذلك لجأ لاستعمال حق الفيتو المشروع لإحباط هذه المناورات. ومما لا ريب فيه أن ازدياد عدد الدول المحايدة في الجمعية العامة أوجد نوعًا من التوازن ضد الأغلبية العددية التي كانت تتمتع بها الدول الغربية والتي كانت تضطر الاتحاد السوفياتي إلى استعمال الفيتو في مجلس الأمن في الخمسينات أما في الستينات فإن وعي ونشاط الكتلة الأفروآسيوية قد لعب دورًا إيجابيًا في الحد من مساعي الدول الاستعمارية الجائرة. ولذلك أصبحت بعض الدول اليوم تعير اهتمامًا أقل للأمم المتحدة وتحاول تخفيض مساهمتها المالية وذلك بعد أن فقدت جزءًا كبيرًا من سيطرتها على أجهزة المنظمة الدولية.

فقد قطعت هيئة الأمم المتحدة منذ اجتماع سان فرانسيسكو في عام 1945 شوطًا بعيدًا وانضمت إليها حوالي ثمانين دولة جديدة. وعندما كان مؤسسو المنظمة الأوائل يكتبون ميثاقها ويفكرون في كيفية حفظ السلام ووقاية الأجيال القادمة من ويلات الحروب، كانوا عندئذ يفكرون في حروب من النوع التي أشعلها هتلر، ولكن سرعان ما تبدل مجرى تاريخ ما بعد الحرب العالمية الثانية، فظهر الخلاف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وظهرت التكتلات والحرب الباردة، كما بدأ ظلام الاستعمار يتقلص عن القارتين الإفريقية والآسيوية، وبرزت مشاكل تختلف عما توقعه محررو الميثاق، من هذه المشاكل

قضية تحرير الشعوب، وحق تقرير المصير، وقضية التمييز العنصري، والتطور الاقتصادي، وظهور مجموعة الدول المحايدة إلى غير ذلك.

ويعتبر بعض الكتاب والزعماء هذا الفرق بين الأهداف التي أنشئت من أجلها المنظمة. كما كانت تترائى في عام 1945 والأهداف التي يجب على المنظمة أن تحققها اليوم، يعتبرون هذا الفرق سببًا كافيًا للعمل على تجديد ميثاق المنظمة أو إعادة كتابته لتصبح أكثر تماشيًا مع العصر وأكثر فعالية في مواجهة الوقائع الدولية الجديدة.

ولكن عددًا كبيرًا من الدول يخشى أنه إذا فتح الباب لإعادة بناء المنظمة. فإنهم قد يحطمون ما هو موجود، دون الاتفاق على بناء شيء أفضل.

فمن الحكمة أن تعترف الدول أن الأمم المتحدة لا تستطيع وحدها أن تحافظ على السلام ولا أن تقف في وجه إحدى الدول الكبيرة. ومن ناحية أخرى فإنه ما زالت المنظمة في حدود سلطاتها، قادرة على خدمة السلام بوسائلها الخاصة، فهي مركز للمحادثات والاتصالات وتحت جناحها تجري اللقاءات الرسمية وغير الرسمية والمناقشات السرية والعلنية، وهي تبعث برجالها للوساطة وبجنودها للحيلولة دون تأزم الأمور، وهي تصلح كمنصة لمن يشتكي أو يرغب في إبلاغ شعوب العالم همومه وخيبة أماله، فهي صمام الأمن تجد في ساحتها كثير من الدول المستضعفة متنفسًا ومجالاً لإبلاغ شكواها وإسماع صوتها ودعواها.

لقد حان الوقت لأن تعيد الدول النامية تقديرها للقوات المناورة

على مسرح العلاقات الدولية، وأن تتسلح بمقدار أكبر من الواقعية والصراحة، وأن تجابه الحياة كما تتطلبها ظروف اليوم. ومن حقائق عالم اليوم أنه يحترم القوة ويخضع للعلم ويتجاهل الإنسانية ويحتقر المشاعر العاطفية، إنه عالم ما زالت تسيطر عليه القوة المتوحشة والأسلحة المدمرة والقنابل المحرقة، عالم تعيش بعض دوله الكبرى في تناقض مع نفسها فتقدم لك المساعدة باليد اليسرى لتستغلك باليمنى، فأقل ما يقال عن الجزء «الأكثر تمدنًا» من هذا العالم أنه أقسى أنانية ووحشية من إنسان العصر الحجري، وهل فعل إنسان ذلك العصر ببَنِي جنسه ما تفعل بعض الدول المتحضرة اليوم؟

فبينما كانت واشنطن ترسل ببعض المساعدات إلى منكوبي الزلزال في نيكاراغوا كانت طائراتها تمطر الجحيم والدمار على الأبرياء في فيتنام، فهل هناك نوعان من البشر فوق هذه الأرض؟ نوع يشقى بالعذاب ونوع يسعد به! أم هي مجرد سياسة وحشية جائرة طاغية ظالمة، أنانية مستبدة، ترحم من تشاء وتعذب من تشاء.

والخلاصة أن الأمم المتحدة، رغم ضعفها، منظمة برهنت على قدرتها على الانسجام وقابليتها للتغيير ومجاراة التطورات الدولية. والواقع أن مختلف هيئاتها تطورت وما زالت تتطور فليس من الضروري أن يكون تجديد الأمم المتحدة فقط عن طريق إعادة كتابة الميثاق. وعندما تنضم دول أخرى مثل كوريا وفيتنام وألمانيا الشرقية والغربية إلى الأمم المتحدة فإنها عندئذ تصبح «منظمة عالمية» بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المنظمات الدولية.

18/01/73

*****

الولايات المتحدة والمجموعة الاقتصادية الأوروبية

ما زالت منذ القديم فكرة توحيد أوروبا تراود الملوك والزعماء، وقد استعملوا القوة تارة والشعارات الدينية حينًا، والأمجاد الإمبراطورية طورًا، وكان آخر من حاول توحيد أوروبا بالقوة هو هتلر.

وبعد الحرب العالمية الثانية انقسمت أوروبا إلى شرقية وغربية، شيوعية ورأسمالية، انقسامًا أيديولوجيًا، وساد الاعتقاد آنئذ في الولايات المتحدة بأن الطريقة الوحيدة لمنع أوروبا الغربية من الوقوع تحت السيطرة الشيوعية هو أن تتدخل واشنطن وتساعد على بناء «أوروبا قوية اقتصاديًا».

وكان رأي الأمريكان أيضًا أن القوميات المختلفة في أوروبا: القومية الفرنسية، والإيطالية، والألمانية خاصة، قد أفلست وأن مقاومتها لنفوذ الأحزاب الشيوعية المتزايد قد ضعف، ولذلك اعتقدت الولايات المتحدة أن إنعاش فكرة الوحدة الأوروبية، ولو تحت شعارات مختلفة قد تخلق يقظة وحماسًا عاطفيًا في نفوس الأروبيين.

ولكي تتجنب أمريكا إثارة مختلف القوميات ضد محاولاتها لتوحيد الجهود الأوروبية ضد «الخطر الشيوعي» عملت على تقديم

مساعيها في إطار بناء أوروبا الغربية اقتصاديًا وإنشاء منظمات بين دولها لزيادة الإنتاج والاستهلاك وتنشيط التبادل والتنمية.

وهكذا بينما فشل أولئك الذين حاولوا توحيد أوروبا بالقوة، ساد الأمل بعد الحرب العالمية الثانية، بأن الاستراتيجية الجديدة المبنية على المصالح الاقتصادية، قد تأتي بنتيجة إيجابية.

وقد أصبح من الواضح اليوم أن أوروبا الغربية قد تقدمت تقدمًا محسوسًا وسريعًا، بل يذهب بعض الزعماء الأمريكان إلى القول بأن نجاح أوربا الاقتصادي تجاوز ما كان يتوقع، وأصبح يشكل خطرًا على المصالح الأمريكية.

ولا بد من الإشارة أولاً إلى أن موقف المسؤولين الأمريكيين تجاه المجموعة الاقتصادية الأوروبية غير موحد، فمنهم من يعتبر السوق الأوروبية المشتركة الأسمنت الذي يوحد ويقوى صفوف الدول الغربية ضد التأثير الشيوعي، ومنهم من يركز على التنافس بين المصالح الاقتصادية والتجارية الأمريكية، وبين السوق الأروبية.

فهؤلاء ينظرون إلى كون المجموعة الاقتصادية الأروبية تزيد من تركيز قوتها بواسطة توحيد الرسوم الجمركية، وتوسيع شبكات أنظمتها التجارية الخاصة مع دول أفريقية وآسيوية وأوروبية، فهذه القوة التجارية الجبارة لابد أن يكون لها تأثير على مركز أمريكا في ميدان التجارة الدولية.

ومن جهة أخرى فإن السياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفياتي والدول الشرقية، قد أثرت على الوضع في أوربا الغربية، فمحاولات

نيكسون لخلق جو من التعاون مع موسكو وبكين، والتخفيف من الحرب الباردة، غيرت من نظرة الدول الغربية إلى قضية «التهديد الشيوعي» والضمان العسكري الأمريكي ضد هذا التهديد المزعوم، ومعنى هذا أنهم في علاقاتهم ومعاملاتهم مع الدول الشرقية، أصبحوا هم الآخرون، يركزون على المصالح الاقتصادية والتجارية، مع ما يصاحب ذلك من التقارب السياسي.

إذن تناقص في نظر الغرب تهديد الخطر الشيوعي، وتلاه تناقص في اهتمام الدول الغربية بالضمانات العسكرية الأمريكية، وكانت نتيجة ذلك محاولات لتحسين العلاقات بين الشرق والغرب من جهة، وكذلك ظهرت بوادر منافسات بين الدول الغربية في مجالات استغلال الأسواق الجديدة.

ويجدر بنا الآن أن نجري مقارنة سريعة بين كتلة المجموعة الاقتصادية الأروبية، بعد انضمام بريطانيا والدانمارك، وأيرلندة، وبين الولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية.

إن المجموعة الأوروبية الاقتصادية قوة تساوي، وفي بعض الأحيان تتجاوز، قوة الولايات المتحدة، فعدد سكان الأولى 254 مليون، والثانية 205 مليون نسمة، وبلغ الإنتاج القومي للمجموعة في عام 1971 - 695 مليار دولار، بينما بلغ الإنتاج القومي لأمريكا في نفس السنة ألف وخمسين مليار دولار، أما في المجال التجاري فقد بلغت حصة السوق الأوروبية المشتركة من الصادرات العالمية 28٪ ، وحصة أمريكا 17٪، وكانت حصة الأولى من الواردات العالمية 24٪ وحصة الثانية 16.5٪.

ومن ناحية أخرى نجد أن الولايات المتحدة تتمتع بمركز أغنى فيما يتعلق بالموارد الطبيعية، فمساحتها تغطي ثلاث ملايين وأربعة وخمسين ألف ميل مربع. وزيادة على هذا فإن الأراضي الأمريكية (أربعة أضعاف) أغنى من أراضي المجموعة الأروبية في مصادر الطاقة الأساسية من نفط وفحم وغاز وكهرباء، ولكن كلاهما يخشى وقوع أزمة طاقية في بلاده، مما سيخلق نوعًا من التنافس بينهما على مصادر الطاقة في العالم، وما زالت أمريكا تتمتع بقصب السبق في ميادين أخرى مثل الأقمار الصناعية والأدمغة الإلكترونية وإنتاج الطائرات.

ستشكل مجموعة الدول الأروبية منطقة للتجارة الحرة، تضم ستة عشر دولة هي الدول التسع الأعضاء في السوق الأروبية، والدول السبع التي كانت أعضاء في المنظمة الأروبية للتجارة الحرة. وإذا أمكن القول بأن الدول تتنافس مثلما تنافس الفرق الرياضية، فإن أمريكا ستجد اقتصادًا قويًا في السوق الأروبية وخاصة في شكلها الجديد.

وتشير الإحصائيات إلى أن أوروبا الغربية (باستثناء بريطانيا) تتقدم بسرعة كبيرة وأنها تتمتع بزائد في تجارتها الخارجية، بينما ما زالت أمريكا تعاني عجزًا كبيرًا في ميزانيتها، صحيح أن سعر الدولار المرتفع لعب دورًا كبيرًا في تكوين هذا العجز، وقد ظلت الدولارات تصدر عبر المحيط بكميات كبيرة إلى أن قام نيكسون باتخاذ إجراءات مالية مشددة تجاه الدول الأروبية.

كما بدأت واشنطن تنتقد السياسة الزراعية لدول السوق

المشتركة، وتلوم المسؤولين عن هذه السياسة «لتحاملهم» ضد المنتجات الزراعية الأمريكية، غير أن الدول الأروبية بدورها تشكو من التمييز الذي تفرضه أمريكا ضد بعض صادراتها مثل منتجات الألبان والسكر واللحوم، كما تتذمر من الرسوم الجمركية التي تفرضها واشنطن على المواد الكيماوية التي تصدرها أوروبا والمواد الأخرى مثل القماش والأحذية والصلب وغير ذلك. وتخشى إدارة نيكسون من سعي دول السوق المشتركة إلى بسط نفوذها التجاري على مساحات واسعة خارج منطقة الدول التسع مثل منطقة التجارة الحرة والتي يزمع تكوينها والتي ستضم ستة عشر دولة، ومن المعلوم أن سبع دول أوروبية لم ترغب في الانضمام التام إلى السوق المشتركة، ما زالت تفضل الالتحاق بالمجموعة من الناحية الاقتصادية فقط، لا السياسية، فهذه الدول السبع ستنضم إلى دول السوق المشتركة التسع لتكوين منطقة التجارة الحرة.

فإذا أضفنا إلى هذا مختلف الاتفاقيات التجارية التي عقدتها دول السوق المشتركة مع عدد من دول البحر المتوسط وأفريقيا والشرق الأوسط ندرك ما تعني إدارة نيكسون من اتهامها مجموعة السوق بتوسيع نفوذها.

ولكن كثيرًا من المسؤولين، ينظرون إلى هذه المناوشات المالية والتجارية بين أمريكا وأوروبا بأنها سطحية، ويفضلون أن يتحدثوا عن أوروبا وأمريكا كمجموعتين تتمم الواحدة الأخرى، وهما فعلاً تتمتعان بتقاليد سياسية مشابهة ولهما حضارة متقاربة، وما زالت الأفكار الثقافية، والاجتماعية والعلمية والسياسية تربطهما في ميادين واسعة،

وقـد تكون كل هذه العـلاقـات أهم وأدوم في المسـتـقـبل من التـبـادل التجاري وما قد يصاحبه من تنافس.

ويقــول هؤلاء المســؤولون أن أوروبا تتــوسع وتنمــو ولكن ذلك سيـجـعلها سـوقًـا أكبـر للمنتوجات الأمـريكيـة وأنه قد ثبت أن ضعف أوروبا وانهزامها ليس في مصلحة أمريكا، وفـعلاً فقد استوردت السوق الأوروبية المشتركة في عام 1971، مبلغًا قدره أحد عشر مليارًا ومائتي مليـون دولار من مـجـمـوع الصـادرات الأمـريكيـة، وهـذا يمثل 25٪ من تجارة أمـريكا الخـارجيـة، كـما أن الولايات المتحدة اسـتوردت عـشـرة ملاييـر ونصف مليون دولار (23٪) من مجموع الواردات الأمريكية.

والخلاصة هـي أنه لا يجوز أن نتجاهل المشـاكل المعلقة بين أوروبا الغـربية وأمـريكا، وقد خلقت هذه المشاكل والخلافات جوًا من التنـافر، وشـجـعت كثيـرًا من الأوروبيين على أن يطالبـوا حكومـاتهم بطرد النفوذ الأمريكي والقضاء على سيطرتهم في أوروبا.

ومن هذه المشاكل الحدود الجمركية، الحماية الزراعيـة، الإخلال بالسـوق العـالميـة، الخـلاف حول نظام النقد الدولـي، حـول دور الدولار في هذا النظام، الخـلاف حول مصيـر المبـالغ الضـخـمـة من الدولارات الموجـودة في بنوك الـدول الأوروبيـة، رغبـة الأروبيـين في تحـديد تدفق رؤوس الأموال الأمريكيـة، ورغبتهم أيضًا فـي جعل قيمة تبـادل العمـلات ثابتة بينمـا تفضل واشنطن أن تبقى متأرجحة كل ذلك مصحوب بتبدل ملحـوظ فـي ظروف العـلاقـات الدوليـة، وانـخـفـاض أهـمـيـة الأحـلاف العسكرية ومنها الحلف الأطلسـي، بسبب الانفراج في أوروبا، ولا يخفى

تزايد الشعور في أوروبا ضد الغزو الأمريكي للصناعة هناك وعدم رضى كثير من الدول على السياسة الأمريكية في فيتنام، كما نلاحظ على الطرف الثاني من الأطلسي، شعور بعض الأمريكان بخيبة الأمل من رد فعل أوروبا الغربية، وهم يقولون إن دول أوروبا الغربية تقطع اليد التي أطعمتها بعد الحرب العالمية الثانية ويشيرون إلى أن أمريكا تحملت وما زالت تتحمل تكاليف الدفاع عن أوروبا منذ الحرب.

وهذا ما يجعل السنوات القادمة مهمة بالنسبة لمستقبل العلاقات بين أمريكا وأروبا الغربية، ويصح القول أنه في المستقبل القريب على الأقل لا يمكن لأوروبا الغربية أن تستغني بصفة نهائية على الضمانات العسكرية الأمريكية وأن أمريكا من جهتها ليست في طريق الانحدار نحو سياسة انعزالية.

23/01/73

*****

معجزة اليابان أو حكمة رجل الشرق وتكنولوجية الغرب

تتسم حضارة العالم الشرقي وتراثه بالموازنة بين القيم الروحية والمادية، بينما يطغى العنصر المادي على حياة العالم الغربي.

فبينما نجد الرجل الشرقي يسعى لتحقيق الانسجام فيما حوله، نلاحظ أن الرجل الغربي ينافس ويجابه ويشاكس للحصول على التقدم المادي لشخصه.

برز اليابان على المسرح الدولي كقوة اقتصادية، تحتل الدرجة الثالثة بعد أمريكا والاتحاد السوفياتي، في عام 1968، وقد ألفت ما حققه اليابان في هذا الميدان النظر، لأن نجاحه حدث بسرعة وبكفاءة ليس لها نظير، فكيف حدث ذلك يا ترى؟

عمل اليابان على انتقاء أفيد العوامل من التجارب الغربية وزوجها بأفضل ما في الشرق من قيم روحية ومن عادات التضحية والإخلاص والتفاني، فبدأ باستغلال تكنولوجية رجل الغرب وخبرته الفنية وأضاف لذلك إنسانية رجل الشرق ونشاطه وحكمته، وجاءت النتيجة ما يدعوه الاقتصاديون اليوم «بالمعجزة اليابانية الاقتصادية».

إذا تمسك اليابان بتلك الروح وبذلك الاعتدال الذي جعل نشاطه

إبداعًا وعلم الناس كيف يصبحون أقل هدمًا لما حولهم وأقل استغلالاً لبني وطنهم، وكان تقدم اليابان الاقتصادي برهانًا على قدرة دولة شرقية على تحقيق «معجزة النمو الاقتصادي» والتقدم العلمي بنسبة وسرعة لم تنلها كثير من الدول الغربية.

فخلال ربع القرن الماضي بلغ معدل نمو اليابان السنوي عشرة بالمائة، بينما ظلت دول أخرى تكد وتجد لتحصل على معدل نمو سنوي نسبته أربعة بالمائة، وتدل الإحصاءات الحديثة على أن إنتاج اليابان في عام 1980 سيبلغ نصف إنتاج الولايات المتحدة و12٪ من إنتاج العالم كله.

ومن الطبيعي أن يخلق هذا النمو الضخم السريع بعض المشاكل للبلاد، ففي الداخل توجد مشكلة هجرة الناس للمدن حيث يعيش ثلاثة أرباع السكان، مع ما ينتج عن ذلك من مشاكل السكن والمواصلات وغير ذلك وقد وضعت حكومة اليابان برامج لتحسين نوع الحياة ببناء الطرق ومكافحة التلوث وإنشاء وسائل الراحة والترفيه.

أما من جهة علاقاته الخارجية فقد أدى تجمع مبالغ كبيرة من العملة الأجنبية في بنوكه إلى وجود هوة بينه وبين الدول التي تتاجر معه، وتحت نوع من الضغط الخارجي بدأ اليابان يتبع سياسة اقتصادية تهتم بالاستيراد لسد هذه الهوة مع الدول الأجنبية.

ومن الطبيعي أن يسعى اليابان لدعم السلام العالمي لأن نموه واقتصاده لا يتناسب مع جو الحرب، وبما أنه قادر على المنافسة فهو يؤيد مبادئ التجارة الدولية الحرة.

وتشير الإحصاءات إلى أن اليابان يحتل الدرجة الثانية في المساعدات الاقتصادية للدول النامية، كان مجموع ما قدمه في عام 1971 مليارين وأربعة عشر مليونًا من الدولارات، وبهذا يكون اليابان قد وفى بوعده بأن يجعل نسبة مساعداته واحدًا بالمائة من مجموع إنتاجه القومي.

إن اليابان لا يستطيع أن يعيش بدون تجارة، وتجارته لا يمكن أن تستمر بدون الحصول على المواد الأولية، ولذلك يسعى جميع ممثلي اليابان في مختلف أنحاء العالم العمل على تحقيق رسالة اليابان التي تهدف إلى خلق اقتصادي دولي حر.

ولكن يبدو أن اليابان لا يلقى آذانًا صاغية وتشجيعًا للمحافظة على نسبة نموه وزيادة توسعه التجاري، فهناك من الزعماء من يصف اليابان بأنه «الحيوان الاقتصادي» أو «الطفل المشكل» ويعنون بذلك أنه لا يتبع نماذج وقواعد الأنظمة الغربية في مضمار التطور الاقتصادي.

يجد بعض المراقبين الاقتصاديين صعوبة في إدراك وضع اليابان الاقتصادي فيلجأون إلى انتقاده، ويرجع سبب ذلك إلى شيئين: الأول اقتصادي في طبيعته والثاني يكمن في عوامل اجتماعية ونفسية خاصة بشعب اليابان.

وإذا كان اليابان اليوم يخيف بعض الدول الغربية فهذا يرجع إلى كون تاريخ التقاليد الغربية تفسر القوة الاقتصادية بأنها تعني التأثير السياسي والمقدرة العسكرية. ورغم التغييرات الجذرية التي اجتاحت

اليابان منذ الحرب العالمية الثانية فإن كثيرًا من السياسيين الغربيين ما زالوا يتذكرون من اليابان تلك «الدولة المعتدية» خلال الحرب.

غير أن واقع الحياة الدولية اليوم يثبت أن اليابان دولة مسالمة يتخلل نشاطها أركان الكرة الأرضية، ولذلك أصبح من الضروري الاهتمام بوضعها الاقتصادي وتتبع مواقفها السياسية من قبل الدول النامية، ليس فقط لأن جزءًا من موادها الأولية يصدر لليابان ولكن أيضًا لأن تجربة هذه الأخيرة في ميدان التنمية تجربة مفيدة.

فخلال التسع سنوات الأخيرة تضاعف إنتاج اليابان القومي أربع مرات، كان إنتاجه خمسين مليارًا دولارًا في عام 1961 فأصبح ثمانين مليارًا دولارًا في عام 1970، ويبلغ دخله الفردي عشرة أضعاف دخل الشخص في أقطار آسيا المجاورة له.

وكان أول من بدأ بانتقاد اليابان هو الولايات المتحدة عندما أصبحت ميزانية مدفوعات اليابان تسجل فائضًا كبيرًا. وقد حدث ذلك في وقت سجلت فيه الميزانية الأمريكية خسارة معتبرة وأصبحت واشنطن تشعر بالخيبة ومضطرة للاعتراف بأن اقتصادها قد لا يبقى أقوى وأنشط اقتصاد، كما بدأت تجارتها تفقد من قوتها على المنافسة في الأسواق الأمريكية والعالمية. ومعنى هذا أن زعامة أمريكا الاقتصادية فيما يدعى بالعالم الحر بدأت في الانهيار منذ عام 1960.

وبانخفاض قدرة البضائع الأمريكية على منافسة ومزاحمة الصادرات اليابانية، بدأت العلاقات التجارية بين البلدين تتأثر سلبيًا

بواسطة المجابهات والمنازعات التجارية، وفي عام 1967 عندما بلغت تجارة اليابان درجة عجزت الدول الغربية على منافستها على المستوى الدولي وجدت اليابان نفسها هدفًا لعدد من الأنظمة التجارية فرضتها تلك الدول بغية حماية اقتصادها من المنافسة اليابانية الجبارة.

ومن الطبيعي أن يهتم الاقتصاديون ورجال الأعمال الدوليون بالعوامل التي أدت إلى نجاح اليابان المنقطع النظير، ولكن من المؤسف أن دراستهم غالبًا ما تكتفي باتباع الطريق المألوف فيركزون على عوامل مثل الآلات والمعدات الحديثة واليد العاملة الخبيرة والإدارة الحازمة والمنافسة والعمل الجدي إلى غير ذلك، وهم يتناسون تلك العوامل التي تلعب فيها العلاقات الإنسانية دورًا مهمًا.

فقد ثبت أن العامل الياباني يضع مصلحة شركته قبل مصلحته، وأنه يبقى معها إلى أن يتقاعد، كما أن الشركة تنظر للعمال كأنهم أبناؤها فتحوطهم بعناية ومساعدات غير معروفة في النظام الغربي، ومن تلك المزايا أنها لا تطرد العمال حتى في الظروف الاقتصادية العسيرة، فكأنّ هناك نوعًا من التزاوج بين العمال والشركة يجعل كل واحد يشعر بأنه ابن الشركة وصاحبها.

ومن فوائد هذا النوع من التعاقد الذي يعقد بين العمال والشركة الزيادة في خبرة العامل والشعور بأن نجاحه مرتبط بنجاح الشركة، وإحلال التعاون والانسجام بدل المجابهة بين الطرفين كما يشاهد في كثير من البلدان.

ومما ساعد على نجاح النمو الاقتصادي في اليابان حرصهم على استثمار مبالغ كبيرة في الإنتاج القومي فبينما استثمرت الولايات المتحدة في عام 1970 نسبة 13.5٪ من الإنتاج القومي في ميدان «تنمية الأعمال» وضعت اليابان 39٪، أي حوالي ثلاثة أضعاف ما استثمرته أمريكا من إنتاجها القومي في نفس الميدان.

وقد ساعد تاريخ اليابان وطبيعة جغرافيته على جعل المجتمع الياباني، وإن كان يلبس أزياء غربية أو أجنبية عندما يذهب للعمل، يشعر في قرارة نفسه باحترام وتقدير للتقاليد الشرقية، ويسعى لتحقيق الانسجام في حياته بين القيم الروحية والعناصر المادية.

27/1/73

*****

نظام النقد الدولي
(انهيار إمبراطورية الدولار)

هل يواجه العالم فترة من عدم الاستقرار الاقتصادي؟ وهل سيؤدي ذلك إلى مزيد من عدم الاستقرار السياسي؟ إلى أى درجة سيؤثر الوضع الحالي إذا استمر على رفاهية شعوب البلاد المصنعة وعلى نموها؟ هل سيؤدي انهيار النظام المالي الحالي وقيام نظام أو أنظمة جديدة إلى قيام تحالفات جديدة مبنية على تنافس الكتل الاقتصادية الكبيرة؟ وهل كان في إمكان الولايات المتحدة أن تجنب العالم هذه الأزمة لو أنها أتبعت سياسة رشيدة منذ الحرب العالمية الأخيرة؟

أجل لقد كان أمام الإدارات الأمريكية المختلفة وقت كاف لإصلاح الوضع الاقتصادي لو أنها اتبعت سياسة لا تتجاوز إمكانياتها. ففي أواخر الخمسينات، خلال إدارة إيزنهاور، بدأ بعض المسؤولين الأجانب يطالبون أمريكا بالذهب بدل الدولار، وازدادت الأمور وضوحًا خلال إدارة جونسون عندما بدا للناس بأن قيمة الدولار عالية وأنه يجب تخفيض سعره.

وضغطت إدارة جونسون على ألمانيا واليابان، وأجبرتهما على التكفير عن غلطات أمريكية برفع سعر عملتيهما، لأنه حتى ذلك الوقت كان الاعتقاد السائد، حسب نظام النقد الدولي، أن قيمة الدولار يجب أن تبقى ثابتة.

ومزق نيكسون تلك القواعد الدولية في أوت 1971، عندما أعلن أن الدولار أصبح غير قابل للتحويل إلى ذهب، ونتج عن ذلك أول تخفيض لقيمة الدولار في ديسمبر من نفس السنة.

ورغم تلك المغامرة التي قامت بها واشنطن تجاه نظام النقد الدولي، فإن ميزانية مدفوعات الولايات المتحدة لم تتحسن بل ازداد العجز لصالح اليابان مثلاً إذ بلغ أربعة ملايير ومائة مليون دولار في السنة الماضية. وكانت النتيجة اتخاذ إجراءات وقائية إضافية لمنع استيراد عدد من المنتجات الأجنبية (أو الحد من ذلك) بغية حماية اليد العاملة الأمريكية.

ولم يكد يمر يومان على بداية نيكسون لفترته الثانية في الحكم، حتى أعلنت إيطاليا في 22 جانفي الماضي بأن سعر عملتها الليرة، سيصبح عائمًا وذلك يعني أن تترك الليرة تجد سعرها في السوق الحرة دون تدخل الحكومة.

أرسل هذا القرار موجات كهربائية هزت العملات الأخرى وانتشرت المضاربة حول المارك والفرنك السويسري والين والدولار.

وسارع الناس إلى بيع الدولارات وسارعت واشنطن إلى تخفيض سعر الدولار للمرة الثانية خلال أربعة عشر شهرًا فقط، كما قرر اليابان ترك عملته عائمة.

وهكذا أصبح تخفيض الدولار وسيلة لتحميل دول أخرى بعض نتائج أخطاء السياسة الأمريكية. وحتى لو سلمنا بضرورة تخفيض

الدولار للمرة الثانية، فإنه من الخطأ الاعتقاد بأن ذلك هو العلاج الحقيقي لمشاكل الاقتصاد الأمريكي، كما أنه من الخطأ الاعتقاد بأنه من الممكن أن تحدث تخفيضات أخرى دون تحطيم النظام السياسي والمالي والتجاري الحالي للعلاقات الدولية.

لقد بيعت ملايير الدولارات في الأسواق المالية العالمية بأسعار منخفضة دون أن ترتفع أصوات ضد السياسة التي أدت إلى ذلك، ودون أن يبدي مجلس الكنغرس والشعب الأمريكي انتقاده وسخطه على السياسة الخرقاء التي اتبعتها إدارة نيكسون. فليست الأزمة الحالية كما تقدم وليدة الأمس بل هي نتيجة سلسلة من التصرفات السيئة. فلقد تهاونت مختلف الإدارات بالعجز الذي توالى لمدة سنوات عديدة، وواصلت تمويل الحرب، في فيتنام وارتكبت أغلاطًا اقتصادية في داخل البلاد وخارجها مما أدى إلى التضخم وغلاء الأسعار.

ويسود الاعتقاد هنا بأن تخفيض الدولار سيساعد البضائع الأمريكية على منافسة منتجات الدول الأخرى في الأسواق العالمية، ولكن الحل الأفضل للأزمة الدولية إنما يكمن في إيجاد انسجام أبقى في عالم اقتصادي متبدل. أن التردد في اتخاذ حلول فعالة لإصلاح نظام النقد الدولي راجع إلى الغموض والشكوك التي ما زالت تسود العلاقات التجارية بين الدول الغربية واليابان والولايات المتحدة ولا أدل على ذلك من سعي إدارة نيكسون للحصول من الكنغرس على صلاحيات تمكنها من المناورة والضغط والتلاعب بالأنظمة التجارية الدولية لنيل بعض الامتيازات من اليابان ومجموعة السوق الأوروبية

المشتركة. وإذا أمكن التأكيد الآن بأن النظام التجاري والنقدي الدولي الذي أنشأته الدول الغربية بعد الحرب العالمية الأخيرة قد تحطم فإنه لم يتبين بعد نوع النظام الذي سيخلفه. لقد أصبح قسم كبير من التجارة الدولية وانتقال رؤوس الأموال يجري في ظروف يحوطها الغموض والفوضى، كما بدأت دول غربية، كانت من قبل تؤمن بحرية التبادل التجاري المطلق، بدأت تلجأ لإجراءات متنوعة بقصد الحماية والمنافسة وغير ذلك.

ولا شك في أنه من الضروري إنشاء نظام نقد دولي لحماية مصالح جميع الدول الكبيرة والصغيرة، النامية والمصنعة ولكن النظام الجديد سيختلف عن النظام السابق الذي كان مبنيًا على قصة ثبات الدولار وعلى تبعية العملات الأخرى للدولار.

وماذا سيحدث يا ترى إذا لم يحصل اتفاق بين الدول المصنعة على نظام نقد دولي؟ إن أثر ذلك سيكون عميقًا. فإن التجارة والاستثمار والنمو والتعاون وآلاف المبادلات بين الدول لا يمكن أن تزدهر في جو من الانكماش والخوف والحماية والتوتر في العلاقات الدولية. بالنسبة لأمريكا مثلاً فإنها تحصل على مائة وخمسين مليار دولار من التجارة الخارجية، ومائتي مليار دولار من الاستثمارات في الخارج، فإذا أصبحت واشنطن لا تعرف ما سيكون مصير هذه المبالغ الضخمة، أو لا تستطيع التخطيط للمستقبل نتيجة لفقدان نظام دولي ثابت للنقد والتبادل، فإن نتائج ذلك على الاقتصاد تكون وخيمة إذ يؤدي ذلك إلى المنافسة بين مختلف العملات وعدم وجود أسعار ثابتة

لعملة أو عملات معينة، وهذا يضعف التبادل التجاري، إذ لا يمكن التنبؤ بأرباح أو خسارة المبادلات، كما يدفع ذلك بعض الدول إلى اتخاذ أنظمة تحدّ من نشاط المبادلات التجارية، وترك عملاتها «عائمة» باحثة عن سعرها تبعًا لقانون العرض والطلب.

ولذلك يدعو بعض الزعماء والاقتصاديين إلى إنشاء نظام نقد دولي يكون أساسه أولاً ما يدعى بحقوق السحب الخاصة، وثانيًا عملات ذات أسعار ثابتة ولو أنه يترك لهذه الأسعار مجال محدود للهبوط أو الارتفاع عند الحاجة وبطبيعة الحال ينشأ هذا النظام بموافقة الدول المصنعة التي تكون مسؤولة عن نجاحه أو فشله. ويعتقد أن مثل هذا النظام المطاوع سيغري الدول التي تعاني عجزًا في ميزانيتها لأن تعمل على التخلص منه، وكذلك يدفع (أو يجبر) الدول التي تتمتع بفائض كبير في ميزانية مدفوعاتها مثل اليابان وبعض دول أوربا الغربية أن تتخلص منه.

ذلك لأنه متى ظهر عجز كبير في ميزانية ما واستمر، وظلت ميزانيات دول أخرى تجمع فائضًا كبيرًا، فإنه يخشى أن يتبع ذلك استغلال الفرص والأرباح والنشاط الاقتصادي الناتج عن عدم توازن الميزانيات، ويخشى أيضًا كما تقدم أن تلجأ بعض الدول إلى اتخاذ إجراءات لمنع المنتجات الأجنبية من غزو أسواقها ولحماية صناعاتها. ويرى بعض الاقتصاديين أن هذا النظام النقدي الدولي الجديد يجب أن لا يمنع الدول من استعمال حقها في الضغط على كل دولة ترفض اتخاذ الإجراءات اللازمة لتصليح وضعها الاقتصادي، سواء كان ذلك

ناتجًا عن تراكم عجز أو فائض. ومعنى هذا أن النظام الجديد يحاول أن يوفر لكل دولة مقدارًا كافيًا من الاحتياطي، ويمنعها من الإفراط في تكديس الفائض والاحتياطي على حساب عجز دول أخرى.

ولكن مثل هذا النظام لا يمكن أن ينجح إلا إذا أمكن إنشاء منظمة عالمية توحي بالثقة والاستقرار وتدعم التعاون وتمنع الدول الكبيرة من استغلال الدول الضعيفة.

وترى واشنطن أنه لا بد من اتخاذ عدد من الإجراءات بالاتفاق مع الدول المصنعة الأخرى لدفع المفاوضات الخاصة بإصلاح نظام النقد الدولي وبلوغ نتائج مرضية وأول هذه الإجراءات يتوقف على اعتراف أوروبا واليابان بأن لتصرفاتهم الحالية آثارًا مهمة على السياسة الأمريكية ومن ذلك أن نظام النقد والتجارة الدولي الجديد سيؤثر على سياسة التحالفات في السبعينات.

والنقطة الثانية تتعلق بدور الدولار في النظام الجديد فقد كان في استطاعة الولايات المتحدة أن تمول عجز ميزانيتها في الماضي لأن البنوك المركزية وعددًا كبيرًا من سكان العالم رغبوا في إدخار ثرواتهم واحتياطهم بشكل دولارات.

ولكن عندما كثرت الدولارات ونقص مقدار الذهب في الخزينة الأمريكية وأصبحت العملة الأمريكية في مأزق نتيجة العجز المستمر في ميزانية المدفوعات عندئذ غيرت واشنطن سياستها المالية وأعلنت في أوت 1971 أن الدولار لا يبدل بالذهب، تجلى للعيان فشل نظام النقد الدولي.

وأصبحت بعض الدول مضطرة في أوقات الأزمات أن تتدخل في الأسواق المالية الدولية لحماية قيمة الدولار، ذلك لأنها تملك ملايين الدولارات ولأن استمرار سعر الدولار في التدهور يؤثر على احتياطها المالي.

لقد حان الوقت لتقبل أمريكا بتحديد دور الدولار كوسيلة للادخار وكذلك كعملة دولية للتبادل التجاري. هذه أول خطوة لإنجاح محادثات إصلاح نظام النقد الدولي، خاصة وقد أصبحت بعض الدول تخشى محاولات واشنطن فرض نظام الدولار لمدة غير محدودة.

حان الوقت لأن تعترف أمريكا بعجز عملتها على الثبات في وجه المنافسات الدولية وأن تعيد النظر في تعهداتها الدولية وأن تكف عن سياسة السيطرة.

فسلام على أيام عزة الدولار أقدس عملة ومحور النظام النقدي الدولي، والعملة الذهبية ذات القيمة الثابتة، لقد قضت على ذلك كله سياسة التوسع والكبرياء والعدوان.

حاولت أمريكا أن تفرض نظامها على العالم فلعبت دور الشرطي والمستشار والممول والمحافظ والمشتري والبائع والمدافع والمحامي وغير ذلك. وكما بدأت ظلال الإمبراطورية الرومانية تتقلص تدريجيًا فإن السيطرة الأمريكية قد بدأت تنهار بانهيار قيمة الدولار.

02/3/73

*****

العلاقات الاقتصادية بين أمريكا وكندا

بينما يمر الاقتصاد الأمريكي في أزمة خطيرة، تشير جميع الدلائل إلى أن الاقتصاد الكندي يسير نحو النمو والتوسع، وتدل الإحصائيات على أن عام 1972 كان عام تحسن وازدهار في كندا.

فقد تم اكتشاف الغاز والنفط في المناطق الشمالية من البلاد، ويشير التنقيب إلى وجود كميات ضخمة، أما في مناطق الغابات في الجنوب فقد ازدادت صناعة الخشب ازدهارًا، وقد تمتع الفلاحون الكنديون خلال هذا الشتاء بالخيرات التي درها عليهم صيف 1972، أما سكان المدن فإنهم قد استفادوا من ناحيتهم بازدهار تجارة وصناعة المواد البنائية.

لقد تجاوزت قيمة مجموع البضائع والمنتجات الكندية لعام 1972 مائة مليار دولار، ويقول بنك الأمبريال الكندي في تقرير له أن هذا المبلغ سيكون مائة وخمسة عشر مليارًا من الدولارات في عام 1973، هذا نمو (حسب معدل الدولار الثابت)، بنسبة 6٪ وهي نسبة محترمة، كما تنبأ البنك بازدياد رؤوس الأموال المستثمرة في المصانع والمعدات بنسبة خمسة عشر بالمائة، وكل ذلك يرجع إلى حرص كندا على تحسين وضعها الاقتصادي بالنسبة لعلاقاتها مع الولايات المتحدة.

ولكن بالرغم من هذا التحسن فإن علاقات كندا بجارتها إلى

الجنوب ما زال يعكرها تيار سيطرة الاستثمارات الأمريكية ، ويقوم بعض الزعماء الكنديين (بتأييد الشعب كما أظهرته الانتخابات الأخيرة) بمحاولات لعكس هذا التيار أو إيقافه بغية الخلاص من نفوذ الشركات الأمريكية في بلادهم، وقد اتخذت هذه الحركة كشعار لها: «لنشتر كندا من أمريكا».

قامت الحكومة الكندية، ترضية للشعور الوطني واستجابة لتلك القوة الاقتصادية المعارضة لتوسع السيطرة الأمريكية، قامت بسن قوانين قد تحد من قدرة الشركات الأجنبية على الاستيلاء على الشركات الكندية.

ودلت انتخابات أكتوبر الماضي بوضوح على عدم رضاء الناخب الكندي على سياسة حكومته وتساهلها في ميدان الاقتصاد الحيوي تجاه الاستثمارات الأجنبية، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح الحزب الليبرالي حزب الرئيس ترودو، أضعف مما كان بينما حصل الحزب المعارض، الحزب المحافظ التقدمي، على نجاح غير متوقع، وعلى إثر ذلك عزمت حكومة السيد ترودو على اتخاذ إجراءات لحماية الاقتصاد منها:

إجراءات تضمن وتساعد الشركات الكندية على أن تلعب دورًا في اقتصاد البلاد، وإجراءات تزيد من مشاركة الكنديين في تسيير ومراقبة الموارد الأساسية، وإجراءات تتعلق بما يدخل كندا من استثمارات جديدة وكذلك ببيع الأراضي للأجانب. ما زالت هذه الإجراءات قيد البحث وقد لا تصبح قوانين إلا بعد بضعة أشهر أو سنة، غير أن المستثمرين الأمريكان بدأوا يشعرون بأن الوضع قد يصبح أكثر صعوبة.

مما لا شك فيه أن كندا تتمتع بموارد طبيعية واسعة، وقد كانت في الماضي لا تعارض في توظيف أي مبلغ من رؤوس الأموال الأجنبية لاستغلال هذه الموارد، ولكن يبدو أن الشعور القومي بدأ يستيقظ في الوقت الذي بلغت فيه البلاد درجة من النمو تمكنها من استغلال خيراتها بنفسها.

وكمثال على ظهور هذا الشعور القومي تذكر قضية مشروع جلب النفط من منطقة سهل ماكينزي في الشمال، بواسطة الأنابيب، وبما أن القسم الأكبر من هذا النفط سيصدر لأمريكا فقد قام جدال حول المشروع وطالب كثير من الكنديين بترك النفط في الأرض إلى أن يحتاجه الكنديون أنفسهم.

وبالرغم من أن عددًا من العملات الغربية قد مرت في أزمات فإن سعر الدولار الكندي قد ارتفع بنسبة عشرة بالمائة بالنسبة للدولار الأمريكي، إلى أن أصبح في نهاية 1972 يعادل الدولار الأمريكي أو يفوقه ببضعة سنتيمات، أما بعد التخفيض الأخير في الدولار الأمريكي، فقد ازدادت قيمة الدولار الكندي بالطبع بنفس القيمة.

ما زالت «الممتلكات» الأمريكية في كندا تتسع إلى أن أصبحت كثير من دول العالم المصنعة تشير إلى ما وقع في كندا (من سيطرة الاستثمارات الأمريكية) كمثال لما يجب تجنبه في بلادهم.

ويرى بعض الاقتصاديين بأنه طالما أصبح نمو كندا قادرًا على بلوغ ستة بالمائة من مجموع الإنتاج القومي العام بدون اللجوء لرؤوس أموال أجنبية، فإن وجود جميع تلك الاستثمارات الضخمة من الخارج سوف تضر باقتصاد البلاد، ذلك لأن الاستثمارات الأجنبية تفرض

نوعًا خاصًا من التخطيط قد لا يفيد الاقتصاد المحلي بل يجعله خاضعًا لمتطلبات التصدير وتابعًا في تكوينه ونموه للأسواق العالمية ومكملاً لها، وكلنا يذكر أن هذه هي الحالة التي كان عليها الاقتصاد الجزائري خلال فترة الاستعمار وكذلك اقتصاد وتجارة كثير من الدول المستعمرة.

بل ما زالت بعض مظاهر التجارة بين كندا والولايات المتحدة تشبه العلاقات الموجودة بين دولة مصنعة ودولة نامية، فكثير من الشركات الأمريكية في كندا تصدر المواد الأولية إلى فروعها في الولايات المتحدة بأسعار رخيصة، ثم تعاد فتصدر تلك المواد بشكل بضائع مصنوعة إلى كندا بأسعار أغلى، وخلال ما تمر به المواد الأولية من منبعها إلى عودتها، من عمليات مختلفة ، لا تقوم كندا إلا بدور المتفرج، وتكون قد خسرت فوائد التسويق وما ينتج عن تحويل المواد الأولية من إمكانية إنشاء صناعات ثانوية بجانبها.

ومن الغريب أن عددًا من رجال الأعمال في كندا ما زالوا يعتقدون بأن بلادهم في حاجة إلى مزيد من الاستثمارات الأجنبية لاستمرار النمو الاقتصادي، ولكن الإحصاءات تدل على أن نسبة المبالغ المستثمرة في كندا (بالمقارنة مع عدد سكانها) هي أعلى منها في أي دولة أخرى من الدول المصنعة.

وبالرغم من أنه لا يمكن التحدث عن حلول جذرية مثل التأميم في كندا، فإن تبرم الكنديين بتحكم الأيدي الأجنبية وسيطرتها على اقتصادهم يزداد عنفًا والأوضاع تتغير تدريجيًا.

13/03/1973

*****

بترول - انشغال في الغرب
حقائق ومزاعم

كثرت الأحاديث والتعليقات مؤخرًا حول أزمة النفط في الغرب، كما توجهت الأنظار إلى الشرق الأوسط، وتشعبت الحسابات والتكهنات واختلفت آراء الزعماء الغربيين حول ما سينتج عن تمركز الطلب على مادة النفط في الغرب، وتمركز العرض في الشرق الأوسط. وفيما يلي عرض لبعض الأقوال والمزاعم والشائعات التي تجري على الألسنة، وتدور في أفكار بعض الزعماء الأمريكان.

في مؤتمر عقده مؤخرًا بعض رجال الأعمال في أمريكا وأروبا، لبحث القضايا التجارية بين الشرق والغرب، تحدث السيد جورج بول وهو نائب وزير سابق في أمريكا وحاليًا من رجال الأعمال في نيويورك، وقدم بسخرية حلاً لأزمة الشرق العربي فقال: «إن العرب سيجمعون عشرات الملايير من دولارات النفط، لماذا لا يشترون إسرائيل بمائة مليار دولار، ثم يرحل الإسرائيليون إلى إيرلندا الشمالية».

عندئذ قاطعه السيد جون مكلوي، وهو سفير أمريكي سابق، والآن أحد رؤساء بنك تشاس منهاتن، فقال ساخرًا أيضًا: لماذا لا نسمح للعرب بشراء الشركات الغربية الكبرى، ثم نؤممها بدون أن نعوضهم طبعًا»!

ليست هذه نكتة عفوية بل إنها تنم عن موضوع هو من الأهمية بمكان، لقد أصبحت الدول الغربية واليابان تمثل مركزًا لاستهلاك النفط المتزايد، ومن جهة أخرى أصبحت منطقة الشرق الأوسط أهم خزانات النفط في العالم، وهذا يعني في نظر الزعماء الغربيين تكديس ملايير الدولارات أو الجنيهات في أيد قد لا تحسن استعمالها أو لا تحتاج إليها.

تكني بعض الجرائد الأمريكية عن هذه الأموال بأنها «أموال الصحراء، ويدعوها بعض رجال الأعمال «أموال الجمال»، ومن المؤسف أن الجرائد الأمريكية، ما زالت مستمرة في تحيزها، وتجاهلها للحقائق، فهي عندما تتحدث عن الشخص العربي «تزخرف» تعليقها برسم الجمل والخيمة في الصحراء بجانب نخلة.

ويرى بعض المفكرين الأمريكان أن «أموال الصحراء» قد تستغل في مشاريع مزعجة لمصالح الغرب، فمن الممكن مثلاً أن تلجأ بعض الدول العربية والمشيخات للضغط على سعر العملات الغربية، أو أن يكنزوا مقدارًا كافيًا من الدولارات ثم يقطعوا النفط عن الغرب للضغط السياسي، أو أن يمولوا ثورات مسلحة.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك جماعة أخرى من المفكرين السياسيين ورجال الأعمال الذين يعارضون زملاءهم في الرأي، ويؤكدون لهم، مستدلين بحوادث من التاريخ الحديث بأن العرب سوف لن يقوموا بشيء من ذلك.

كتبت لجنة الكونغرس للشرق الأوسط التابعة للجنة الشؤون الخارجية، في شهر سبتمبر الماضي، كتبت في تقرير تقول: «لم يسبق في تاريخ البشرية أن دولاً عديدة غنية وقوية مثل الدول الغربية أصبحت تحت رحمة دول صغيرة وغير مستقرة، تعتمد الأولى، خلال عشرات السنين القادمة، على رغبة الثانية في تزويدها بمادة النفط الحيوية».

ويعتقد المسؤولون الأمريكان بأن هذه القضية يجب أن تحظى منذ الآن باهتمام كبير، لقد بدأ عدد من المسؤولين في البيت الأبيض، ووزارتي الخارجية والمالية، الأمريكيتين ومن صندوق النقد الدولي، بدأوا يفكرون ويتناقشون ويخططون حول هذا الموضوع، وهم في دراساتهم وتقاريرهم،، يأخذون بعين الاعتبار استمرار أو تغيير عوامل عديدة في المستقبل، مثل سعر النفط، كمية الإنتاج، ما يحتاجه الغرب، ما يجمعه العرب من أموال وما يصرفون منها وما يدخرون، وتأثير جميع هذه العوامل على اتجاه الحركات الاشتراكية في العالم العربي وعلى الصراع العربي الإسرائيلي.

يذكر المسؤولون أن دول الشرق الأوسط المنتجة للنفط، ستجمع ما لا يقل عن ألف مليار دولار خلال الثلاثين سنة القادمة، كما يذكرون أنّ الاحتياطات المالية لدى هذه الدول تضاعفت خلال عام واحد.

لا يختلف اثنان في كون انقطاع نفط الشرق الأوسط يضر كثيرًا بصناعة الدول الغربية وبنمط حياتها وباقتصادها، فوزارة الخارجية الأمريكية تعتقد أنه بعد 1977 ستزداد حاجة الدول الغربية للنفط بحيث أن قرار دولة عربية واحدة بإيقاف نفطها سيخلق أزمة.

أما الخطر الثاني الذي يتوقعه بعض رجال الأعمال والزعماء في الغرب فهو استعمال الدول العربية لما ستحصل عليه من المبالغ الضخمة للتأثير على العملات الغربية، وللضغط على الغرب خلال الأزمات السياسية. ويعتقد هؤلاء المسؤولون أن ضراوة الحروب والمنافسات السياسية قد بدأت تخف، وأن منافسات المستقبل وحروبه ستكون في الميادين الاقتصادية والتجارية.

ومن المعروف أن عملات الدول الغربية في الأسواق الدولية تشبه البضاعة وتخضع لقانون العرض والطلب، وعندما تشبع السوق بعملة ما، مثلما حدث للدولار مؤخرًا، تنخفض قيمتها. ويخشى رجال الأعمال في الغرب أن يتربص المسؤولون العرب بالعملات الغربية أزمة ثم يلقوا ما في خزائنهم وبنوكهم من تلك العملة في الأسواق أو يهددوا بذلك، ما لم يحصلوا على تنازلات سياسية تخدم مصالحهم!

لقد قامت إسرائيل بهذه المناورة فألقت بما كانت تملك من الفرنكات الفرنسية في السوق، وفعلت ذلك في وقت حرج كانت فيه العملة الفرنسية تعاني أزمة، وقامت إسرائيل بذلك انتقامًا من حكومة الرئيس السابق ديغول، بسبب وقف إرسال الأسلحة إليها بل أن ديغول نفسه استعمل نوعًا من هذا الضغط عندما طالب أمريكا بإبدال مبلغ من الدولارات الموجودة في الخزينة الفرنسية، بالذهب ليظهر عدم ثقته بالدولار.

ويقول السيد جيمز إيكنز، رئيس دائرة النفط والطاقة في وزارة الخارجية الأمريكية بأن المسؤولين العرب قد ناقشوا مثل هذه الخطة

في أحد اجتماعاتهم في الكويت وأن اقتراحًا قدم يدعو الحكومات العربية الثرية أن تنقل أموالها من بنك دولي إلى آخر كإنذار في حالة ما إذا عزمت دولة غربية اتخاذ إجراءات معادية للمصالح العربية؟

ويدعى السيد جيمز إيكنز أن الحكومة الليبية قامت بعملية مشابهة منذ أكثر من سنة، عند ما سمحت بريطانيا لإيران باحتلال الجزر الصغيرة الثلاث الموجودة في الخليج العربي، عندئذ حولت مبالغ تتراوح بين نصف مليار ومليار دولار من بريطانيا إلى بنوك أوروبية.

ويقول بعض رجال الأعمال أنه بينما لا يوجد في الخزينة الأمريكية من الذهب إلا ما يغطى قيمة اثني عشرة مليار من مجموع الدولارات المنتشرة في العالم، وذلك مقابل عدد من السكان يتجاوز مائتي مليون نسمة، فإننا نلاحظ أن بعض الدول العربية والمشيخات الغنية بالنفط قد بدأت تكدس عدة ملايير من العملة الصعبة وذلك مقابل عدد من السكان قليل جدًا بالنسبة إلى سكان الولايات المتحدة، ويخشى الزعماء الغربيون أن هذه الدول تستعمل ما لديها من أموال لشراء الذهب أو للضغط السياسي.

بل يذهب بعض رجال الغرب إلى أبعد من ذلك فينتقدون ازدياد نشاط بعض الدول العربية في منطقة البحر المتوسط وفي أفريقيا، ويعتقدون أن في ذلك تهديدًا مباشرًا لأمن وازدهار إسرائيل، وللمصالح الغربية. وقد أطنبت بعض الجرائد الأمريكية في المقارنة بين ما وَصَفَتْهُ «بالمساعدات المالية الضخمة» التي تقدمها دول الخليج العربي إلى الحركة الثورية الفلسطينية وبين ما تقدمه الولايات المتحدة

من مساعدات إلى إسرائيل، ولا يخفى على القارئ ما في هذه المقارنة من إجحاف ومبالغة وتجاهل للحقائق.

ومن جملة ما يتخوف منه الغربيون زعمهم بأن بعض الدول العربية قد تستعمل «أموال النفط الضخمة» لشراء أسلحة حديثة وتكوين جيوش قوية تستعمل للضغط على جيرانهم وعلى الدول الصغيرة التي تحتاج إلى المساعدة المالية.

وأشار أحد المسؤولين إلى تردد بعض الحكومات العربية في الشرق الأوسط في توظيف مبالغ كبيرة لتطوير الشعوب العربية ونمو اقتصادياتها، فقال أنه لا بد للحكام العرب من صرف بعض الأموال المتراكمة والتي تزيد عن حاجياتهم في شراء أسلحة حديثة وإتباع سياسة توسعية!! ويذكر هذا المسؤول مثال العراق التي حسب قوله اشترت طائرات مقنبلة حديثة من الاتحاد السوفياتي، وذكر أنه يمكن لهذه الطائرات أن تصل إلى روما وتعود للعراق، بدون توقف!! وأضاف: أن العراق تحصل على عشرة ملايير من الدولارات سنويًا وأنها تقدر على صرف نصف هذا المبلغ لشراء أسلحة حديثة.

والواقع أنه لا يخفى على أحد ما في هذه المزاعم من تضليل وتشويه للحقائق، ولا داعي للتعليق على تخوفات بعض رجال الغرب لأنها تنم بوضوح عن عقول حاقدة جاهلة وأفكار استعمارية بالية، وأنانيات تغذيها الغيرة تجاه تلك الدول التي ما زالت تعيش في فقر وحرمان إلى أن أنعمت عليها الطبيعة وكشفت في أراضيها حقول النفط والغاز، وكل ما يتمناه العربي عندما يسمع أو يقرأ حول سخرية

بعض رجال الغرب وادعاءاتهم هو أن تتفطن بعض البلاد العربية إلى ما في أرضها من قوة وخيرات وأن تستغلها بحكمة ومعرفة تعرب عن نضوج وخبرة.

إن بعض الخبراء من الغرب والشرق يؤكدون بأن إنتاج النفط في الشرق الأوسط سيستمر في الارتفاع والتوسع بنفس معدل الازدياد الحالي إلى ما بعد نهاية القرن العشرين.

وقد صرح أحد الخبراء بأن الدول العربية المنتجة للبترول، ستستمر في الإنتاج فقط ما دامت قادرة على توظيف واستغلال الأموال التي تقبضها في مشاريع مفيدة ولذلك لابد لهذه الدول من استعمال الحكمة والتخطيط في مقادير إنتاج النفط وفي تحقيق المشاريع الاقتصادية.

هناك مثل أمريكي يقول: «تحدث بلطف، واحمل عصا غليظة» ويقول تاريخ العرب الحديث على عكس ذلك، ما زالت لغة العصر هي لغة القوة والقوة تكمن في قوة الاقتصاد، والحرية تساوي قوة الاقتصاد، بل الاقتصاد القوي هو العصى الغليظة.

20/03/73

*****

الوعي القومي يضاعف النشاط الاقتصادي في بعض دول أمريكا الجنوبية

ليست القارة الأمريكية هي الولايات المتحدة وحدها، بل هناك ما يزيد على عشرين دولة إلى جنوبها، ولقد طغت قوة واشنطن لمدة عشرات السنين على جاراتها واعتبرتهم تحت حمايتها، وبينما كانت أمريكا توجه اهتمامها إلى أوروبا وآسيا والشرق الأوسط، كان الوعي القومي والشعور الوطني ينتشر ويزداد عمقًا في كثير من دول أمريكا اللاتينية.

تجاهلت بعض دول أمريكا الجنوبية العوامل التاريخية والحضارية المهمة التي ترتبط بتكوينها البشري، وظلت عشرات السنين تعيش تحت شعارات وتأثيرات أجنبية، فساعد ذلك على إضعاف عزيمة السكان وجعلهم يشعرون كأنهم أجانب في بلادهم، ومما زاد الحالة سوءًا أن شؤون البلاد بقيت لمدة طويلة تسير من طرف عسكريين شجعتهم وساندتهم الولايات المتحدة.

«ما أبعدنا من الله وما أقربنا من أمريكا» هذا قول شائع على ألسنة المكسيكيين، وهو يعبر عن تذمرهم وشكواهم من الظروف التي جعلت بلادهم قريبة من هذا الجار الجبار، وقد تحمل شعب المكسيك، لسنوات طويلة ظلم جاره الشمالي، وكان لا بد له أن يختار بين

الخضوع لأمريكا وبين العمل على جعل المكسيك دولة قوية والدفاع عن استقلالها، ومن ناحية أخرى كانت المكسيك هي الدولة الأولى في أمريكا اللاتينية التي رفضت أن تبقى مختفية وراء شعارات مجد أسبانيا القديم وشرعت في بناء استقلالها.

وهكذا بدأ أثرياء المكسيك الذين كانوا يستثمرون أموالهم في الخارج يوجهون اهتمامهم إلى بلادهم، كما بدأ الخبراء والمثقفون ورجال الأعمال والمدراء يرجعون إلى المكسيك للمساهمة في بناء وطن قوي.

وبدأ الوعي القومي والثقافي ينتشر، وشعر المستثمرون الأجانب بأن نتيجة هذا الوعي ستسفر عن المزيد من التضييق على العمليات الاقتصادية الاستغلالية التي يقومون بها، وبعد فترة من الزمان ثبت الاقتصاد المكسيكي دعائمه وبدأت صادراته ورؤوس الأموال المكسيكية تجد أسواقًا رائجة في الدول اللاتينية المجاورة.

ولابد من الإشارة إلى أن اقتصاديات بعض دول أمريكا اللاتينية ظلت تعتمد على إنتاج زراعي واحد مثل القهوة في سلفادور، والقطن في نيكاراقوا، وظل بعض هذه الدول يعيش تحت نظام شبه فيودالي، وكانت الأسواق الداخلية صغيرة فلم تستطع إنشاء الصناعات التي تعتمد على الاستهلاك الواسع، أما السوق المشتركة لدول أمريكا الوسطى فقد أنهارت في العام الماضي، بعد أن بنيت عليها آمال كبيرة.

يسود الشعور في المكسيك بأن الوقت قد حان للحد من غزو الاستثمارات والشركات الأجنبية لأسواق المكسيك، فقد أعلنت

الحكومة مؤخرًا بأنها ستلح على مشاركة أكبر في مجال الاستثمارات الأجنبية وقد أحدث هذا التصريح ضجة في بعض الأوساط الأمريكية.

يكاد يشعر المتجول في بعض شوارع العاصمة المكسيكية أنه في أمريكا، عندما يشاهد أنواع المنتجات، وأسماء الدكاكين، ولما يسمع من ألحان موسيقية أمريكية، ويرى من عشرات المطاعم التي لا تقدم إلا الأكل الأمريكي. كما يشاهد كثيرًا من المصنوعات الأمريكية من معجون الأسنان إلى أنواع السيارات والبرامج الرياضية والتلفزيونية الأمريكية.

وقد اتجه نشاط الحكومة المكسيكية خلال عام 1972 إلى إقناع المستثمرين الأجانب، سواء من أوربا أو اليابان أو الولايات المتحدة، بأن الوقت قد حان لإنقاذ الاقتصاد المكسيكي من السيطرة الأجنبية، وقد أوضح الرئيس اتشافاريا هذه الرغبة عندما أرسل للبرلمان المكسيكي في ديسمبر الماضي مشروع قانون حدد فيه أنواع المشاريع التي يمكن للأجانب أن يستثمروا فيها أموالهم ومقادير المبالغ المستثمرة ومدى مراقبتهم على هذه المشاريع، كما بين أنواع العقوبات التي يمكن فرضها على الذين يخالفون هذه القوانين، وينتظر أن يصبح هذا المشروع قانونًا قريبًا.

ويبدو الآن بوضوح أن شعب المكسيك وزعماءه قد رفضوا فكرة بقاء الاقتصاد الوطني تحت رحمة الاقتصاد الأمريكي، أو أن يسمحوا لثقافة وتدخلات جارهم الكبير من الشمال أن تغير معالم حضارة البلاد وقوميتها.

ومن جملة التطورات التي حدثت خلال عام 1972 في المكسيك أن الحكومة ضاعفت سلطتها على شركات التلفون والمواصلات، واستولت على شركة أمريكية كبيرة، كما أصدرت قرارًا يستوجب ملكية الشركات الوطنية لستين بالمائة من إنتاج آلات وقطع الغيار للسيارات.

كما حددت الحكومة مقدار ونوع التكنولوجية التي يمكن للشركات الأجنبية أن تستوردها إلى بلاد المكسيك، ومعنى هذا إنه إذا كان في نية هذ الشركات أن تأتي إلى المكسيك لصنع الطائرات النفاثة أو الأدمغة الإلكترونية فمرحبًا بها، أما إن كانت ترغب في الاستيلاء على الصناعات الخفيفة فهذا غير ممكن.

ولا شك أن المكسيك من الدول النامية التي قطعت شوطًا كبيرًا في مجال النمو الاقتصادي، فقد بلغ معدل النمو في عام 1972 خمسة بالمائة، وتشير الإحصائيات الموثوقة بأنه سيبلغ في العام الحالي ستة بالمائة، ورغم محاولات المكسيك لتنويع أسواقها، سواء بخصوص صادراتها أو وارداتها فإن الولايات المتحدة ما زالت أكبر سوق لمنتجات المكسيك، إذ بلغ ما استوردته المكسيك من أمريكا في عام 1972 اثنين وستين بالمائة من مجموع وارداتها، وزاد ما صدرته إلى أمريكا على سبعين بالمائة من مجموع الصادرات.

وهناك دولة أخرى في جنوب أمريكا يختلف الوضع فيها عن بقية دول أمريكا اللاتينية هي البرازيل، لقد ساعدت ظروف البلاد الجغرافية واللغوية (اللغة البرتغالية) على عزل البرازيل في الماضي،

فالشخص البرازيلي لا يشعر بالحنين والارتباط بأروبا كما يشعر مثيله في بلاد أمريكا اللاتينية، لمن يلتفت البرازيلي يا ترى؟

هل يلتفت إلى دولة البرتغال الفقيرة الصغيرة الاستعمارية المتخلفة؟! وماذا قدمت البرتغال للبرازيل ما عدا اللغة؟ إن تفكير الشخص البرازيلي وفنه وموسيقاه ونمط حياته يختلف تمامًا عن تفكير وحياة الشخص البرتغالي، بل لا يهتم البرازيلي كثيرًا بما تصدره أوروبا من المظاهر الثقافية والحضارية مثلما يهتم سكان أمريكا اللاتينية الذين يتكلمون اللغة الإسبانية. ولكن خلال فترة الانعزال الطويلة كانت البرازيل تقترب من الدول الصغيرة المجاورة لها فبنت الطرق والسكك الحديدية عبر الغابات والفيافي وبدأت الاتصالات التجارية تنمو ولو على مستوى قليل.

أما اليوم فقد بدأ بعض المراقبين الاقتصاديين يعيرون اهتمامًا متزايدًا للبرازيل، ويشيرون إلى أنها ستكون «يابان» أمريكا الجنوبية، وبالفعل يسعى شعب البرازيل جاهدًا لخلق صناعة قوية مستغلاً الموارد الطبيعية الواسعة واليد العاملة الرخيصة. قال وزير التخطيط البرازيلي السابق إن بلاده اليوم أشبه باليابان قبل خمسة عشر عامًا، بل يضيف بأن هناك مزايا اقتصادية في البرازيل لم تحظ بها اليابان، من ذلك أن العامل البرازيلي يتقاضى ربع الأجور التي يتقاضاها الياباني، والبرازيل لا تستورد المواد الخام والغذائية مثل اليابان، كما يمكنها استعمال أحدث الوسائل التكنولوجية وبناء أحدث المصانع، وباستطاعتها أن تتجنب كثيرًا من مشاكل التلوث الموجودة في اليابان.

وقد بدأ اقتصاد البرازيل ينافس منتوجات البلاد المجاورة وخاصة الولايات المتحدة. فكيف يمكن لمصنع أحذية مثلاً في أمريكا أن ينافس مصنعًا مماثلاً في البرازيل إذا عرفنا أن هذا الأخير يدفع سدس أجرة اليد العاملة التي يدفعها المصنع الأمريكي ويتمتع بنفس التكنولوجية وموارد واسعة من المادة الخام، ويمكن أن يقاس نفس المثال على صنع السيارات في البرازيل.

فتحت شركة فورد للسيارات مصانع في البرازيل لاستغلال هذه التسهيلات في اليد العاملة والموارد الطبيعية، وستبدأ بشحن مائتي ألف محرك إلى أمريكا في عام 1974، كما تنوي شحن بعض القطع الأخرى للسيارات وتجميعها في الولايات المتحدة، أما صناعة السيارات في البرازيل نفسها أي من قبل الشركات البرازيلية فقد أنتجت في عام 1972 حوالي ستمائة وخمسين ألف سيارة.

كما يحاول البرازيل أن يلعب دورًا كبيرًا في اقتصاد الدول الصغيرة المجاورة بتقديم القروض واستثمار الأموال الزائدة في هذه البلاد مثل الأرغواي والأرجنتين وبوليفيا والبراغواي.

27/3/73

*****

التنمية الاقتصادية بين البلدان المصنعة والنامية

تجري في العالم اليوم مساع حثيثة لإعادة تنظيم العلاقات الدولية على أسس جديدة، لذلك ينبغي على الدول النامية أن تكون في هذه المرحلة أكثر وعيًا ونشاطًا لحماية مصالحها، وأن توحد موقفها للضغط على الدول المصنعة لفتح المجال لها حتى تتمكن من استغلال حقها من الموارد الطبيعية.

تشير بعض الإحصاءات إلى أنه خلال العشر سنوات القادمة سيبلغ معدل الدخل الفردي في البلاد المصنعة حوالي مائة وخمسة وسبعين دولارً بالأسبوع بينما سوف لا يتجاوز معدل دخل الفرد في البلاد النامية، التي يزيد عدد سكانها على مليارين ونصف نسمة، على خمسة دولارات أسبوعيًا.

وإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى الولايات المتحدة التي لا يزيد عدد سكانها على ستة بالمائة من مجموع سكان العالم فإننا نجد أنها تستهلك حوالي أربعين بالمائة من المواد الأولية والطاقة المنتجة في العالم، كما أن أمريكا لا تدفع في الوقت الحاضر أكثر من صفر فاصل سبعة بالمائة من مجموع إنتاجها القومي كمساعدة للتنمية الدولية.

وبالرغم من أن هذه الأرقام تفصح عن الاستغلال وعن الهوة الموجودة بين الدول الغنية والنامية، فإننا نسمع يومًا بعد يوم أن المسؤولين في البلاد الغربية لا يعيرون اهتمامًا لهذا الخلاف والتباعد المتزايد بين الدول المصنعة والنامية ولا يسعون لخلق تعاون اقتصادي عادل يمكن جميع دول العالم من الاستفادة من خيرات وموارد الكرة الأرضية.

بدأت تسيطر على أكثر المجتمعات الغربية موجات من الخوف والأنانية وأصبحوا لا يهتمون بما يجري في البلاد النامية إلا بالمواضيع التي تشبع فضولهم، ولا ريب أن هذه المجتمعات الغربية نفسها تعاني من مشاكل البطالة والجرائم والمخدرات والتضخم والتلوث.

إن الأغلبية الكبيرة من الناس في أمريكا الشمالية لا يعرفون كثيرًا عن مشاكل الدول النامية وما تبذله من جهود في سبيل النمو الاقتصادي، كما أن الحكومات والإدارات المسؤولة لا تقوم بنشاط لتوعية الجماهير بما يجري في الدول النامية من أجل تحقيق مستوى أفضل من الحياة للسكان.

وينظر الرجل الغربي عادة إلى مساعي ومجهودات ومشاريع التنمية في البلاد النامية نظرة سطحية، مصحوبة باليأس واللامبالاة، ذلك لأنهم لا يرون في هذه المشاريع ولا يقرأون عنها في الصحافة الغربية غالبًا إلا ما يتعلق بإنشاء سد أو بناء طريق أو مستشفى ويجهلون الأهداف التي ترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع قيمة الإنسان وتوزيع الثروة العامة بصفة أكثر عدالة والقضاء على الجهل والتخلف والاستبداد.

لقد اقترح بعض الاقتصاديين على الدول المصنعة فرض ضريبة على مواطنيها تدعى «ضريبة النمو الدولي» وتستعمل لمساعدة بعض الدول الفقيرة، وليست هذه الفكرة جديدة لأننا نلاحظ أنه منذ بدأت المنظمات الدولية تنتشر أصبح سكان العالم يدفعون ما يشبه الضريبة الدولية لمختلف المنظمات مثل البنك الدولي وهيئة الأمم المتحدة وغيرهما.

وتكمن الصعوبات التي تواجه هذا الاقتراح في كون الدول المصنعة تعتبر هذا الاقتراح، وما ينتج عنه من جعل مواطني دولة يساهمون في مساعدة دولة أخرى، تدخلاً في الشؤون الداخلية وتعهدا يفرض على مواطنيها واجبات تربطهم بالمجموعة الإنسانية بصفة مباشرة.

أما الذين يؤيدون هذا الاقتراح فيؤكدون بأن قضية النمو في العالم أصبحت تهم جميع الشعوب، وأن مصير البشرية أصبح في حاجة إلى التضامن والتعاون، وأن مشكلة المساعدات الاقتصادية أصبحت من الأهمية بحيث لا يجوز أن تبقى محصورة في أيدي عدد من الزعماء، وأن الشركات الدولية والمنظمات العالمية والمؤسسات الكبرى كلها ينبغي أن تهتم بقضايا التنمية في العالم بدون تمييز.

لم تعد العلاقات بين الدول مبنية على مسائل السيادة والأمن فقط بل أصبحت المشاكل الاقتصادية تلعب دورًا أساسيًا، واقتصاد الدول يعتمد إلى حد كبير على النفط والغاز والمواد الأولية المستوردة من بقية أرجاء العالم، لذلك فإن تدهور العلاقات بين هذه الدول ودول العالم الثالث النامية سوف يؤثر على اقتصاد الدول المصنعة وإذا كان

نفوذ الدول النامية في منظمة عالمية كالبنك الدولي معدومًا فإن أصواتها بدأت تقوى في منظمة صندوق النقد الدولي وفي الأمم المتحدة ومنظمات أخرى إقليمية وعالمية بحيث أصبح في إمكان الدول النامية أن تهزم القرارات والمناورات التي لا تخدم مصالحها.

وبما أن العالم كله في السبعينات، يمر بمرحلة انتقالية يجري فيها سعي حثيث لإعادة تنظيم العلاقات الدولية على أسس جديدة، ولحل عدد من المشاكل الكبرى الراهنة على نمط أكثر عالمية، فإنه يجب على الدول النامية أن تكون أكثر وعيًا ونشاطًا وحذرًا لحماية مصالحها وخاصة في ميدان التجارة ونظام النقد الدوليين.

فكيف يمكن للدول النامية أن تقف موقف المتفرج بينما تقوم الدول الغربية بنشاط ومحادثات حثيثة لإدخال إصلاحات جذرية على نظام النقد الدولي؟ صحيح أن أندونيسيا تمثل الدول النامية في «لجنة العشرين» التي كلفتها مجموعة الصندوق الدولي بوضع قواعد وأنظمة جديدة لإصلاح حالة النقد الدولي.

ولكن الواقع هو أن الدول التي تتمتع بسلطة الإبرام والنقض في هذا الموضوع هي دول السوق المشتركة التسع وكندا واليابان والولايات المتحدة ودول أخرى مثل سويسرا والسويد، وأن نظام صندوق النقد الدولي الحالي يتطلب موافقة ثلاثة أخماس أعضائه قبل أن يصبح القرار نافذ المفعول.

ومن جملة القضايا الجديرة باهتمام الدول النامية بمناسبة

إدخال إصلاحات على نظام النقد العالمي هي قضية «حقوق السحب الخاصة» أو ما يدعى بالورق الذهبي. فقد أنشأ صندوق النقد الدولي حقوق السحب الخاصة هذه في عام 1969 كوسيلة جديدة لتوفير الاحتياط المالي وللمساعدة على توسيع التجارة الدولية بواسطة استعمال حقوق السحب الخاصة بدل الذهب والدولار.

ولكن هذا الحلّ كان في صالح الدول المصنعة أكثر من النامية لأن نسبة ما حصلت عليه كل دولة من حقوق السحب كان وفقًا للمبلغ الذي تشارك به في منظمة صندوق النقد الدولي، وبذلك سيطرت خمس وعشرون دولة غنية على خمسة وسبعين بالمائة من مجموع حقوق السحب الخاصة التي أنشئت في عام 1969، ومعنى هذا أن الدول الغنية أصبحت أقدر على توسيع تجارتها وعلى أن تزداد غنى من الدول النامية.

وإذا قلنا بأن دور التجارة الخارجية مهم جدًا في تطوير اقتصاديات البلاد، وأن نظامًا نقديًا عادلاً يساعد على توسيع التبادل التجاري بين جميع الدول كبيرة كانت أم صغيرة، فإننا ينبغي ألا ننسى أيضًا بأن عملية النمو والتطور الاقتصادي هي عملية تبنى على مشاركة كل مواطن في إنتاج شيء ما، إنها عبارة عن سلسلة متواصلة من الإنجازات والتحقيقات الصغيرة التي يقوم بها ملايين السكان وهو أقلّ ما يمكن أن يقال على الصناعات .

كما يجب الإشارة إلى أن تعبير «الدول النامية» يشمل دولاً عديدة تختلف في تقاليدها وأنظمتها السياسية وفي المناهج التي تتبعها

للتنميـة الاقتصادية بل وأيضًا في مدى تقربها من الشـرق أو الغرب، كما نجد من بينها دولاً غنية بالنفط أو الموارد الطبيعية الأخرى، ومنها دول قد قطعت شوطًا بعيدًا في سيرها نحو النمو، وأخرى ما زالت في نظام شبه فيودالي، كما أن فيها مجتمعات ينسجم فيها الحكام والمحكومون، ومجتمعات أخرى مغلوبة على أمرها ، لا يتمتع من نتائج النمو فيها إلا طبقات قليلة من ذوي النفوذ.

ولكن العوامل التي توحد هذه الدول ما زالت قوية، فهي كلها إما كانت محرومة ومستغلة أو أنها ما زالت تعاني من ضغط الدول المصنعة واستغلالها، كما أنها جميعًا تسعى للضغط على الدول الغنية المصنعة لاتخاذ القرارات السياسية المناسبة التي تفتح الباب أمام دول العالم الثالث للاستفادة والمشاركة في خيرات وموارد الكرة الأرضية.

27/08/73

*****

أضواء على نظام النقد الدولي

خلقت الأزمة التي هزت النظام الدولي في شهر أوت الماضي مهمتين أساسيتين، وطرحتهما على مجال المفاوضات الدولية. تتعلق المهمة الأولى بضرورة إعادة ترتيب الأسعار بين الدولار والعملات الهامة الأخرى في أقرب وقت ممكن، وقد نوقشت هذه المشكلة، ودرست في عدة اجتماعات مثل اجتماع صندوق النقد الدولي، الذي عقد بواشنطن في شهر سبتمبر الماضي.

وبعد تحديد أسعار جديدة لبعض العملات الهامة وتخفيض الدولار، بقي على الدول الغربية أن تقوم بالمهمة الثانية التي هي إعادة النظر في النظام المالي الدولي القائم الذي تزعزعت أركانه بعد أزمة أوت الماضي. ولا شك أن هذه المهمة تحتاج إلى مزيد من الدرس والوقت والمفاوضات.

وتوافق معظم الدول على إجراءات أساسية كمرحلة ضرورية لإنشاء نظام مالي سليم منها أن يكون نظام أسعار تحويل أو شراء العملات أكثر مطاوعة، وأن يمنع تنقل مقادير كبيرة من رؤوس الأموال التي تجوب أطراف العالم من دولة لأخرى باحثة عن الاستثمار القصير المدى، ومن هذه الإجرءات أيضًا أن يوضع حد للدور الذي يلعبه الدولار كعملة ادخار أو الحد من هذا الدور على الأقل.

والواقع أن الدولار إنما أعطي هذه الميزة عندما كان قويًا مسيطرًا، فقد أصبح اقتصاد الولايات المتحدة مسيطرًا على العالم بعد الحرب العالمية الثانية وكانت بقية دول العالم في حاجة إلى بناء اقتصادها وصناعتها، وبما أن المصدر الوحيد الفعال للتمويل كان يوجد في الولايات المتحدة فقد رحبت الدول الأخرى بالدولار الذي كان آنئذ يفضل على الذهب نفسه في كثير من الحالات.

لعب الدولار ثلاثة أدوار رئيسية في النظام المالي الدولي:

- دور العملة الرئيسية للمعاملات الدولية في مجال التبادل التجاري والمالي.
- كوسيلة للادخار لدى الدول.
- كواسطة تستعملها البنوك المركزية لجلب الاستقرار لعملاتها في أسواق التبادل المالية.

ومن المعروف أن الدولار كان، حتى أوت الماضي، العملة الوحيدة القابلة للاستبدال بالذهب، وقد أعطى هذا الوضع للدولار منذ تأسيس صندوق النقد الدولي، وأصبحت قيمة العملات الأخرى تقوم إما بالدولار أو بالذهب، ومعنى هذا أنه وإن كان الدولار نفسه يقوم بالذهب فإن العملات الأخرى بقيت مرتبطة به. وبموجب قوانين صندوق النقد الدولي الحالية لا يسمح لأسعار العملات أن تتغير إلا في حدود بسيطة. والسؤال الآن هو هل يتوقع، بعد الأزمة النقدية، هل يتوقع من الدول الأعضاء في منظمة صندوق النقد أن تحافظ على أسعار تحويل عملاتها في الحدود المعيّنة؟

والواقع أن البنوك المركزية ما زالت تلجأ لبيع أو شراء عملاتها من الخارج لكي تحافظ على توازن العرض والطلب الدوليين على عملاتها، ومن ثم المحافظة على أسعارها في الحدود المعينة من طرف الصندوق الدولي. وهذه هي الكيفية التي يحدد بها ما يسمى بالعجز أو الزيادة في الميزانية. فإذا وجدت دولة مثلاً نفسها مضطرة لشراء عملتها باستمرار بغية المحافظة على السعر، فهي لا شك تخسر كميات كبيرة من الدولار الذي يستعمل في عملية الشراء وبذلك تصبح في عجز، كما أن الدولة التي تبيع باستمرار عملتها للخارج للمحافظة على السعر، تقبض مزيدًا من الدولارات في العملية وتصبح تتمتع بفائض.

وينصح الاقتصاديون عادة الدولة ذات العجز بأن تخفض من نشاطها الاقتصادي المحلي كوسيلة لإصلاح الوضع، غير أن الحكومات تعرض عن اتخاذ إجراءات من شأنها أن تخلق مزيدًا من البطالة، في سبيل إنقاذ سعر العملة، ونلاحظ من مشاهدة الوقائع في بعض الدول الغربية أن الحكومات تظل تماطل باتخاذ قرارات حازمة بتخفيض قيمة العملة لإنقاذ الميزانية من العجز لأن ذلك التخفيض يعني الاعتراف بغلطات اقتصادية أو سياسية سابقة، كما أن له تأثيرًا على سمعة الحكومة المعنية. إن تخفيض سعر العملة يؤدي إلى رفع أسعار البضائع المستوردة، ولذلك تلجأ الدول ذات العجز إلى الاستقراض من صندوق النقد الدولي وتفضل تأجيل تخفيض عملتها إلى أن تضطرها الظروف لذلك.

وهذا ما حدث لبريطانيا التي ظلت تؤجل عملية التخفيض من

سنة 1964 إلى 1967، وكل ما نالته خلال فترة المماطلة، هوَ رُكودُ اقتصادها وازدياد مبالغ الديون الخارجية.

أما الدولة التي تتمتع بفائض في ميزانيتها فهي التي لديها مبالغ من العملات أو الذهب أكثر مما تحتاج إليه. وهذه الحالة قد تؤدي إلى عدم تشجيع الاستيراد وإلى التضخم، كما تنشط التصدير وتؤثر بصفة عامة على الاقتصاد الدولي لأن تراكم المبالغ الكبيرة في ميزانية دولة أو عدد من الدول بصفة مستمرة يؤدي إلى عجز في ميزانيات دول أخرى.

ويلاحظ أن الدول ذات الفائض تتردد في معالجة الوضع برفع قيمة عملتها إلى أن تصبح بنوكها ممتلئة بالعملات الأجنبية كما حدث في ألمانيا في خريف 1969، وسبب هذا التردد واضح أولاً لأن تجار الدولة ذات الفائض لا يرغبون في رفع أسعار البضائع التي يصدرونها لأنهم عندئذ لا يتمتعون بقدرتهم على المنافسة في الأسواق الدولية، وثانيًا فقد جرت العادة أن تعتبر الدولة التي تتمتع بالفائض أيضًا باقتصاد قوي سليم.

أما دور صندوق النقد الدولي في هذا المجال فهو لا يكاد يذكر. بل إنه يتخذ إجراءات ضد الدول ذات العملات الضعيفة التي تلجأ للاقتراض منه بغية تقوية عملتها فيفرض عليها الصندوق شروطًا كلما طلبت الدولة مزيدًا من القروض. وهذا ما يحدث عادة للدول النامية التي لا تلعب عملتها دورًا كبيرًا في المجال الاقتصادي العالمي.

ويعتقد الخبراء الماليون بأن النظام المالي الدولي الحالي سيصبح أقوى إذا سمح لسعر العملات الهامة أن يصبح أكثر مطاوعة وأقل صلابة، بل إن بعضهم يدعو إلى اتخاذ نظام «الأسعار السابحة» للعملات المختلفة. عندئذ يتكون سعر أية عملة نتيجة للعرض والطلب في السوق وهذا يؤدي إلى القضاء على مشكلة العجز والفائض في ميزانية أية دولة. فالسوق هنا هي التي تحافظ على التوازن. وهذا الإجراء، في رأي هؤلاء الخبراء، يجعل كل دولة حرة في إدارة سياستها الاقتصادية دون الاهتمام بتوازن نسب أسعار العملات إذ أن حركة الأسعار توازن نفسها وتحافظ على توازنها ضد كل اختلال. ويؤدي من جهة أخرى إلى جعل قضية الادخار أكثر بساطة وسهولة سواء كانت بواسطة الدولار أو الذهب أو الجنيهات..

غير أن رجال البنوك والأعمال يعارضون فكرة «الأسعار السابحة» للعملات بحجة أنها تعرقل حركة التبادل التجاري الدولي ولأنهم في حاجة إلى أسعار ثابتة لتحقيق الاستثمار وتنمية التجارة.

ومن الواضح أن الدول لا ترضى أن تتخلى عن سلطتها على أسعار عملتها، تاركة ذلك لحركة العرض والطلب، لأن التفاوت المتباين بين أسعار العملات المختلفة يمكن أن يتسبب في نتائج وخيمة على الصناعة واليد العاملة والدخل والأسعار إلخ.. وبذلك تواصل البنوك المركزية للدول المختلفة تدخلها في أسواق العملات لمنع أسعارها من الانخفاض أو الصعود المضّر.

ونظرًا لاختلاف الظروف الاقتصادية من دولة لأخرى فإن نظام

الصندوق الدولي يسمح لأية عملة أن تصعد أو تنخفض بنسبة واحد بالمائة من سعرها. ومعنى هذا أن سعر أية عملة يمكن أن يصعد أو ينخفض بنسبة واحد بالمائة قبل أن تتدخل البنوك المركزية وقبل أن يصل السعر أو يتجاوز أحد الطرفين.

فإذا وصل سعر العملة الحد الأدنى (ناقص 1٪) يكون من واجب البنك أن يشتري العملة بالدولار لمنع تدهور السعر. ومن جهة أخرى قد يظهر للبنك المركزي بيع العملة مقابل الدولار لمنع سعرها من تجاوز الحد الأعلى (زائد1٪)، وهذا يعني أن سعر العملة قد يواصل التصاعد في المستقبل كما حدث في ألمانيا.

وحتى تاريخ حدوث الأزمة النقدية بأوت 1971 فقد ظلت العملات تجول (تسبح) حول نسبة 3/4٪ (ثلاثة أرباع) من واحد بالمائة من سعر التحويل. أما الآن فقد أصبح كثير من الخبراء يقترح السماح لعملات بأن تنزل أو تصعد أسعارها بنسبة ثلاثة بالمائة في كل من الاتجاهين مما يجعل مجموع المجال المرخص ستة بالمائة. بدلاً من اثنين بالمائة المعمول به حتى الآن.

والمقصود من هذا الاقتراح هو جعل البنوك المركزية أقل تعرضًا من ذي قبل للضغط، إذ أن تدخلها للدفاع عن العملة، يصبح غير مقيد بنسبة ضعيفة أعني واحدًا بالمائة في كلا الاتجاهين.

وبالإضافة لذلك فإن توسيع المجال إلى ستة بالمائة يساعد على حل مشكلة أخرى مهمة تتعلق بقضية تنقل رؤوس الأموال من دولة

لأخرى بغية الاستفادة من تغير أسعار العملات، إن السماح للأسعار بالتغير بنسبة ثلاثة بالمائة في الاتجاهين دون تدخل البنوك يحدُّ فعلاً من نشاط رؤوس الأموال في المجال المذكور.

لقد أصبحت بعض الدول ذات الاقتصاد الحر تميل إلى مراقبة حركة رأس المال بطرق أخرى، وتعد فرنسا واليابان من الدول الراغبة في زيادة المراقبة بينما نجد أمريكا وكندا وألمانيا من بين تلك التي تتمسك بأدنى حد من المراقبة في هذا الميدان. أما الأموال التي تستعمل للاستثمار الطويل الأمد، فيترك لها عادة المجال والحرية بعكس ما يحدث مع رؤوس الأموال التي تهتم بالأمد القصير.

وبالإضافة إلى ما ذكر من توسيع مجال حركة أسعار العملات وجعلها أكثر مطاوعة، ومراقبة تنقل رؤوس الأموال للفترات القصيرة فإن إعادة تنظيم النظام المالي الدولي يهدف إلى إضعاف الدور الذي يلعبه الدولار. والسؤال هو: ما الذي يحل محل الدولار؟ لقد كثر الكلام على ما يدعى «بحقوق السحب الخاصة» التي أنشأها صندوق النقد الدولي في عام 1970، كعملة دولية للادخار، وازداد الاهتمام بهذه الفكرة بعد أوت 1971. فمن الواضح أنه للتقليل من دور الدولار لابد من إيجاد وسيلة أخرى تحل محله. ونلاحظ أن فرنسا نفسها التي طالما عارضت وماطلت فكرة «حقوق السحب الخاصة» بدأت الآن توليها مزيدًا من الاهتمام. وحقوق السحب هذه ليست عملة بالمعنى العادي بل هي مجرد أرقام تدُوّن في سجلات أو دفاتر صندوق النقد أو البنوك المركزية.

وبالرغم من أن الدولار هو القاسم المشترك بين العملات في النظام الحالي، وبالرغم من أهمية «حقوق السحب الخاصة» فكلاهما غير قابل للتحويل إلى ذهب في الوقت الحاضر. وبما أن سعر الذهب كوسيلة للإدخار ينبغي أن يبقى ثابتًا، ومن جهة أخرى يزداد الطلب على الذهب كبضاعة تستعمل في الصناعات وغيرها، فإن الفرق بين قيمة الذهب كوسيلة للادخار لدى الدول وقيمته كبضاعة تزداد اتساعًا وانتشارًا. وقد ينتهي الأمر إلى لجوء بعض الدول التي تختزن كميات كبيرة من الذهب إلى بيعها للحصول على الأرباح.

وفي حالة تناقص دور الدولار كوسيلة للنظام المالي الدولي فإنه لا بد من الإتفاق على إحلال حقوق السحب الخاصة أو بديل آخر كمعيار للنظام الجديد. بل إن بعض الخبراء يطالبون الآن بتقييم العملات بواسطة حقوق السحب الخاصة. ومن المهم الإشارة إلى أن الذهب سيحافظ على دوره في المستقبل القريب على الأقل، وتصبح حقوق السحب الخاصة مرتبطة به كما كان للدولار. غير أن للذهب مشاكله أيضًا. فمن المعلوم أن التبادل التجاري بين الدول قد تضاعف وهو يزداد اتساعًا بينما يجد الكميات المنتجة من الذهب قليلة ولا تكفي لمجاراة مستوى التبادل والنمو والإنتاج.

ويجدر بنا هنا أن نتساءل الآن عما دفع الولايات المتحدة إلى اتخاذ إجراءات أوت 1971، تلك القرارات المتشددة التي أحدثت ضجة في جميع أنحاء العالم، إن الأسباب طبعًا لم تحدث في شهر ولا في سنة، بل ظلت تتراكم لمدة من الزمن، بدأ عجز ميزانية الولايات المتحدة

في الخمسينات وبلغ أربعة ملايير في سنة 1959. وبدأت رؤوس الأموال الأمريكية تلجأ إلى بلاد أخرى لأن فائدة الاستثمار كانت أعلى منها في الولايات المتحدة، ومما زاد في عجزها عدم رغبتها أو قدرتها على مراقبة الأسعار والتكاليف داخل البلاد، وكذلك تورط أمريكا في حروب عدوانية كلفتها الملايير.

وبينما بلغت التزامات الولايات المتحدة تجاه الدول التي تدخر مبالغ من الدولارات والتي لها الحق في إبدالها بالذهب، بلغت حوالي ستين مليارًا من الدولارات لم يكن موجودًا سوى مقدار عشرة ملايير من الذهب في خزينة واشنطن، ولذلك أعلن نيكسون قراره بعدم صلاحية النظام الجاري وأن الدولار لا يبدل بالذهب.

والخلاصة أن الدول الغربية بصفة خاصة والدول المعنية بصفة عامة تسعى لإنشاء نظام مالي مناسب ومطاوع بحيث ينسجم مع كميات التبادل التجاري والاستثمار المتزايد، ويسهل جميع العلاقات والمعاملات الدولية دون التعرض إلى الأزمات كما حدث في الماضي.

19/04/73

*****

تدخلات واشنطن في الشيلي

بدأت تتكشف تفاصيل قصة تدخل المخابرات الأمريكية والشركة الأمريكية الدولية للتليفون والتلغراف، ضد انتخاب السيد ألَنّدي كرئيس للحكومة الشيلية في عام 1970.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تدخلت فيها وكالة التجسس الأمريكية في الشيلي، ففي عام 1964 وقع تدخل سافر وبعثت الحكومة الأمريكية حوالي مائة شخص «من الخبراء في شؤون أمريكا الجنوبية» للعمل ضد انتخاب السيد ألَنّدي، كما صرفت أموالاً ضخمة لمصلحة المرشح الموالي لسياستها والعمل على إنجاحه في الانتخابات.

وقد بدأت تتكشف أسرار نشاط التجسس الأمريكي في الشيلي خلال انتخابات 1964 و1970 نتيجة للاجتماعات الاستجوابية التي عقدتها لجنة فرعية للجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الكونغرس الأمريكي، وقد قرر هذا الأخير إجراء تحقيقات في نشاط الشركات الكبرى وتدخلاتها في السياسة الخارجية.

وتشير نتائج الاستجوابات إلى أن شركة التليفون والتلغراف الدولية قامت بنشاط كبير وبذلت مجهودات متعاونة مع قلم المخابرات الأمريكية لمنع البرلمان الشيلي من تنصيب السيد ألَنّدي كرئيس للشيلي. ومن جملة الأسباب التي دفعت الحكومة الأمريكية إلى

التدخل هي أن السيد ألنّدي صرح خلال المعركة الانتخابية بأنه سيتبع سياسة اشتراكية وأنه سيؤمم مصالح الشركات الكبرى.

إن شركة التليفون والتلغراف العالمية المشار إليها تعمل في أكثر من سبعين دولة وتأتي في الدرجة الثامنة بين الشركات الأمريكية الضخمة، وقد بلغ ربحها حوالي تسعة ملايير من الدولارات في عام 1972.

وقد تبين خلال الجلسات التي عقدتها لجنة الكونغرس الفرعية المشار إليها، وبعد استجواب عدد من الموظفين الذين شاركوا في عمليات التجسس في الشيلي في عام 1964 و1970، تبين تآمر الشركات الأمريكية مع المسؤولين في واشنطن للعمل على تنفيذ سياسة واحدة.

فبينما كانت إدارة جونسون ونيكسون تسعى لمنع السيد ألندي من الفوز في الانتخابات خوفًا من أنه سيتبع سياسة اشتراكية، كانت الشركات الكبرى في الشيلي تسعى لنفس الهدف خشية من التأميم الذي يصيب مصالحها في حالة نجاح حكومة اشتراكية.

وخلال الجلسات التي عقدتها اللجنة اعترف السيد برو، وهو موظف في وكالة المخابرات، بأن الاتصالات والعمليات التي قام بها في الشيلي، بما في ذلك اتصالاته بشركة التليفون والتلغراف الدولية، كانت قد حظيت بموافقة المسؤولين الأمريكان الكبار، كما اعترف بأن النشاط الذي قاموا به كان يهدف إلى تخريب الاقتصاد الشيلي ونشر

الشكوك والفوضى، والتأثير على البرلمان لمنعه من انتخاب السيد سلفادور ألندي كرئيس للجمهورية.

ووصف السيد برو المخطط بأنه كان يهدف إلى تنسيق التعاون بين رجال قلم المخابرات ومسؤولي الشركة الدولية للتليفون والتلغراف لتوجيه مجهودات الشركات الأخرى في الشيلي واستعمالها للضغط على الاقتصاد، ومن ثم على النواب المحايدين لمنعهم من التصويت بجانب السيد ألندي، وقال إن قلم المخابرات كان قد تنبأ بفوز السيد السندري مرشح الحزب المحافظ، وكم كانت دهشة المسؤولين كبيرة عندما علموا بنجاح السيد ألندي في عام 1970.

وتذكر بعض الصحف بأن الحكومة الأمريكية وعدت شركة التليفون والتلغراف بمنحها امتيازات وتسهيلات جديدة إذا نجحت مساعيها وتدخلها في الشيلي، وقد صرح السيد كسنجر، بعد أن تم انتخاب السيد ألندي، بأن وجود دولة اشتراكية أخرى في أمريكا الجنوبية يعتبر خطرًا على المصالح الأمريكية وعلى الدول المجاورة.

كما تشير الجرائد إلى أنه من جملة نشاطات التجسس الأمريكي في الشيلي والمشاريع التي قام بها في عام 1964 أي خلال الانتخابات الرئاسية هي توزيع الأموال على الفلاحين، وتمويل الجرائد المعادية للسيد ألندي، ومدها بالخبراء في الدعاية والتضليل، ومساعدة الزعماء الموالين لواشنطن بالمال لإنشاء المشاريع وتوظيف العمال العاطلين بغية كسب تأييد منظمة العمال، وكان كل ذلك يجري بتدبير وتوجيه خبراء أمريكيين، تجاوز عددهم مائة وعشرين شخصًا.

وكانت هناك محادثات تجري في المدة الأخيرة بين الولايات المتحدة والشيلي لحل المشاكل التي ما زالت معلقة وخاصة مطالبة واشنطن بالتعويض على الشركات التي أممها الرئيس ألندي.

ويقال إن ما كشفته الاستجوابات التي قامت بها لجنة الكونغرس بخصوص الدور الذي لعبه بعض المسؤولين الأمريكان جعل الوفد الشيلي ينسحب من المحادثات بدون تعيين موعد لاستئنافها.

ولكن رئيس الوفد الشيلي صرح بأن وفده قد بذل مجهودات كبيرة لحل المشاكل المعلقة بين البلدين وخاصة مسألة التعويض عن شركات النحاس التي كانت تعمل في بلاده، وقال: إننا لم نجد تجاوبًا ورغبة من طرف الوفد الأمريكي».

ومن المعلوم أن حكومة الشيلي كانت قد أممت مناجم النحاس في عام 1971 بعد تحويل دستوري وافق عليه البرلمان بأجمعه، وكان هذا التعديل الدستوري قد خول الرئيس الندي أن يعوض على الشركات التي كانت تستغل هذه المناجم شريطة أن تحسب مبالغ الأرباح التي حصلت عليها وتطرح من مبلغ التعويضات، غير أن الحسابات أظهرت أن ما نالته الشركات يفوق مبلغ التعويضات.

وبينما كانت حكومة الرئيس الندي تؤكد خلال المحادثات بأنه لا بد أن يجري تعديل جديد على قرار البرلمان الشيلي قبل التفكير في دفع التعويض للشركات الأمريكية، كان موقف هذه الأخيرة موقف عناد وتهديد وعداوة.

03/05/73

*****

بعض عوامل التنمية الاقتصادية

عندما نلاحظ مجرى التطور الحضاري على مستوى عالمي نجد تفاوتًا في حياة الناس الاقتصادية والثقافية، وقد يكون هذا التفاوت على مستوى الأفراد أو الطبقات أو الأمم والأجناس، ونشاهد اليوم هوة تميز ظروف حياة وعمل شخص في دولة مصنعة عن حياة شخص في دولة نامية.

ولا تقتصر آثار هذا التفاوت ونتائجه على نوع السكن والأكل وظروف التعليم والعمل، بل تؤثر أيضًا على نمو الإمكانيات والقوى المنتجة، ويؤدي ذلك إلى اتساع الهوة وزيادة التفاوت في مستوى المعيشة لصالح الشخص في الدولة المصنعة.

والتفاوت في درجة النمو الاقتصادي على المستوى الدولي أخطر منه في نفس المجتمع، ونحن نلاحظ اليوم أن الدول المصنعة قد شيدت نظامًا سياسيًا واقتصاديًا استغلاليًا، تصاحبه تكنولوجيا قوية، وتدعمه حضارة تهدف إلى الإبقاء على هذا التفاوت والمساعدة على استغلال الدول النامية.

ولكن التطور التاريخي يبرهن على أن النضال من أجل المساواة والعدالة كان من أقوى العوامل التي أدت إلى تقدم الإنسان، فقد رفض الإنسان أن يظل خاضعًا على مر القرون، وكذلك نلاحظ اليوم تضاعف

المجهودات التي تبذلها المجتمعات النامية من أجل التقدم ومجابهة المشاكل الاقتصادية وتحقيق المطالب الدنيا لهذه المجتمعات (كالقضاء على الاستغلال والضغط الأجنبي والمشاركة في السياسة التي تتعلق بالموارد العامة) شرط ضروري للوصول إلى توازن اقتصادي دولي متكامل، وللتعايش السلمي بين مختلف المجتمعات.

ولا يعني هذا أن الدول النامية تنسى مشاكلها الخاصة وتجعل هدفها القضاء على التفاوت بينها وبين الدول المصنعة، إن لكل دولة تقاليدها وميراثها الحضاري ونظمها الاجتماعية، وقد تختلف مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية عن الدول الأخرى، ولذلك يجب أن يكون الهدف السعي لتحرير القوة الخلاقة في الإنسان وذلك بتحريره من الجهل والفقر والبطالة وتحقيق المساواة والعدالة.

وتلاقي الدول النامية اليوم في محاولاتها لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية تلاقي ضغطًا شديدًا وعراقيل مختلفة من قبل الدول المصنعة، ذلك لأن الأنظمة والأوضاع التي تسود العلاقات الدولية تساعد على جعل المجتمعات الغنية أكثر غنًى وسيطرة على الأسواق والموارد كما تضعف قدرة الدول النامية على المنافسة والنمو السريع.

ولا مناص للدول المتخلفة اقتصاديًا من أن تستعمل وسائل أكثر فعالية إذا أرادت أن تقضي على القوى المستغلة والعراقيل الأجنبية، ذلك لأن مجرد وجود دول أقوى صناعة وأكثر تقدمًا في المجالات العلمية كالدول الغربية، يجعل نمو الدول المتخلفة اقتصاديًا أبطأ وأصعب.

يمكننا إذًا أن نقسم العوامل والقوى المؤثرة على التنمية الاقتصادية إلى نوعين: الأول ناتج عن الأنظمة التي تسود العلاقات الدولية والثاني العوامل الموجودة داخل الدول النامية نفسها، وهذه الدول لا تستطيع أن تتحكم في النوع الأول، وقد يمكنها أن تستغل بعض الظروف السياسية لفرض إرادتها، ولكنها تستطيع أن تؤثر على العوامل الداخلية وأن توجه القوى المحلية ضمن علاقات جديدة من أجل التقدم والإنتاج والتنمية.

إن التفاوت الكبير بين الدول المصنعة والنامية يستدعى كثيرًا من الاهتمام، ولكن ليس من الضروري الانهماك والاقتصار على البحث في الأسباب التاريخية التي أدت إلى الوضع الراهن، بل يجب الاهتمام خاصة بما يمكن عمله لإصلاح هذا الوضع الشاذ.

توجد علاقة وثيقة ومباشرة بين نشاط مجتمع ما الاقتصادي وقدرته على الإنتاج، وبين مستوى المعيشة بهذا المجتمع، وهذا لا يعني تجاهل العوامل الخارجية، أعني الأنظمة التي تسود العلاقات الاقتصادية الدولية، بل هناك تأثير متبادل بينها وبين العوامل الداخلية. فالمهارة في الإنتاج، والمقدرة على تجديد القوى الداخلية، وقدرة المجتمع على التغيير والتلاؤم، إلخ قد تمكن من السيطرة على العوامل الخارجية أو على الأقل الاستفادة منها.

فإذا عجز مجتمع على تحسين فعاليته الإنتاجية فإنه يصعب عليه أن يغير مصيره، لأن العناصر الأساسية في التقدم الاقتصادي هي العوامل الداخلية، ولا يجوز الاستنتاج بأنّ هناك شعوبًا فقيرة لأن

مقدرتها الإنتاجية ضعيفة، ذلك لأن هذه المقدرة مميزة من مميزات كل مجتمع، فهي موجودة ولكنها غير مستغلة، وإذا نحن تَتَبَّعنا نمو بعض الدول مثل اليابان والاتحاد السوفياتي قبل وبعد الحرب العالمية الثانية تأكدنا من وجود هذه الكفاءة في جميع المراحل. فالمقدرة على الإنتاج إذا هي صفة للمجتمع وجزء منه، ولا علاقة لوجودها بالقواعد التناسلية للأجناس والأمم، غير أن هذه القدرة تتأثر سلبًا وإيجابيًا بالظروف التي يعيشها المجتمع وبالمؤسسات التي تنظم حياة الأفراد وأدوارهم داخل هذا المجتمع.

فدور الاستعمار مثلاً في استغلال الشعوب وعرقلتها على التقدم يعوق القدرة الإنتاجية للمجتمعات أو يستغلها ويسيء استعمالها. وبينما غيرت كثير من الدول الحجاب الاستعماري الذي كانت تختفي وراءه لاستغلال الشعوب نجدها اليوم تستعمل طرقًا مختلفة وملتوية لنفس الهدف، غير أن استقلال أكثر دول العالم النامي يمكنها من القيام بثورة داخلية لإيقاظ القوى المنتجة وتنشيط العوامل الاقتصادية الداخلية.

إن الانتقال من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث ومن حالة ركود إلى حالة تطور ومن الإنتاج الضعيف إلى النمو القوي يستدعى تغييرًا في الهياكل الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع. فسياسة النمو الاقتصادي تتلخص في القيام بثورة لتغيير المؤسسات والمعتقدات والعلاقات والأنظمة والتقاليد إلخ لأنه لا يغيّر الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فلا يمكن أن يوجد عمل بدون حركة ولا تقدم بدون تغيير، وأعني هنا التغيير الإيجابي المفيد الذي يخلق ديناميكية في القوى المنتجة وينشط ويوقظ القوى والمقدرة الإنتاجية الراكدة.

وبما أنه ليس من السهل إدخال تغييرات جذرية على الأنظمة المتجمدة والهياكل المألوفة والمعتقدات المسلم بها كان لا بد من ثورة اجتماعية وسياسية وأخلاقية وعلمية للقيام بالتغيير والمحافظة عليه.

11/06/73

*****

التسلح وتجارة الأسلحة

حاولت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى أن تنظم تجارة الأسلحة وخاصة ذلك القسم منها الذي يسيطر عليه أفراد يدعون «تجار الموت».

ولكن المنظمة الدولية لم تحصل على مساعدة الدول المعنية وفشلت مساعيها. وبازدهار اقتصاد وصناعة دول أوروبا الغربية خلال العشرين سنة الماضية ازداد إنتاجهم للأسلحة التي أصبح لها دور كبير في ميزانية التجارة الخارجية وتحتل أوروبا الغربية اليوم الدرجة الثالثة في إنتاج الأسلحة بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

وتجدر الإشارة إلى السياسة التي اتبعتها الدول الغربية بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق الأوسط إذ حاولت فرض أنواع من الأحلاف على دول المنطقة لحماية نفوذها، وحاولت منع الدول العربية من الحصول على الأسلحة من مصادر غير غربية. وقد كانت صفقة 1955 التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا مفاجأة وصدمة للدول الغربية.

لا شك أن العلم قد توصل إلى بعض النتائج المحدودة بخصوص مراقبة الأسلحة الاستراتيجية بين الدول الكبرى من ذلك منع إجراء التجارب النووية في الفضاء (رغم أن الصين الشعبية وفرنسا لم توافقا على هذه الاتفاقية) باتفاقية منع تحويل الأسلحة النووية لدول

لا تملكها، ومنع وضع الأسلحة المدمرة في أعماق البحار؛ والاتفاقية التي عقدت مؤخرًا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي خلال زيارة الرئيس نيكسون إلى موسكو.

غير أن هذه الاتفاقية كلها تقتصر على الأسلحة النووية والصواريخ وأدوات حربية لا يقدر على إنتاجها إلا الدولتان الكبيرتان.

وقد قدمت مالطا في عام 1965 والدانمارك في 1968 مشروعي قرار إلى الأمم المتحدة يدعوان إلى إحاطة مشكل بيع وشراء الأسلحة العادية، بصفة غير شرعية، بنشاط دعائي واسع لإبراز مساوئ تلك العمليات الخفية وليكون ذلك خطوة أولى نحو مراقبة تجارة الأسلحة.

غير أن هذين المشروعين لم يحصلا على موافقة الدول التي تستفيد ماليًا وسياسيًا من تجارة الأسلحة.

وأشار أوثانث الأمين العام السابق للأمم المتحدة بمناسبة تدشين السبعينات لتكون سنوات نزع التسلح، أشار إلى أن: «شعور دول العالم بالأمن يتناقص بسبب ازدياد إنتاج الأسلحة».

وتدل الإحصاءات على أن إنتاج الأسلحة التقليدية باهظ التكاليف، وأن الدول المنتجة تستعمل طرقًا متنوعة لتسويقها وترمي إلى أهداف خاصة ومصالح سياسية مثل شراء ولاء بعض الحكام، إلى تعزيز نظام معين إلى مساعدة ثورات وحركات انفصالية. وقد تقدمت الإشارة إلى أن ما لا يقل عن 220 مليار دولار تصرف سنويًا على إنتاج ما يدعى بالأسلحة العادية أو التقليدية.

يوجد حقًا كميات ضخمة من هذه الأسلحة في العالم لأن ما أنتجته الدول الكبرى خلال العشرين سنة الماضية أصبح غير صالح للاستعمال من طرف الدول المصنعة ولذلك فهي تسعى لتحويلها ولو بطرق غير مشروعة إلى دول أفريقية وآسيوية ممن يقتل بعضهم البعض.

وقد تجد بعض الدول الأوروبية نفسها تبيع أسلحة لطرفين متحاربين في آسيا أو أفريقيا مثل ما وقع خلال الحرب الأهلية في نيجيريا ، كانت فرنسا تشحن الأسلحة إلى بيافرا، بينما بريطانيا تسلح الحكومة المركزية.

وكانت بريطانيا زعمت أنها توقفت عن بيع الأسلحة إلى جنوب أفريقيا ثم عدلت عن رأيها بعد الأزمات الاقتصادية التي سببت عجزًا في ميزانها التجاري. واستمرّت الشركات الفرنسية والإيطالية في شحن السلاح لجنوب أفريقيا، أما ألمانيا فيبدو أنها أكثر حذرًا في تعاملها بعد المشاكل التي نتجت عن بيعها كميات كبيرة من الأسلحة لإسرائيل والبرتغال وما تبع ذلك من صعوبات في علاقاتها مع الدول العربية والإفريقية.

أرسلت الأمم المتحدة مذكرة إلى جميع الدول المنتجة للأسلحة تطلب فيها معلومات حول ما صدروه من الأدوات الحربية خلال العشر سنوات الماضية. وجاء في رد الولايات المتحدة إنها تصدر أقل من 5 بالمائة من إنتاجها الحربي وأن نصف هذه الكمية يوجه لأوروبا والشرق الأقصى والباقي للدول النامية خاصة لإسرائيل.

وكتب أحد الصحفيين يقول بأنه عندما ترفض وزارة الخارجية الأمريكية منح رخصة بيع الأسلحة لشركة ما، تعمد هذه الأخيرة إلى طلب مساعدة وكالة الاستعلامات الأمريكية أو الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية للحصول على رخصة التصدير مؤكدة أن ذلك في المصلحة العامة للبلاد.

الأسلحة عامل هام لسد العجز الكبير في ميزانية وزارة التجارة الأمريكية وهي لذلك تقوم بنشاط في المجال الدولي لبيع الأسلحة.

أما إسرائيل فقد ظلت تشتري من الأسلحة الأمريكية ما مقداره أربعمائة مليون دولار منذ عام 1967، وقد خصصت الحكومة الأمريكية خمسمائة مليون دولار لعام 1972 فقط كمساعدة مادية تستعملها إسرائيل لشراء الأسلحة الأمريكية، وبالإضافة لذلك فإن تل أبيب تحصل سنويًا على تبرعات وهدايا من اليهود الأمريكان تتجاوز مليارًا من الدولارات.

وقد كشفت مصادر أمريكية في جانفي الماضي عن ترخيص منحته واشنطن لإسرائيل يسمح للأخيرة بصنع محركات لطائرات الفانتوم من نوع 79 - في إسرائيل.

كما ساعدتِ أمريكا إسرائيل على إدخال تحسينات على قيادة سوبر ميراج، هذه الطائرة التي تقوم إسرائيل الآن ببنائها على أساس المخطط الذي حوله إليها مهندس سويسري كان يتجسس لحسابها.

15/07/73

*****

القســـم الخامس

- الرياضة المفيدة: أيْروبيكْس(1)

*****

- نصائح وإرشادات في قيادة السيارات

(1) Aerobics وهي رياضة تهدف إلى تقوية جميع أعضاء البدن، وخاصة جهاز التنفس.

الرياضة المفيدة "أيروبيكس"

للدكتور كانتْ هـ. كوبر

(عرض الأزرق بن علو)(*)

*****

- الحلقة الأولى
- الحلقة الثانية
- الحلقة الثالثة
- الحلقة الرابعة

*****

(1) نشرت من 21 ديسمبر 1975 إلى 11 جانفي (يناير) 1976.

الحلقة الأولى

ترعرع المؤلف وسط عائلة أهتم معظم أفرادها بدراسة الطب. وبعد أن أنهى دراساته الطبية صرف اهتمامه لدراسة الفيزيولوجيا الرياضية. وقد ساعدته كثيرًا الفرصة التي منحته إياها إدارة سلاح الطيران الأمريكي إذ كان من جملة واجباته دراسة آثار الرياضة البدنية وتحديد نتائجها على جسم الإنسان.

وكما يقول الدكتور:

«إن تدريب الطيارين ورجال الفضاء يستغرق وقتًا طويلاً ويكلف مبالغ كبيرة. إذا ابتز المرض منا أحدهم فلا بد من تدريب خبير آخر».

واستعمل المؤلف في تجاربه وبحوثه أحدث وأدق وسائل القياسات في مجال فيزيولوجيا الرياضة، بما في ذلك آلات اخترعت بمساعدة التكنولوجية الفضائية. كما حظي بعرض وافر من أغلى بضاعة في سوق البحث العلمي، ألا وهو جسم الإنسان إذ كان عدد الضباط والطيارين متوفرًا.

وعند شروعه في تأليف الكتاب الأول كان قد درس وقوم ما يزيد على خمسة آلاف شخص منهم الرياضيون والمرضى ورجال الفضاء والنساء. وجرت الاختبارات في ميدان العمل وفي المختبر.

يقول المؤلف: «وبدأ الناس يتوافدون على مكتبي منهم من كان نشاطه يقتصر على الانتقال من مائدة الطعام إلى جهاز التلفزيون ثم إلى المائدة. ومنهم من كان يدخن علبتي سجاير ويتعاطى الكحول. ومنهم الصنف العصبي الذي لا ينام بسهولة، ومن كانت هموم وظيفته وشعوره بالإثم يحفر داخل أحشائه. وقد لخص أحدهم لي الوضع قائلاً: «إنني بدين، قلق، أكول، كسول، رذيل، أحمق»».

لكم يستاء المرء عندما يقول له الطبيب «أنت مريض ولا يمكنك الاستمرار في مهنتك» وقد وصف المؤلف حزن الطيارين العميق عندما يكتشفون أن مرضهم لا يسمح لهم بالطيران.

وحصل الذين مارسوا برامج الدكتور كوبر الرياضية على نتائج إيجابية. فقد البدين الكثير من شحمه وضمرت بطنه وأصبح أرشق قوامًا. خفف المدخنون من تدخينهم. ووجد الذين يتعاطون الكحول أن الرياضة تزيل الكثير من قلقهم ومتاعبهم النفسية.

ومن جملة من ساعدتهم الرياضة المنتظمة أولئك المصابون بمرض السكر والقرحة وبعض أمراض الرئة والمفاصل. ومنهم المصابون بضغط الدم وتصلب الشرايين وعدم انتظام دقات القلب.

ومن جملة الذين مارسوا هذا البرنامج من كان يشعر بهبوط في القوى الحيوية والنشاط الوظيفي ويشعرون بالكآبة. وكان بعضهم في حاجة إلى تقوية المؤهلات النفسية أكثر منه إلى إعادة النشاط البدني. وبعد فترة من التدريب المنتظم طرأ تغيير على شخصيتهم فتحسنت نظرتهم إلى أنفسهم وزال قلقهم وأصبحوا قادرين على الاسترخاء. أما

بالنسبة لأولئك الذين أخفقوا فقد كان القاسم المشترك هو فقدان الدافع لمواصلة التمارين الرياضية.

إن البرنامج سليم علميًا ونافع طبيًا وبسيط من الناحية العملية. وفي وسع الطبيب أن يصف التمارين ولكن لا يمكنه أن يقوم بها بدل الناس.

الفحص الطبي

يختلف الناس في سعيهم وراء الكفاءة البدنية. فهدف المتسابق أن ينال ثواني خلال ركضه، وهدف المحامي أن يظل نشطًا منتبهًا بعد ساعات من المساومة العويصة، وهدف المرأة البدينة إنقاص بضعة كيلوات.

ومهما اختلف هدف الرياضة فإن أهم شيء هو أن نحصل على ما نسعى إليه بسلامة. أقول هذا لأؤكد أهمية الفحص الطبي قبل الشروع في أي تمارين رياضية. ومهمة الطبيب أن يبحث عن أي خلل في القلب أو الشرايين أو الرئتين من شأنه أن يجعل الرياضة خطرًا على الصحة[1].

ويمكن مراعاة النقاط التالية في منهاج الفحص والرياضة:

1 - أقل من ثلاثين سنة (30) - يمكنك أن تشرع في التمارين الرياضية إذا كنت قد حصلت على فحص طبي خلال السنة المنصرمة ولم يجد الطبيب شيئًا يعوقك عن الرياضة.

(1) كان الدكتور كوبر يستعمل جهاز "ERGOMETRE"، وهو جهاز لقياس كمية الجهد البدني، ونشاط القلب، وضغط الدم، وقدرة التنفس (بعد الجهد) لمعرفة مدى الكفاءة البدنية.

2 - بين 30 - 39 سنة - لابد من إجراء فحص طبي خلال ثلاثة أشهر قبل وقت الشروع في الرياضة وينبغي أن يشمل ذلك فحص القلب بواسطة الجهاز المذكور.

3 - 40 - 59 - مثل مجموعة 30 - 39 مع فارق مهم وهو أن يفحص الطبيب قلبك بواسطة الجهاز المذكور وأنت تتريض. ومن الضروري أن تبلغ دقات قلبك أثناء هذا الفحص نفس العدد الذي ستبلغه وأنت تقوم ببرنامجك الرياضي الذي تنوي الشروع فيه.

4 - أكثر من 59 - نفس شروط 40 - 59 - ولكن يفحص الشخص مباشرة قبل شروعه في برنامجه الرياضي.

ومن جملة الصعوبات أننا لا نجد الجهاز المذكور لدى جميع الأطباء. ويستحسن أن يكون لديهم «الدراجة الثابتة» ليتمكنوا من مراقبة أجهزتك الحيوية وأنت تتريض بشدة.

عراقيل السن

من المعلوم أن فعالية القلب والرئتين تنقص مع ازدياد السن. ومن مزايا التمارين الرياضية أنها تبطئ عملية الشيخوخة وتساعد الإنسان على الاحتفاظ بنشاطه. ولابد من مراعاة السن عند الشروع في الرياضة.

فحتى سن الثلاثين يمكن للمرء أن يمارس أي تمارين رياضية مثل الركض والهرولة والسباحة وركوب الدراجة (لمسافات طويلة) بدون قيود، ما لم يكن يعاني من أمراض طبية واضحة.

فيما بين سن 30 - 50 يمكن للفرد أن يختار أي نوع من أنواع الرياضة التي يتضمنها البرنامج بشرط أن يستشير الطبيب قبل الشروع فيها.

من سن 50 - 60 سنة يستحسن أن يبدأ الشخص في برنامج مبني على المشي أولاً، إلى أن يكيف بدنه ثم يمارس رياضات أكثر عنفًا بشرط ترخيص الطبيب. يرجى من الذين تجاوزوا سن الستين أن يتجنبوا الجري والرياضات المشحونة بالمنافسة. ركوب الدراجة والسباحة والمشي أفيد لهذه المجموعة. يستثنى منهم أولئك الذين ثابروا على رياضة تتطلب مجهودًا، فحصلوا على الكفاءة الجسمية المطلوبة وحافظوا عليها.

إن الرياضة مثل الدواء الذي يساعد كثيرًا من الناس على التمتع بالحياة. ولكن الدواء ينبغي أن يستعمل حسب نظام وشروط معينة. لذلك لابد من التأكيد، مرة أخرى، على ضرورة الفحص الطبي قبل ممارسة التمارين الرياضية الشاقة.

*****

الحلقة الثانية

يقول الدكتور كوبر:

«على أثر إحدى المحاضرات لجمع من الأطباء، منذ عدة سنوات، أوقفني أحدهم متسائلاً «ما هو مقدار وما هي مدة الرياضة المفيدة»؟ بصراحة لم أعرف الجواب آنئذ؟ لم يكن أحد قد قام بتجارب علمية دقيقة لتحديد نتائج ومفعول التمارين الرياضية، ولمعرفة متى وكيف يبدأ تحسن وتكيف البدن».

نظام النقاط

لشرح نظام النقاط الذي يعتمد عليه المؤلف في قياس المقدار والمدة الضرورية من الرياضة البدنية يذكر أنه ذهب مرة لزيارة زميل له كان يفحص متطوعين لمشروع خاص يقتضي شخصًا في حالة صحية وكفاءة جسمية جيدة، فوجد ثلاثة أفراد في قاعة الانتظار كان اثنان منهم ذوي بنية عادية والثالث ذا عضلات بارزة.

أطلعه زميله على سجلاتهم وقال: «أي شخص تختار؟» وألقى المؤلف نظرة على السجلات فوقعت عيناه على السؤال: «هل تقوم برياضة بانتظام؟» كان أحدهم قد أجاب بالنفي والثاني بأنه يركب الدراجة لعمله ذهابًا وإيابًا ثلاثة أميال والثالث بأنه يرفع الأثقال ساعة

يوميًا، خمسة أيام في الأسبوع وهو صاحب العضلات؛ كان ثلاثتهم طيارين في الثلاثين من العمر.

فقال الدكتور كوبر لزميله: «أراهن على صاحب الدراجة» وحان وقت فحص الأشخاص الثلاثة بواسطة آلة خاصة لمعرفة قدرتهم على التحمل وكفاءتهم البدنية، فأنتخب صاحب الدراجة للمشروع.

ويواصل المؤلف:

لا يكاد بعض الناس يصدقون بأن حامل الأثقال لم يفز؟ غير أن مهنتي علمتني أن المظاهر تخدع فقد وجدت خلال تجاربي أناسًا من ذوي الأجسام النحيلة برهنوا أنهم في قمة الكفاءة الصحية؟ كما عثرت على جماعة من ذوي العضلات الضخمة والأكتاف العريضة لم يكونوا مؤهلين صحيًا.

والتأهيل الذي يعنيه المؤلف هو القدرة على التحمل وعلى العمل بدون تعب ولا علاقة لهذا برشاقة القدّ وقوة العضلات بل له علاقة قوية بالحالة الصحية العامة، صحة القلب والرئة والشرايين وغير ذلك. ومفتاح السر هنا هو القدرة على استهلاك الأكسجين.

إن الجسد ينتج طاقة بحرق المواد الغذائية، ووسيلة الحرق هو الأكسجين؟ فالصواريخ الفضائية، مثلاً، تحمل معها نفطًا وأكسجينًا، فعندما تصل إلى الأجواء الخالية من الأكسجين تستعمل مخزونها لعملية الحرق لإنتاج الطاقة. أما في بدن الإنسان فالنفط هو الغذاء والشعلة هي الأكسجين.

وهنا تبدأ المشكلة. فالجسم يخزن الأكل لا يخزن الأكسجين. فثلاث وجبات تكفي معظم الناس لمدة 24 ساعة. أما إذا انقطع التنفس فإن الأكسجين المخزون يكفي لبضعة دقائق فقط.

وتتلخص القضية في القدرة على إيصال الأكسجين الكافي لجميع الأجزاء الصغيرة اللامتناهية العدد في جسم الإنسان العجيب حيث يخزن الغذاء لإحداث الاحتراق وإنتاج الطاقة. وهذا ما يميز الجسم السليم من العليل والولد الصغير من الشيخ.

لكل إنسان قدرة دنيا لإنتاج الطاقة وقدرة قصوى. فالأولى القيام بالنشاط اليومي العادي والثانية عندما يشتد النشاط ويستمر. ويكون الفرق بين الإنتاج الأدنى والأقصى دليلاً على مدى صحة الشخص وكفاءته. ونجد الفرق يكاد ينعدم لدى الأشخاص الذين لا يتمتعون بصحة حسنة. وهذا ما حدث عندما صعد الأشخاص الثلاثة على جهاز الاختبار وبدأوا في الركض. فقد بقوا في البداية مع بعض مستهلكين كميات متساوية من الأكسجين. وبعد مدة بدا الأعياء على الأول ثم الثاني عندما وصل جسم كل منهما درجة لم يستطع أن يقدم جميع كميات الأكسجين لإنتاج الطاقة ومجابهة المجهود المتزايد.

وقد يعترض الناس قائلين: «أيها الطبيب، إني لست في حاجة إلى كل هذا التحمل وكل هذه الكفاءة البدنية. فأنا أعمل في المكتب طوال النهار وفي المساء أجلس أمام شاشة التلفزيون» والجواب هو أن كل شخص في حاجة أحيانًا إلى الصعود للطابق التاسع أو العاشر

مــشــيًــا وإلى الركض وراء حــافلة النقل وإلى اللعب مع أولادنا وإلى المشاركة في النشاطات الاجتماعية وغير ذلك.

إن الجسم الذي لا يستعمل يتدهور، تصبح الرئة عاجزة، يضعف القلب تدريجيًا وتصبح الأوعية الدموية أقل مرونة وتفقد العضلات فعاليتها ويضعف البدن مما يجعله عرضة للأمراض: «فإذا أضفت إلى جناية الكسل تدخين علبتين من السجاير والتهام كل ما وقعت عليه يداك والقلق على مستقبلك فنصيحتي لك أن تدفع أقساط التأمين على حياتك، هذا إذا قبلتك شركات التأمين».

فإذا واظبت على النوع الملائم من الرياضة وفقًا لنظام النقاط الذي سيأتي ذكره، فإن ذلك سيخلق تغييرات إيجابية ملموسة في جسدك منها:

- زيادة قدرة الرئة على استيعاب كميات أكبر من الأكسجين بجهد أقل. فخلال العمل نجد أن الشخص المكيف بدنيا يحول ضعف كمية الأكسجين التي يحولها غير المكيف، وهذا يستقي بدنه بتيارات من الأكسجين للحصول على الطاقة الضرورية.
- يصبح القلب قادرًا على دفع كمية أكبر من الدم في كل ضربة، وبذلك ينقص عدد دقاته. نجد أن قلب الفرد غير المكيف يضخ الدم بسرعة خطيرة عند الإجهاد.
- يزداد عدد الأوعية الدموية وحجمها فيسهل نقل الدم لمختلف أنحاء البدن بسهولة.

- تزيد الرياضة المفيدة في حجم الدم فتنشأ وسائل إيصال إضافية لتزويد جميع الأنسجة بسهولة.

- تحسن مرونة العضلات والأوعية الدموية فتحولها من حالة الضعف والرخاوة إلى حالة القوة وهذا قد يساعد على تخفيض ضَغْطِ الدم.

- تساعد على تخفيف شحوم البدين وعبء البدانة وتزيد المرء رشاقة.

- تزيد في الاستهلاك الأعلى للأكسجين بزيادة وسائل التوزيع والتموين داخل البدن.

ليس هذا نوع من التخمين الذي لا أساس له، إنها معلومات جمعت في المختبرات كنتائج لتمارين التحمل وبواسطة آلة علمية حديثة.

وهناك فوائد أخرى للتمارين الرياضية، هي من النوع الذي يصعب إثباته بالأرقام.

فمن تلك الفوائد تبدل نظرة المرء لنفسه وللحياة، وزيادة الثقة بالنفس، والقدرة على الاسترخاء وعلى تحمل الضغوط اليومية. يصبح المرء قادرًا على إنجاز مقدار أكبر من العمل بتعب أقل.

فبدون نشاط يبدأ الجسم في الانحطاط والانحلال ويصبح نهبة للأمراض المزمنة ولا ينبغي للشخص أن يكتفي بالرياضة التي تبرز العضلات لأن تأثير ذلك على الصحة العامة محدود. فهو أشبه بدهن سيارة بطلاء جديد براق بدلاً من تصليح المحرك.

إن كل التمارين الرياضية المفيدة مثل الجري والسباحة وركوب الدراجة.. إلخ تستدعى مجهودًا وطاقة وبالتالي كمية من الأكسجين. وقد أمكن قياس مقدار الأكسجين المستهلك للقيام بتمرين ما وهذا هو أساس نظام النقاط. فإذا حصلت على نقاط كافية، أي قمت بمجهود معين خلال فترة معلومة، فإن ذلك يزيد من كفاءتك البدنية ويرفع من قدرتك على الاستهلاك الأقصى للأكسجين. ومعنى هذا زيادة الفرق بين ما تستعمله في الأوقات العادية وما تحتاج إليه وقت الضرورة.

*****

الحلقة الثالثة

قد يفاجأ القارئ، كما يقول المؤلف، عندما لا يجد شيئًا غريبًا حول أي من التمارين المستعملة في هذا البرنامج والكاتب لم يخترع هذه التمارين وإنما قام بدراستها وقياس نتائجها ومفعولها وقد يشعر القارئ بالخيبة إذا لاحظ أن رياضته المفضلة لا تحظى بمرتبة معتبرة في جدول المقاييس.

أفضل التمارين هي الجري والسباحة وركوب الدراجة والمشي والجري في نفس المكان (الجري الثابت) وكرة اليد وكرة السلة حسب الترتيب المذكور يقول الدكتور كوبر:

(وكل ما أريد أن أؤكده لك الآن هو أنني عندما أشير إلى أن تمرينا ما نافع وأن نوعًا آخر يقل عنه فائدة في بناء الكفاءة البدنية فلأنه ليس لدى أي اختيار. فالبراهين مجموعة أمامي).

يقسم المؤلف التمارين الرياضية إلى أربعة أصناف:

1 - التمارين التي تحدث ضغطًا عضليًا دون حركة ولا تتطلب أكسجينًا أو شيئًا قليلاً منه.

2 - تمارين تحدث ضغطًا عضليًا وتنتج حركة ولا تتطلب كثيرًا من الأكسجين.

3 - تمارين تتطلب كميات كبيرة من الأكسجين ولكنها تنتهي بسرعة، فلا تحدث التأثير المرجو.

4 - تلك التي تتطلب مقدارًا كافيًا من الأكسجين وتدوم مدة تكفي لإنتاج مفعول إيجابي.

فالنوع الأول مثل التمارين «الأيسومترية» (ISOMETRIE).

تكون بدفع عضلات ضد أخرى أو ضد أي شيء ثابت مثل الطاولة أو الكرسي أو تحدث بالجذب على شيء ثابت أيضًا وهذا النوع من الرياضة وإن كان مفيدًا للمرضى، لأنه قد يمنع تدهور حالة العضلات المهملة، فإن المؤلف يصرح بأنه لا يعيره أي اهتمام.

أما النوع الثاني فيدعى بالأيستوني، وهو يؤدي إلى انقباض العضلات مع الحركة، مثل رفع الأثقال والرماية والألعاب الجمبازية. وهذا الصنف وإن كان مفضلاً على النوع الأول فإنه لا يحصل على نقاط عالية لأنه لا يتطلب أكسجينًا كافيًا.

وغالبًا ما يوصي الطبيب بالقيام ببعض التمارين الجمبازية لا لتنوب عن الرياضة المكيفة للبدن بل لتقوية بعض المجموعات من العضلات مثل الظهر والبطن والكتف والذراعين.

النوع الثالث قسمين، قسم يتطلب قدرًا معقولاً من الأكسجين غير أن الناس لا يقومون به لمدة كافية. مثال ذلك الركض والسباحة وركوب الدراجة لفترة قصيرة، غير كافية لتحسين الكفاءة البدنية.

والقسم الآخر هو أي نوع من الرياضة الذي يتطلب مقدارًا عظيمًا من الأكسجين بحيث يعجز القلب والرئة عن توفير الطاقة اللازمة، فينتهي النشاط الرياضي ضرورة مثال ذلك ما يقوم به الرياضيون قرب نهاية الشوط للفوز في السباق أو السباحة أو سباق الدراجات ومن الواضح أن هذا النشاط تنافس لا مجاله في برنامج عادي منتظم لتنمية الكفاءة الصحية والمحافظة على نشاط البدن وحيويته بصفة عامة.

النوع الرابع يدعى أيروبيكس ومعناه حرفيًا «مع الهواء»، هو الأساس الذي تبنى عليه الرياضة المفيدة. فهو رغم كونه يتطلب مقدارًا كافيًا من الأكسجين، يمكن القيام به لفترة طويلة.

يقول المؤلف إنه إذا كان لديك وقت قليل بين 12 - 20 دقيقة يوميًا تخصصها للتدريب يجب أن يكون النشاط الرياضي من الشدة بحيث يجعل معدل دقات القلب 150 بالدقيقة، وإلا وجب الاستمرار في الرياضة فترة أكثر من 20 دقيقة.

وقد درس الدكتور كوبر أغلب النشاطات الرياضية التي تتطلب الأكسجين وقاس ما يتطلبه كل نوع منها من الأكسجين ثم حول كمية الأكسجين إلى نقاط وإليك أمثلة على سبيل المقارنة بين نشاطات مختلفة، تتساوى في كمية الأكسجين الذي تستدعيه:

- ركض ميل واحد في مدة أقل من ثماني دقائق.
- سباحة 600 ياردة في مدة أقل من 15 دقيقة.

- قطع خمس (5) أميال على الدراجة في أقل من 20 دقيقة.

- الجري في نفس المكان (أو الركض الثابت) لمدة $12\frac{1}{2}$ دقيقة.

- لعب كرة اليد لمدة 35 دقيقة.

فكل من الأمثلة السابقة يستحق 5 (خمس) نقاط. والقيام بأي منها يوميًا ستة مرات بالأسبوع يجعلك تحصل على جميع ما تحتاج إليه من الرياضة المفيدة (30 نقطة أسبوعيًا)، لإحداث مفعول نافع في جسمك.

ويجوز لك التنويع كأن تنال عشر نقاط ركضًا وخمسة عشر على الدراجة وخمسة نقاط بواسطة السباحة مثلاً ولا يجوز أن ينهك المرء نفسه لينال ثلاثين نقطة في يوم أو يومين، بل لابد من توزيع نشاطك الرياضي بحيث تنال النقاط المذكورة أسبوعيًا وأن لا تقوم برياضتك أقل من أربع مرات خلال الأسبوع.

وإذا قلنا أن سباحة 600 ياردة في أقل من 15 يعطيك 5 نقاط؛ فإن السباحة نفس المسافة في 22 دقيقة مثلاً يعطيك نقطة واحدة ونصف فقط ذلك لأن الفائدة التي تحصل عليها تتوقف على نوع ومدة الرياضة وعلى المجهود الذي تبذله. أن تركض ميلاً واحدًا في أقل من ثماني دقائق فيه منفعة تفوق لعب الجولف لمدة سبع (7) ساعات.

*****

الحلقة الرابعة

يؤكد الأطباء أن العمال الذين لا يتمتعون بالكفاءة البدنية يتعبون بسرعة، ويضعف إنتاجهم، ويجبرون على التقاعد في سن مبكرة، إن المجتمع ينفق على الشخص طوال مدة 25 أو 30 سنة، حوالي نصف حياته، ثم لا تتجاوز خدمات هذا الشخص لمجتمعه نفس المدة، ويموت أو يتقاعد.

إن اتباع برنامج رياضي مفيد يزيد في العمر الإنتاجي لكل فرد عددًا من السنوات، وقد جهزت بعض الدول المصنعة مراكز خاصة لإعادة تكييف العمال، وتتعاون في هذا المجال الحكومة وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية. يقضي كل عامل أربعة أسابيع في أحد المراكز ثم يرجع للمصنع ويستمر في القيام ببرنامج رياضي مناسب ويسمح عدد من المؤسسات الصناعية الأمريكية بنصف ساعة كل يوم يقوم فيه العمال بتمارين رياضية.

فهل هذه الإجراءات مقبولة وعملية من الناحية الاقتصادية؟ أجل إذا أخذنا بعين الاعتبار الفوائد التي تنتج عن ذلك مثل زيادة الإنتاج اليومي للعامل، وقلة التغيب، عن العمل وتأخير سن التقاعد وهذا يعني خمسًا، إلى عشر سنوات زائدة من الإنتاج في حياة كل عامل.

ويؤكد المؤلف على فائدة الرياضة التي تحمل الشخص على

استهلاك مقادير كبيرة من الأكسجين موضحًا بأنه لا يجدي أن يهتم المرء بتربية عضلاته إذا كان قلبه غير قادر على تغذية وتموين تلك العضلات، ويقسم النشاطات الرياضية إلى أربعة أنواع :

1 - نوع من الرياضة - يحدث ضغطًا عضليًا بدون إحداث حركة ولا يتطلب مقدارًا كبيرًا من الأكسجين - يدعى أيسومتركس - مثل الجذب على الكرسي الذي تجلس عليه أو الدفع ضد المنضدة... إلخ.

2 - النوع الذي يحدث ضغطًا عضليًا مع أحداث حركة وهو أيضًا يتطلب مقدارًا قليلاً من الأكسجين مثل رفع الأثقال، هذا النوع وإن كان أفضل من الأول فهو غير كاف لخلق الكفاءة البدنية.

3 - هذا النوع على قسمين:

أ - صنف يتطلب مقدارًا معقولاً من الأكسجين ولكن ينتهي بسرعة أي قبل حصول الفائدة المرجوة مثل المشي والركض الذي نقوم به لفترات قصيرة.

ب - صنف يتطلب قسطًا عظيمًا من الأكسجين ولكن ينتهي بسرعة لعجز القلب والرئتين على تقديم الطاقة اللازمة وذلك مثل جميع النشاطات التي يقوم بها السباحون والمتسابقون وراكبوا الدراجات في نهاية الأشواط.

4 - هذا النوع من الرياضة هو موضوع الحديث وهو النوع المفيد لأنه

يتطلب استهلاك مقادير معقولة من الأكسجين ويشغل القلب والعضلات. وإليكم أمثلة عن هذا النوع بغية المقابلة.

- ركض ميل في أقل من ثماني دقائق.

- سباحة 550 مترًا في أقل من خمسة عشرة دقيقة - ركوب الدراجة لمسافة خمسة أميال في أقل من خمس دقائق - الركض الثابت - في نفس المكان - لمدة 12 دقيقة ونصف.

- لعب كرة اليد لمدة 35 دقيقة.

وحسب الجداول التي يقدمها الدكتور كوبر يعادل كل من النشاطات السابقة خمس نقاط، فالقيام بأي من هذه الرياضات خمس مرات بالأسبوع يعطيك 30 نقطة، هذا هو المقدار الضروري للمحافظة على الكفاءة البدنية.

ولابد من التذكير أنه ليس من صالح الأشخاص الذين لا يتعاطون رياضة من هذا النوع - الصنف الرابع - بصفة منتظمة ليس من صالحهم الشروع في مباشرة الرياضة ومحاولة الحصول على 30 نقطة أسبوعيًا، بل لابد من فحص طبي ولا بد من المرور ببرنامج تدريجي لتكييف البدن. ويستمر مثل هذا التحذير لأن القلب ليس آلة يمكن التلاعب بها.

يقدم الدكتور كوبر فحصًا أوليًا يسميه بفحص المجهود الأقصى. وكل ما يحتاج إليه الشخص هو ميدان رياضي أو طريق يمكنك أن

تقيس المسافة التي قطعتها في 12 دقيقة. ويستغل المؤلف خبرته وآلته وتجاربه فيشرح كيف تم الوصول إلى هذا الفحص وكيف ولماذا اختار مدة اثنتى عشر دقيقة وكيف يتم تحويل المسافة التي تقطعها إلى ملمترات من الأكسجين وكيف أن بَذْلَكَ لمجهود أقصى يعطي نتيجة تدل على استهلاكك الأقصى للأكسجين. إلخ.. والجدول التالي يفسر شيئًا من ذلك:

لاحظ أنه يقسم الأشخاص إلى خمس فئات تبعًا لكفاءتهم الصحية - فئة الكفاءة الصحية:

1 - سيء جدًا.

2 - سيء.

3 - متوسط.

4 - حسن.

5 - ممتاز.

المسافة المقطوعة في 12 دقيقة :

1 - أقل من ميل واحد .

2 - ميل إلى 1.24 ميل .

3 - 1.25 إلى 1.49 ميل .

4 - 1.50 إلى 1.74 ميل .

5 - 1.75 ميل وأكثر.

الأكسجين المستهلك:

1 - 28.0 مليلتر أو أقل .

2 - 28.1 إلى 34 مليلتر.

3 - 34.1 إلى 42 ملليلتر.

4 - 42.1 إلى 52 ملليلتر.

5 - 52.1 إلى أو أكثر .

وتجدر الملاحظة إلى أن المؤلف، بناء على تجارب إضافية، خفف العبء على الذين تجاوزوا 35 سنة وذكر في كتابه الجديد أن قطع مسافة 1.40 في 12 يجعل هؤلاء في الفئة رقم 4 بدلاً من الثالثة.

فما عليك لمعرفة الفئة التي تنتمي إليها إلا أن تجد المكان أو الطريق المناسب، يكون طوله ميلين وألبس أشياء خفيفة للركض وخذ ساعة عليها مؤشرُ الدقائق لقياس المدة 12 دقيقة.

فإذا وجدت نفسك تنتمي إلى إحدي الفئات الثلاث الأولى فهذا يعني أنك لا تتمتع بكفاءة بدنية لائقة، قد تكون النتيجة التي تحصل عليها مؤسفة ولكن لا ينبغي لك أن تنهزم كما يؤكد المؤلف 80٪ من السكان الأمريكيين ينتمون إلى هذه الفئات.

والواقع أن الدكتور كوبر في كتابيه يوصي على اعتبار تمرين الاثنى عشرة دقيقة ركضًا لا لاختيار الكفاءة البدنية الحالية فقط بل كتدريب رياضي يومي، لأنه يكفي أن يركض الشخص مسافة ميل ونصف في 12 دقيقة أربع مرات في الأسبوع، كما سبق ليبقى في حالة جيدة.

- انظر الجدول - الفئة الرابعة - ويوصى المؤلف مرة أخرى أولئك الذين تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين أو لم يتجاوزوها ولكنهم مصابون بمرض ما، يوصيهم أولاً باستشارة الطبيب وثانيًا باتباع إحدى البرامج التدريبية العديدة التي تكفيهم خلال ستة عشر أسبوعًا ليصبحوا بعد ذلك قادرين على نيل ثلاثين نقطة أسبوعيًا وليصبحوا في عداد ذوي الكفاءة البدنية السليمة.

*****

نصائح وإرشادات في قيادة السيارات[1]

- العوامل النفسية في قيادة السيارات
- إنتبه للمحيط!
- نصائح عملية (1)
- نصائح عملية (2)
- كيف ومتى تتجاوز سيارة أخرى؟
- الدراجات والسيارات
- إنتبه جداً للمشاة!

*****

(1) بحث تفصيلي من مصادر مختلفة للتذكير وزيادة الوعي لدى السائقين.

العوامل النفسية في قيادة السيارات

كثيرًا ما نقرأ، نسمع أو نشاهد حادث سيارة:

اصطدام، ضحية بريئة، سائق محتار نادم....، هكذا تذهب آلاف الضحايا كل سنة، والناس يتساءلون: لماذا كل هذا؟ فلا بأس أن يتسابق الناس لاكتساب السيارات، التي أصبحت لها دلالة على المركز الاجتماعي، بجانب كونها وسيلة للنقل ولكن هل يجدي التنافس في سوء استعمال السيارة؟ وهل يجوز أن يستمر بعض المتهورين من السائقين في استغلال الطرق والشوارع، وهي حق للجميع، بدون قيود؟

ليست قيادة السيارة حقًا فقط لمن يريد أن يتمتع بسيارته. بل فيها نوع من المسؤولية الاجتماعية، لقد اعتبرها بعض الخبراء نوعًا من العقاب. وأنت عندما تنزل للشارع في سيارتك لا يمكنك أن تختار زملاء الطريق. بل أنت مرغم على الأخذ والرد مع من صادفك. وفي الشارع تتجلى الديمقراطية التامة فهو حق لكل من تعلم السياقة وقوانينها لا تفضل ولا تميز. فنحن لا نسمح لشخص أن يقتحم الضوء الأحمر مثلاً لأنه ابن فلان.

ونحن نلاحظ أن السائقين، وهم داخل سيارتهم، يكونون مجموعة بشرية ذات علاقات خاصة بين أفرادها فهم مضطرون للتعامل مع بعضهم مستعملين لغة قواعد السياقة وما زال عدد هذه

المجموعة يتكاثر. هل فكرت يومًا في أن السائقين، رغم انعزال كل منهم في صندوقه «يتحدثون» إلى بعضهم؟ طبعًا أنه حديث قليلاً ما يؤدي إلى التعارف.

وزيادة في تحليل هذه الحادثة الاجتماعية المهمة التي هي السياقة لنشبهها بلعبة إنها لعبة جدية طبعًا، وهي لا تشبه لعبة الشطرنج التي تسمح للاعب بمعرفة الفرص والإمكانيات.

وليست السياقة كلها حظ مثل لعبة زهر النرد:

إنها أشبه بلعبة البوكر تجمع بين الحظ والمهارة. ولعبة السياقة تحتاج إلى المعرفة التجريبية والحظ والذاكرة وإلى الخبرة بالطبيعة الإنسانية. إنها لعبة خطيرة، قد يغامر فيها المرء بحياته وبحياة غيره. وكل لاعب ماهر يعرف أن اللعبة التي يراهن فيها بحياته ليست لعبة البتة.

إنك تسوق بشخصيتك:

إنك لا تسوق بيديك ورجليك فحسب بل برأسك وشخصيتك. السياقة الجيدة تتعلق بعواطف السائق وبالمواقف التي يتخذها تجاه من حوله من المشاة والسائقين. أن تسيير أية الة هو عمل بدني.

فالسياقة نوع «من العمل فهي متعبة، ولكن الشيء المهم هنا هو ما يعتمل داخل نفسك عندما تسير الآلة.

فعامل الملل مهم خلال الرحلات الطويلة لأنه يؤدي إلى فقدان

الانتباه وكذلك عوامل القلق والغضب والشعور بالعداء والمنافسة ذات علاقة وثيقة بالطريقة التي يقود بها الشخص سيارته. ولا ننسى العلاقات المنزلية وعلاقات العمل فالعلاقات السيئة بين الرجل والمرأة لا تؤدى فقط للمحكمة بل قد تلقي بالسائق إلى المستشفى أو المقبرة. هذا ما أثبتته دراسات العلاقات الإنسانية لعوامل الغضب وخيبة الأمل والانفعالات السلبية. وهذا ما يعرفه كل سائق خبير، خرج من بيته غاضبًا، وقفز في سيارته وكأنه يريد الانتقام من كل من يعترض طريقه.

وكم من سائق ينغمس في إلقاء الخطب الخيالية، وهو يقود سيارته، على رئيسه الذي أهانه أو زوجته التي خالفت أمره. ولا يخفي ما في هذه الحالة من خطر لعدم التركيز على السياقة.

ومن منا لم يقض صباحًا مقلقًا. قد تجرح ذقنك، أو تبحث عن وثيقة فلا تجدها، أو تدخل في مناقشة غير مرضية مع زوجك أو ولدك.. وتتأخر عن موعد العمل. فيبدو لك أن كل شيء يعترض سبيلك. فتضغط على المحرك وتقع الكارثة.

وكما تتأثر قيادتك بالانفعالات النفسية التي تشغل فكرك وتبعده عن عملية السياقة، فهي أيضًا تتأثر بمقدار النوم والجوع والسكر وحتى بالتدخين وليس ضروريًا أن يتمتع الشخص بأعصاب حديدية ليواجه كل شيء بهدوء بل المهم أن يعرف المرء حدوده ويعلّم نفسه كيف يعيش بما «يملك» أو بما ورث من أعصاب وعتاد نفسي جسدي.

اعرف حدودك:

اعرف حدودك وحدود سيارتك. إن عدد الحوادث في المساء أكثر منه في الصباح. يكون السائق متعبًا في المساء وتكون ردود فعله أبطأ. ويعتقد معظم الناس أن الشخص غير الصالح للقيادة هو السكران أو كبير السن .

والواقع أن الإعياء من أكثر العوامل التي تؤثر على السياقة. فإذا كنت تسوق ساعة للعمل في الصباح وساعة في المساء فأنت تعمل عشر ساعات يوميًا.

ومن جهة أخرى: لاحظ تزايد عدد الحافلات والشاحنات يومًا بعد يوم. وتدل الإحصاءات على أن هذا النوع من السيارات الضخمة يسبب عددًا أكبر من الحوادث نظرًا لحجمها ولأن سرعتها أبطأ من السيارات الخفيفة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السير البطيء، مثل السرعة الزائدة، قد يعرض السائق للخطر. بالإضافة لذلك يقطع سائقوا الشاحنات مسافات طويلة عادة مما يعرضهم للتعب والضجر. والنصيحة الموجهة للجميع هنا هي: الحذر من الإعياء، والحذر من السياقة قرب شاحنة خاصة في الليل. والقاعدة عند السفر الطويل هي أن لا يسوق المرء أكثر من سبع ساعات يوميًا وأن يستريح ساعة خلال فترة الغداء.

وتدل بعض الإحصاءات التي أجرتها السلطات المكلفة بحوادث السير في الولايات المتحدة على أن 37٪ من حوادث الموت شملت

سيارة واحدة فقط وسائقها، لم يعش هؤلاء الناس فيحدثونا عما حدث بهم قبل الكارثة.

كان من بينهم السكران ومن دفع نفسه الانتحار لاشعوريًا ولكن معظمهم لاقوا حتفهم بسبب التعب والإجهاد.

أسأل الذين يقودون سياراتهم لمسافات بعيدة دون توقف يخبرونك عن تلك الحالة التي تشبه الأحلام، يتعرض لها السائق المتعب.

وخاصة عندما يواجه وحده طريقًا طويلاً سويًا، بدون سيارات تزاحمه.

إن أزيز المحرك، وخرير العجلات المتواصل بالإضافة لثلث المناظر التي تمر حوله بسرعة متواترة تخلق لدى السائق نوعًا من الخمول النفسي أو التنويم المغناطيسي. وهذه علامة الخطر.

ما العمل في هذه الحالة؟ يجب أن يتوقف السائق ويمشي في الهواء الطلق أو يستريح في مكان مناسب. ونذكر بأن السائق لا يشعر بالإعياء عندما يكون جالسًا يسوق سيارته وإن الأعياء يؤثر على السائق بإبطاء رد الفعل الضروري كالضغط على الفرامل أو توجيه السيارة إلى اليمين أو الشمال بسرعة.

وبالإضافة لذلك يضيق الإعياء من مجال الإبصار فلا يشاهد السائق كل ما ينبغي الانتباه إليه. وكذلك يدفع إلى اتخاذ قرارات خاطئة.

أما الإعياء الشديد فقد يؤدي إلى النوم وراء عجلة القياة ولا بد

من التـأكـيـد على أن الهـدف ليس مـحـاربة الإعـيـاء بالمنبـهـات تارة والمهدئات أخرى. بل الهدف هو القضاء عليه بالاستراحة.

أمـا بخـصـوص الرحـلات اليـومـيـة إلـى مكان العـمل والتي لا بد للشـخص أن يقوم بها، سـواء كـان يشـعـر بقليل من الإعـيـاء أو بالقلق والغضب، فالمهم ألا ينسى السائق أنه متعب لكي يستعمل الحذر، ولا يظنن المرء أن الحذر هو أن يسوق سيارته وهو خائف يتوجّس ويتوقع الخطر من كل جانب كلا، فالمفيد هو أن يكون السائق مستعدًا مركزًا اهتمامه على الشارع ومستعدًا لكل طارىء.

11-04-77

*****

انتبه للمحيط

قد يقود المرء سيارته في ظروف جوية شديدة، أو في طريق وعر، أو ينتقل من طريق فارغ إلى شارع مزدحم، في الليل، أو في القرية، بصحبة سيارات صغيرة، أو شاحنات ضخمة.. إلخ ومن الأهمية بمكان أن يركز السائق انتباهه على الظروف التي تحيط به.

فهذا المحيط ليس ثابتًا. قد يتغير بدون سابق إنذار. وقد تكون لاهيًا تسمع الإذاعة أو تنظر إلى مشاهد جلبت انتباهك. ولكن تجنب أي خطر واستدراك أية هفوة قد يكون عسيرًا إذا كنت تسير بسرعة غير قانونية.

ينتبه السائق الخبير بوعي إلى جميع إشارات المرور وإلى جانب ذلك لا يهمل الظروف الأخرى المتعلقة بحالة المكان والزمان اللذين يسوق فيهما.

إن إدخال سيارتك معركة الطريق قد يكون جزءًا مهمًا وخطيرًا في رحلتك. طبعًا هذا الوضع في المدينة يختلف عنه في القرية. وإذا كنت مثلاً تحاول أن تخرج بسيارتك من زقاق صغير لتدخل شارعًا عامًا، فإنك تدفع بآلتك التي تتحرك ببطء وسط حركة سريعة. إن أكبر مسبب للحوادث هو السرعة. يأتي بعد ذلك عدم احترام حق السيارات الأخرى في الأولوية.

لنلاحظ ماذا يحدث عندما تخرج بسيارتك إلى طريق عام:

- تحرك الآلة لتنطلق في الطريق. فإذا كانت السيارة لم تسخن بعد أو كنت أنت غير صاح، فقد ترتكب، بكل بساطة، خطأ جسيمًا وأنت تغادر مكانك الآمن.

- تدخل وسط نظام اجتماعي يعرف بحركة المرور، بما له من قوانين تتغير من مكان لآخر.

- تصبح خاضعًا لعدد من القوانين التي لا تحابى، مثل السرعة والقوة الدافعة. وهي تؤثر على أمنك وثباتك في مكانك.

إذا رأيت سيارة قادمة نحوك (وأنت تحاول الانضمام لحركة المرور) فأنت تعتمد على رؤيتك وخبرتك ومهارتك السياقية لتقرر الانطلاق أو التوقف. وإذا كانت السيارة المقبلة عليك قريبة فإن القانون والحذر يطلبان منك أن تنتظر.

- كل هذا إذا كنت متحركًا نحو الأمام. أما إذا كنت متراجعًا للوراء بسيارتك تزداد الصعوبة.

القيادة في القرى

لم تعد القرية كما عهدناها في الأربعينات مثلاً. فقد تضاعف عدد السيارات، وعدد القرى، وعدد السكان كما أصبحت السيارات تسير بسرعة أكبر. فالسيارة التي تسير بسرعة 15 كلم في الساعة يمكن إيقافها بسهولة إذا كان صاحبها منتبهًا بعكس سيارة تسير بسرعة 60 كلم في الساعة.

ولكن عددًا كبيرًا من السائقين لم يغيروا طريقة قيادتهم رغم تغير الظروف التي تجري فيها السياقة.

فعدد كبير من الطرق لم يصنع لهذا النوع من السيارات ولهذه السرعة. ونحن نجد خليطًا من أنواع السيارات تنطلق في الطريق لأهداف مختلفة، فهناك سيارة الأجرة والشاحنة، وهذا سائق يتجول مع عائلته وآخر يبحث عن دكان متباطئًا، وثالث يسرع لقطع مسافة طويلة، وسيارة تقوم بتوزيع البضائع، وحافلة تملأ الطريق وتعطل خلفها عددًا من السيارات.. أضف لذلك ضيق الطرق ونقص إشارات المرور وعادة التنافس عند البعض مما يسبب مزيدًا من الحوادث.

ومن مسببات الحوادث تبدل ظروف السياقة فجأة. فهذا طريق يمكنك أن تسرع فيه إلى المائة وسرعان ما تجد نفسك في منطقة تطلب منك تخفيض سرعتك للثلاثين. كما تزداد الحوادث في المناطق التي تسير فيها السيارات بسرعات مختلفة. فإذا كنت منطلقًا عبر قرية بسرعة مائة كيلو متر واعترضت طريقك سيارة خارجة من محطة بنزين أو من مصنع بسرعة ثلاثين كيلو متر، فإن التأثير يكون كما لو كانت سرعتك سبعين كلم وفجأة رأيت أمامك سيارة ثابتة في عرض الطريق.

وها هي بعض العلامات التي تدعو للحذر وتوحي للسائق بتغطية فرامله والاستعداد للطوارئ: مدرسة، مقهى، سوق، محطة بنزين، مصنع، إلخ. ولا يكفي السائق الخبير الانتباه للطريق بل لا بد من الانتباه لجميع ما يحدث في محيطه المتحرك. فعيناه تفتش باستمرار

هذا المحيط، جانبي الطريق، الخلفية، بالإضافة للطريق أمامه. ومن المهم أن تعرف نوع الطريق الذي تسير عليه بواسطة ذبذبة المقود وأزيز العجلات وجذبها. كذلك لا بد من الانتباه لعرض الطريق الذي كثيرًا ما يتناقص بدون سابق إنذار.

الطريق بالنسبة للسيارة هي بمثابة المطار بالنسبة للطائرة، إذا حادت عنه وقعت في خطر. وأخطر الحوادث هو الاصطدام المباشر الذي كثيرًا ما يحدث على الطرقات الضيقة. إن اصطدام سيارتين سرعة كل منهما 80 كيلو متر يعادل اصطدام سيارة سرعتها 160 كيلو متر بجدار ثابت. واحذر أيها السائق الخبير التوقف على جوانب الطرقات الضيقة وكيفية الخروج منها للدخول في الطريق العام.

إن السائق الخبير هو الذي يتوقع المشاكل ويعرف كيف يتجنب حدوثها. الوقاية خير من العلاج. ولا ينفعك أن تكون على حق وغيرك مخطىء إذا كنت محمولاً نحو المقبرة.

20-05-77

*****

نصائح عملية للسائقين

(1)

إن فن القيادة الحكيمة يفرض عليك أن تتوقع تصرفات السائقين، وتكون مستعدًا لتلافي وتجنب غلطاتهم. هذا ما يدعى بالقيادة الدفاعية. كن دائمًا منتبهًا واعيًا للمواقف الخطيرة قبل حدوث الخطر. مثلاً، إذا التحقت بمجموعة من السيارات قد تتابعت وراء شاحنة بطيئة، توقع واحذر الخطر! لأنه قد يوجد في هذا الركب سائق قلق مستعجل يدفع بسيارته أمامك فجأة ليتجاوز الشاحنة.

وتوقع المشاكل عمل وقائي - قيادة دفاعية - يجعل السائق يترقب ما يحدث وما قد يحدث في محيطه بحذر واستعداد. هذه حالة نفسية وفكرية تصبح عادة سليمة وتصرفًا حميدًا لدى السائق الخبير.

فهذا السائق يحرص على أن تكون سيارته في المكان الملائم بالسرعة المناسبة، وأن تكون مرئية، والإشارات الصادرة عنه مفهومة، مواتية في اللحظة الملائمة. هكذا يتمكن من تجنب الحوادث وأن يتصرف بنجاح في المواقف الخطيرة.

إذًا قَرِّرْ، أيها السائق الخبير، السرعة المناسبة للمكان والظروف الخاصة بالنسبة لجميع ما يعترض طريقك من جامد ومتحرك. والسرعة المناسبة تعتمد على:

1 - ما يمكن أن تراه .

2 - ما لا يمكن أن تراه، ولكنه قد يكون في طريقك.

3 - حالة الطريق التي تسوق عليها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السائق يجب أن يتمكن من استعمال جميع الأزرار والآلات داخل السيارة دون أن ينحني أو يتحرك من مقعده. فإذا شعرت بألم في ساقيك أو ذراعيك أو رقبتك أو ظهرك بعد فترة من السياقة فهذا إنذار بأن وضعية جلوسك غير مريحة.

استعمال الإشارات:

إن الإشارات الصادرة عن سيارتك إنما هي تعبير عن نواياك وليست أوامر تفرضها على السائقين. أعط الإشارات بكل وضوح وفي الوقت المناسب. ولا تعتمد كليًا على السيارات الأخرى في إصدار إشارتها. بل كن على حذر، لأن إشارة ما قد تصدر خطأ. ويميل بعض السائقين إلى إهمال الإشارات اليدوية. غير أنها قد تكون مفيدة في تأكيد الإشارات الميكانيكية. وليحذر السائق من الإشارة التي يصدرها له سائق أمامه مشيرًا عليه بالمرور والتجاوز، أن السائق وحده هو الذي ينبغي أن يقرر عملية التجاوز أو الانتظار. غير أنه من الضروري أن يشير السائق، على آخر خلفه يرغب في المرور، أن لا يفعل إذا رأى أن الموقف خطير.

وآلة التنبيه إنما هي وسيلة إنذار، لا لتصب غضبك على الناس

أو تصدر الأوامر للسائقين. ومن الخطأ الاعتقاد بأن استعمال المنبه يزيل الخطر من طريقك. وعلى كل فإن الاعتقاد بأن جميع السائقين، عداك، على خطأ عادة فيها كثير من الغلو والخطورة والاستخفاف.

ومن العادات المفيدة أن يحتفظ السائق بمسافة معقولة عن السيارة التي أمامه تقدر بمسافة سيارتين ونصف لكل عشرة أميال في الساعة. هذا البعد وإن كان غير ممكن في حالات الازدحام، فإنه ضرورة حيوية في الطريق المفتوح حيث السرعة كبيرة. اترك دائمًا بعدًا معقولاً عندما تقف أو عند تسلُّق عَقَبَة، وفي جميع الحالات التي تحتاج فيها لمناورات للخروج من وراء سيارة تعطلت أو من مأزق حركة المرور.

وانتبه أيها السائق إلى حالة الطريق، إلى الحفر والتراب والزيوت المتراكمة والأوراق المبتلة.. وكل ما من شأنه أن يضعف قوة احتكاك العجالات بسطح الطريق وجذبها.

وعند نزول المطر يلزم فتح النوافذ جزئيًا، واستعمال المسخن، والسماح للهواء يتخلل السيارة، لأن ذلك يزيل تراكم الرطوبة ويزيد في الرؤية. وفي هذه الحالة - نزول المطر - ينبغي الضغط على الفرامل بلطف، وكذلك تحريك المقود وزيادة السرعة بلطف نظرًا لظروف الطريق وخطر الانزلاق. كما يجب إمساك المقود بشدة لتجنب أي خطأ إذا ما وقعت العجلتان الأماميتان في حفرة ماء.

تصمم العجلات بحيث تتمكن في حالات نزول المطر، أن تعصر الماء من تحتها وتمسك الطريق، ولكن إذا كانت السرعة كبيرة فإن العجلات تعجز عن جرف جميع الماء من طريقها بل تصبح وكأنها تسبح فوق بساط من الماء، مما يزيد في صعوبة التحكم في السيارة.

وكثيرًا ما يشتكي السائقون من أضواء السيارات المقبلة نحوهم ليلاً، لأن ذلك يضعف الرؤية، ولا يجدي في مثل هذه الحالة أن ترد بالمثل بل ينبغي أن تتوقف أو على الأقل أن تخفف من سرعتك وتركز نظرك على الحافة اليمنى للطريق وينصح من يسافر ليلاً أن يفحص جميع أضواء سيارته قبل السفر لأن السائقين إنما يعرفون مكان وجوده واتجاهه بوجود الأضواء وعند ملاحقة سيارة ينصح باستعمال الضوء الخافت.

فكن أيها السائق حكيمًا في تقدير السرعة والمسافة. تجنب التوقف المفاجىء لتحافظ على فراملك. استعمل كل الحذر في تجاوز سيارة أمامك: تأكد من فراغ الطريق أمامك، افحص المرآة لتتأكد مما وراءك، ثم أعط الإشارة واضغط على البنزين، ولا تقذف بسيارتك أمام السيارة التي تجاوزتها حتى يمكنك مشاهدتها في المرآة. ولا تتبع سيارة أخرى عند التجاوز إذ إنك لا ترى بوضوح، ومن بعيد ما أمامك. ولأن السيارة التي تبعتها قد تلجأ فجأة واضطرارًا إلى منفذ على اليمين وتتركك في مأزق تواجه سيارة مقبلة نحوك بسرعة هائلة.

27-05-77

*****

(2)

حوالي 45٪ من الحوادث القاتلة تحدث لسيارة واحدة، بدون تدخل سيارات أخرى، ولا يبقى السائق حيًا ليقص علينا مدى يقظته أو غفلته في اللحظة الأخيرة قبل وقوع الحادث.

لأسباب عديدة يستولى النوم والارتخاء على السائق، خلال السفريات الطويلة. إليك بعض النصائح تساعدك على البقاء يقظًا واعيًا:

- اترك همومك في البيت. من الخطر أن تسوق سيارتك إذا كان القلق أو الكآبة مستوليًا على فكرك.
- قلة الأكسجين داخل السيارة تجلب لك النوم. فأقلل من التدخين وافتح النوافذ ليتجدد الهواء داخل السيارة.
- لا تكثر من الطعام الغني أو الثقيل قبل بداية رحلتك.
- افتح ، بين الفينة والأخرى، منفذًا أماميًا لتصب موجة هواء منعش على وجهك.
- توقف واغسل وجهك ويديك بالماء البارد.
- أمضغ حلويات ذات طعم حاد، ينبه حاستي الذوق والشم.
- افتح المذياع من حين لآخر، وانتق موسيقى صاخبة، لأن الموسيقى الهادئة تقود للنعاس.
- استعمل نظارة شمس من نوع جيد لإراحة العينين.

- افحص مقاييس سيارتك من حين لآخر لأن ذلك يعطيك فكرة عن سير جميع العمليات.

- استعمل الضوء الخافت كلما اقتربت من سيارة أو لاحقتها لأن ذلك يجبرك على التفكير في غيرك.

- غير سرعتك من فترة لأخرى، إذا سمحت لك الظروف بذلك، لأن السرعة الثابتة تجلب النعاس بسبب ما يصاحبها من أصوات وذبذبات رتيبة.

- اجلس مستقيمًا منتبهًا في وضع يسهل عليك مشاهدة ما حواليك.

- لاحظ ما يصدر عن السائقين الآخرين من أخطاء.

- توقف وأمش كل ساعتين. اشرب شيئًا باردًا أو ساخنًا.

- سق سيارتك بحيث تحتفظ لنفسك بمخرج في جميع الحالات. انظر بعيدًا، توقع ما قد يحدث حتى لا تؤخذ على غفلة.

- تجنب أي دواء يحارب النوم. إذا شعرت بالحاجة للنوم يجب أن تنام.

- احذر أي دواء يرخي الأعصاب ويزيل اليقظة.

- اصطحب معك شخصًا آخر إن أمكن ذلك.

حزام الأمن:

إن حزام الأمن هو أهم عملية تقوم بها عندما تشرع في سفرك، ومن الموسف أن كثيرًا من الناس يهملون ربط أحزمتهم لأعذار واهية.

يقول أحدهم: أخاف أن أبقى محبوسًا داخل سيارة محترقة، أو أن الأحزمة لا حاجة لها عندما تكون السرعة بطيئة، ويقول آخر: ما جدوى حزام الأمن عندما تكون السرعة كبيرة ويقع المكروه؟

هذه أعذار باطلة. فقد دلت الإحصاءات العديدة على أن حوادث احتراق السيارات لا تتجاوز 0.2٪ - وحتى في حالة وقوع مثل هذا الحادث فإن الحزام يحفظك من الاصطدام وفقدان الوعي، وبذلك تستطيع أن تنقذ نفسك.

تبين هذه الإحصاءات بأنه في حالات الاصطدامات الخطيرة تتضاعف إمكانية الموت خمس مرات لدى الذين لا يستعملون الأحزمة.

أما بخصوص حالات السرعة الكبيرة والبطيئة فإن الوقائع تبرهن على عكس ذلك. فقد سجلت اصطدامات خطيرة بسرعة لم تتجاوز 40 كيلو مترًا في الساعة. أما في حالة السرعة الكبيرة فإن الحزام يحفظك في مكانك بدلاً من أن تقذف خارج السيارة أو يصطدم رأسك بجدراها.

وفيما يتعلق بحرية الحركة فإن الحزام لا يمنع ذلك بل أنه يزيدك راحة واطمئنانًا فكريًا ويمنعك من الانزلاق وفقدان التوازن عندما تنعطف لتجنب خطر ما .

إذًا فكر قليلاً في فوائد حزام الأمن وابدأ في استعمالها، أنت وعائلتك، حالاً.

الإطار المطاطي للعجلات:

يعتقد البعض أن مهمة الإطار المطاطي تنحصر في توفير ركوب مريح. والواقع أنه جزء لا يتجزأ من نظام الفرامل ونظام نقل الطاقة

من المحــرك للطـريق ونظام القــيــادة. وعنـدمــا لا يكون الإطار مملوءًا بالهواء بصورة كافية يؤثر ذلك على سير هذه الأنظمة، وتعجز العجلة عن تأدية مهمتها.

من الواضح أن الإطار المطاطي لا يأخذ شكل الدائرة الكامل، بل يتسطح قليلاً في مكان احتكاكه بالأرض، وعندما تتحرك السيارة يكون الإطار المطاطي في التواء وتعرج مستمرين نتيجة الثقل.

وهذا يخلق حرارة بالإضافة للحرارة الناتجة عن احتكاك الإطار بالطريق.

ويزيد هذا التعرج الانثناء كلما زادت السرعة أو الثقل، كما يزداد إذا لم يكن الإطار منفوخًا بصورة جيدة. ومعنى كل ذلك ارتفاع حرارة الإطار المطاطي مما يضعفه ويقصر مدة حياته. وقد تؤدى الحرارة إلى انفجار الإطار. فاحذر أيها السائق خلال السفريات الطويلة، خاصة في فصل الصيف، إذا كان الحمل ثقيلاً.

ولا بد من الاهتمام بمقدار الهواء داخل الإطار لأن زيادة النفخ من جهتها تسبب تمزقه في منطقة الوسط.

ليس سهلاً أن يقود المرء سيارته سنوات دون أن يعرض غيره أو يتعرض هو نفسه للخطر. إن الموت على الطريق في حادث سهل الوقوع. ولكن السلامة تتطلب كثيرًا من الانتباه والعمل والمصاريف لتظل سيارتك مصدرًا للراحة لكل من يستعمل الطريق سائقًا أو ماشيًا.

03-06-77

*****

كيف ومتى تتجاوز سيارة أخرى؟

لا يمكن تقسيم السائقين إلى جماعة مغامرة وأخرى محافظة. فالناس يختلفون من يوم لآخر تبعًا لحالتهم النفسية. فمعظم السائقين يخففون السرعة في المكان والزمان المناسب، عند المنعطفات، حين الغروب، عند نزول المطر... إلخ.

وقد نجد هؤلاء أنفسهم يرفضون تخفيف سرعتهم عندما يحاول سائق أن يتجاوزهم. ومع ذلك فتخفيف سرعتك وفتح المجال لمن يرغب في تجاوزك قد ينقذك من الهلاك.

لنفرض أن سائقًا حاذاك بسيارته، فزدت أنت في سرعتك، أو على الأقل لم تساعده على إتمام عمليته. وهناك سيارة قادمة مثل السهم. ففي مثل هذه الحالة تجد نفسك مضطرًا إما لزيادة سرعتك، محاولاً الهروب من السائق الذي يحاول تجاوزك، وربما كان هو يفكر في نفس العملية، مما يزيد في إمكانية اصطدام ثلاث سيارات.

أو تضطر لرمي سيارتك نحو اليمين ومن يدري ما يكون على يمينك في تلك اللحظة. وأسلم شيء، قبل بلوغ حالة الاضطرار أن تفسح له المجال، فتخفف من سرعتك وتسمح له بالمرور. وحتى في هذه الحالة يجب أن تفحص مرآتك لمشاهدة ما خلفك. لأنك إذا خففت سرعتك بدون تحفظ فقد يصدمك من خلفك.

ونحن نعرف أن السائق القلق الذي لا يفكر إلا في تجاوز ما أمامه من سيارات قد يضعك في موقف حرج. ولكن في مثل هذه الظروف لا تفكر فيمن على خطأ أو صواب، لأن أهم شيء هو البقاء على قيد الحياة. وستشعر بهدوء نفسي عندما تخلص من ملاحقة مثل هذا السائق. وأعلم أنه من واجبك، إذا كانت الظروف لا تسمح له بالتجاوز، أن تعطيه الإشارة المناسبة. وتبدو أهمية هذه العملية عندما تكون وراء شاحنة لا تسمح لك بمراقبة الطريق أمامك. ويدرك سائقو الشاحنات ذلك فيعطونك إشارة المرور أو عدمه في الوقت الملائم.

وعملية تجاوز سيارة لأخرى من الأهمية بحيث تستوجب مزيدًا من التعليق يجب أن تتأكد أولاً من أن أمامك مجالاً فارغًا لتجاوز السيارة. ثانيًا تأكد من استعمال السرعة المناسبة التي تمكنك من إتمام العملية في المسافة المتوفرة. أشعر السائق الذي أمامك بأنك تنوي المرور، باستعمال المنبه نهارًا والضوء ليلاً. وقد يصعب على سائقي الشاحنات سماع منبهك، خاصة لأنه يصعب عليهم مشاهدة السيارات الصغيرة بوضوح.

تذكر كلما قررت تجاوز سيارة أنك قد تتعرض لأسوأ أنواع الحوادث إلا وهو الاصطدام بسيارة تسير في الاتجاه المعاكس. فانتبه جيدًا في الطرق الضيقة والمنعطفات والطرق الجبلية حيث يزداد الخطر.

وقد تجد نفسك على طريق ضيق محصورًا وراء سائق بطيء أو شاحنة. وربما تجمع عدد من السيارات وراء السائق البطيء والتصقوا

ببعضهم كل واحد منهم ينتظر فرصة ليتجاوز غيره. وهنا يجدر بالسائق الحذر أن يتجنب المجازفة. وكم من شخص راهن على مهارته فلم يعش ليعرف أنه أخطأ التقدير. ولا يمكن للمرء أن يحصل على التجربة الكافية ليصبح سائقًا قديرًا إلا إذا ابتعد عن روح المغامرة والمجازفة.

لا تتجاوز سيارة أمامك بسرعة خاطفة. فزيادة السرعة تؤثر على تحكمك في السيارة كما أن تجاوزك بسرعة بطيئة ليس عملية حكيمة. ولا ينبغي أن تتردد عندما تحاذي السيارة التي أمامك. هذه غلطة يرتكبها عادة المبتدئون، وذلك يغضب السائق الذي أمامك. والتجاوز المناسب هو أن تخرج من خلف السيارة على بعد مناسب وبسرعة مناسبة ولا تدفع بسيارتك أمام السيارات الأخرى إلا بعد أن تتمكن من رؤيتهم في المرآة. ولتتجاوز بسلام تحتاج إلى سرعة تفوق السيارة التي أمامك بنحو عشرين كيلو مترًا في الساعة. ولهذا يصبح خطيرًا أن تفعل ذلك في المنعطفات والطرق الجبلية والأماكن ذات السرعة المحدودة. تذكر أيضًا أنه لا يبقى في استطاعة السائق المتوسط أن يتحكم في السيارة العادية عندما تتجاوز السرعة 115 (مائة وخمسة عشر) كيلو مترًا في الساعة، في حالة حدوث أي مكروه.

إن الطرق العامة الحديثة تتكون من عدة ممرات في كل اتجاه. وهذا يسهل عملية التجاوز إلى حد كبير. تذكر أيضًا إذا كنت تتجاوز في ظروف تجعل دقات قلبك ترتفع، إنك ترتكب مجازفات قد لا تحمد عقباها.

ونلاحظ أحيانًا سائق سيارة صغيرة يعصرها عصرًا ليتجاوز ويسابق سيارة أقوى. وهذا خطأ واضح يتدخل فيه عامل المنافسة البغيض. وقد ذكرنا أنك تحتاج إلى تصعيد سرعتك بعشرين كيلو متر للقيام بعملية تجاوز ناجحة. وفي حالة اصطدام سيارة صغيرة بسيارة كبيرة فإن الأولى تصاب بأذى أكبر، وتكون إصابات ركابها أخطر، نظرًا لقوة اندفاع السيارة الكبيرة.

ومن المعلوم أن وجود المحرك في مؤخرة السيارة يزيد في قوة السيارة الجاذبة كما يساعد على تسهيل السير في الثلج والطين وغيرها. ولكن لذلك وجه سلبي إذ أن وجود الثقل في المؤخرة يجعل السيارة عرضة لخطر الرياح الشديدة. ويتحايل بعض الناس على ذلك بوضع أكياس رمل في صندوق السيارة في الأمام. غير أن الخبراء يوصون باستشارة المختصين قبل القيام بهذه العملية، التي تتعلق بالتوازن العام للسيارة.

10-06-77

*****

الدراجات والسيارات

تدل الإحصاءات على أن راكبي الدراجات النارية يتعرضون لنسبة أعلى من الحوادث الخطيرة. ذلك لأن الدراجة لا تتمتع باستقرار كاف، كما يصعب على سائقي السيارات مشاهدتها.

وأول واجب راكب الدراجة أن يثبت وجوده ويسهل على السائقين مشاهدته. ولا يجوز له أن يلاحق السيارات والشاحنات عن قرب، وليكن حذرًا عندما يتجاوزها. ومما يساعد على جعله مرئيًا لبس خوذة بيضاء وجاكيت ذي لون فاتح.

من المعروف عن آلة تسير على عجلتين أنها لا تحافظ على توازنها إلا إذا كانت تسير بسرعة مناسبة. وإذا اختل توازنها تنزلق أو تنقلب. ويزداد هذا الخطر في المنعطفات وعندما يكون الطريق مبلولاً، عند التوقف المفاجىء.. إذا من صفات الدراجة النارية الأساسية عدم الاستقرار والتوازن.

لا يتمتع راكب الدراجة بأية وقاية ضد مخاطر الاصطدام. ففي السيارة يكون السائق داخل قفص حديدي، جالسًا على كرسي مريح، يزيد في أمنه حزام الوقاية . وعند الاصطدام يقذف راكب الدراجة بعنف فيصدم رأسه بالأرض و..

عندما تنزل قطرات المطر الأولى وتختلط بما على الطريق من زيوت وغبار الأطر المطاطية وغيرها يصبح الطريق زلقًا. ويتضاعف خطر انزلاق الدراجات ثلاثة أضعاف انزلاق السيارات. كما يزداد الخطر على سائق الدراجة عندما يكون الطريق مفروشًا بالحصباء، وعند مفترق الطرق أولاً لأن السيارات تقف ثم تدور يمينًا أو شمالاً، وثانيًا لتراكم الزيوت نتيجة توقف عدد من السيارات وانطلاقها.

ونظرًا لفكرة عدم الاستقرار المتأصلة فإن إيقاف الدراجة أصعب من إيقاف السيارة. يجب أن تكون العجلتان على خط مستقيم عند التوقف وألا تتعرض لخطر الانزلاق والسقوط.

وبما أن سائق الدراجة (نارية أو عادية) في حاجة إلى إثبات مكان وجوده للسائقين، فإنه من المفيد أن تكون الدراجات مجهزة بضوء خلفي إضافي يشعل كلما دعس على الفرامل. وأول نصيحة هي ألا يقترب راكبوا الدراجات كثيرًا من السيارات، لأسباب عديدة منها:

- صغر الحجم يجعل من الصعب مشاهدتك.
- للسيارة قدرة أكبر على التوقف بعكس الدراجة .
- السيارة أكثر استقرارًا وتوازنًا من الدراجة.
- عند الاصطدام يكون راكب الدراجة هو الضحية نظرًا لثقل السيارة وقوة اندفاعها.
- قد تقذف للأمام إذا ما اضطرت للتوقف فجأة.

ولراكب الدراجــة النارية الحق فـي أن يأخــذ مـن الطـريق نفس المســاحـة التي تـأخـذهـا السـيـارة. لذلـك لا يجـوز لسـائق السـيـارة أن يضايقـه أو يدفعـه إلى حافة الطريق. كما لا يجوز لشخصين أن يسـوقا دراجتيهـما جنبًا لجنب إلا إذا كانت الطريق تتسع لسيارتين في اتجاه واحد. كما ينصح ذوو الدراجات ألا يسوقوا بين السيارات. ونلاحظ أن بعض المبتدئين المتحذلقين يفتخرون بمثل هذه المجازفات. وفي ذلك من الخطر ما قد يجعل راكب الدراجة «ساندويتش» بين سيارتين.

ويتمتع سائق الدراجة، إذا كان الطريق جافًا ومستقيمًا، يتمتع بقدرة على المناورة تسمح له بتجنب مواقف الخطر.

سبق أن ذكرت أن السياقة عمل. وأن اجتناب المخاطر يتطلب كثيرًا من الخبرة والممارسة والحكم السليم. فالسائق المحنك يعرف أنه ينبغي تخفيف السرعة قبل الدخول في منعطف الطريق، كما يعرف أنه إذا كان المحرك في مؤخرة السيارة (خاصة السيارة الصغيرة) يسبب ذلك انزلاقًا عندما تضغط على الفرامل فجأة وبينما يمكنك أن تنقذ نفسك بتوجيه السيارة في اتجاه الانزلاق في السيارة العادية، فإنك لا تجد خلاصًا إذا كان محرك سيارتك في المؤخرة. فاستعمل الحذر في جميع المنعطفات وخاصة إذا كانت سيارتك صغيرة. وامتنع عن استعمال الفرامل بعد الدخول في المنعطف.

وللسيارات الصغيرة امتيازات عديدة منها سهولة القيادة والحركة والمناورة والدوران.. إلخ والمشكلة هي أنه يسهل القيام بمناورات في السيارة الصغيرة ولكن يصعب تنفيذها بأمان. فهي لا

تملك قوة جذب كبيرة نظرًا لصغر عجلاتها، وسرعان ما تنقلب إذا ما قام سائقها بدورة سريعة.

ومهما طالبت السلطات المعنية بفحص السيارات في دورات معينة، فإن صاحب السيارة هو وحده الذي يستطيع أن يسهر على بقاء سيارته في حالة جيدة. فأنت مضطر لاستعمال الفرامل كلما سقت سيارتك. وعندما تضغط على الفرامل تفعل ذلك لوقف أكثر من طن من الحديد. لذلك يجب فحص الفرامل كلما شعرت بأن فيها ارتخاء. كما ينبغي فحص الإطارات المطاطية قبل الشروع في سفر طويل، وفحص الضغط الهوائي. من المهم أن يعرف كل من يسير آلة إلى أي درجة يستطيع أن يثق بها وخاصة إذا كانت حياته وسلامة ذويه تتوقف على ذلك. وغني عن التأكيد أهمية الأجزاء الأخرى من السيارة مثل أضواء الإنذار، جهاز التبريد، وحزام الأمن، وأنبوب البخار، والأضواء الأمامية والخلفية، والحاجز الزجاجي وغير ذلك.

17-06-77

*****

انتبه جدّا للمشاه

لا تقتصر حوادث المرور على السائقين ومن معهم، بل يذهب ضحيتها عدد كبير من المشاة أيضًا. وعليك أيها السائق الخبير أن تتذكر بعض الحقائق بخصوص المشاة.

- يصعب التنبؤ بالاتجاه الذي يأخذه الماشي في أية لحظة.
- يتحرك ببطء، يسرع فجأة، يعكس اتجاهه بسهولة.
- لا شيء يحمي بدنه في حالة اصطدام.
- ومعنى هذا أنه في كل لحظة يقطع أحد المشاة الطريق أمامك، تتوقف حياته على انتباهك ورد فعلك.

قطع رَجُلٌ الطريق، وظن السائق أنه بإمكانه أن يزيد في سرعته وفجأة تذكر الرجل أنه نسي مفتاح دكانه في المنزل فرجع مسرعًا ووقع المكروه.

وقد يكون الماشي مسنًا أو عاجزًا أو طفلاً أو سكرانًا أو قلقًا مهمومًا.. ولذلك يصعب التنبؤ بسرعته واتجاهه فانتبه للمشاة لأنهم قد لا ينتبهون إليك، وليسوا داخل قفص حديدي يحميهم. وانتبه خاصة عندما تسوق بمناطق مأهولة أو تكثر فيها الحركة مثل الأسواق

ودور السينما، والمدارس والحانات، والشوارع، فكلما كثر الناس في منطقة ما ازدادت إمكانية انطلاق أحد في طريقك.

إن جسم الإنسان كتلة لينة خفيفة سريعة العطب فكر باصطدام هذا الجسم بكتلة من الحديد يزيد وزنها على الطن، وتبين الإحصاءات بأن نصف المصابين يموتون حالاً، ويموت ربعهم خلال الأربع والعشرين ساعة، والضربة القاتلة هي صدمة على الرأس سواء من السيارة أو عندما يقذف المصاب على الأرض.

لنفرض أنك تسوق سيارتك وفاجأك قفز شخص في طريقك. فرد الفعل هو الضغط بسرعة وقوة على الفرامل، إذ لا يتصور أن يستمر السائق في سرعته وقد يسبب توقفك المفاجئ بعض الجروح لك ولراكبي السيارة وراءك، هذا يتوقف على السرعة وظروف الطريق.

يعتقد بعض الناس، خطأ أن السرعة البطيئة، عشر كيلو مترًا في الساعة ليست خطيرة، لنفرض أنك تجري بسرعة خمسة عشر كيلو مترًا في الساعة واصطدمت بجدار، ماذا يحدث لك، لرأسك ووجهك؟ هذا مع العلم بأن قوة صدمة السيارة للجسم أقوى بكثير، وأن جسم الإنسان في حال الصدمة يتلقى ضربتين الأولى من السيارة والثانية عندما يرمى على الطريق.

ولهذا لا يمكن لأي سائق أن يدعي بأنه قائم بواجبه ما لم ينتبه جيدًا لما قد يصدر عن المشاة من مفاجآت.

إن السائق الخبير ليس فقط من يرغب في أن يصبح مواطنًا

صالحًا بل يجب أن يعرف كيف يصبح مواطنًا صالحًا، فأنت تسوق برأسك وفكرك وأخلاقك وعاداتك وخبرتك، فتصرفاتك ومواقفك تجاه الحياة هي التي تحدد نوعية سياقتك، وإذا كانت العادات عاداتك فإن السياقة عملية اجتماعية والطريق ملك للجميع.

تذكر أنك خلال سياقتك تتعامل وتتخاطب (بواسطة الإشارات المختلفة) مع أناس أجانب، فكل مرة تنطلق بسيارتك تجد نفسك في ظروف اجتماعية غير التي مرت من قبل.

إن حركة المرور في المدن وعلى الطرقات تحتوي على المسرعين والمبطئين والعاجزين والغافلين والمنتبهين والمبتهجين والساخطين.

ومن أجل كل ذلك يقتل سنويًا الآلاف من الأبرياء عبر العالم.

ألا يمكن أن نشبه حركة المرور بمعركة؟ فكر في المستقبل كلما سقت سيارتك أنك ذاهب إلى معركة يذهب ضحيتها الآلاف أو ليكن شعارك المحافظة على حياة وسلامة الأبرياء.

إن حركة المرور عملية ديموقراطية لأن الحقوق فيها واحدة ومتساوية للجميع، ولا أحد يمنعك من الانتقال واستعمال الطريق إذا راعيت نظام السير واحترمت حقوق الغير.

يعتقد البعض أن عملية السياقة من المنزل للمكتب يوميًا نوع من العقاب يفرضه التقدم على الإنسان، ويرى آخرون في السياقة لعبة لا حق للسائق في اختيار من يلعب معهم، فأنت في الطريق مضطر للتجاوب والتعامل مع من حضر من السائقين والمشاة.

ومن المشـاركين في هذه «اللعبـة» أو «المعـركـة» الغـاضب والقلق والسكران والمهموم والمتعب والحـزين والمريض، ومنهم من تخـاصم مع زوجته في الصباح أو مع رئيسه بعد الظهر.

إن السياقة الجيدة تتطلب تعاون الفكر مع البدن، لذلك كان من المهم أن يهتم ويفكر السائق في الحالات النفسية والبدنية التي يتعرض لها السائقون والمشاة، فاعرف حدود الآخرين ولا تضطرهم لما لا طاقة لهم به.

ويمكن تلخيص فن السياقة الجيدة بأنه القدرة على السياقة دون الاصطدام بأي شيء: نبات أو حيـوان أو إنسـان أو جـمـاد، والوسـيلة الوحيـدة لذلك هو الابتعـاد عنهـا، وطريقة الابتعـاد عنهـا هي مـراقبـة السـرعة وتقدير الظروف المحيطية والقدرة على إيقاف سيارتك قبل الاصطدام.

01-07-77

*****

القســم السادس

موضوعات متنوعة

تصور الإنسان لبدنه وتأثير ذلك على تصرفاته

«يستعمل الإنسان بدنه وأعضاءه أكثر من أي شيء آخر في محيطه. لكن العلماء لم يكتشفوا إلا حديثًا مدى تأثير الصورة الجسدية، التي يكونها المرء عن نفسه، على تصرفاته ويمكن القول بأن الحضارات التي تحتقر أو تمنع بعض التجارب البدنية تجعل من الصعب تكوين صورة جسدية حقيقية كاملة».

وهل هناك شيء أكثر ملازمة للإنسان من جسمه وأعضائه، قف أمام المرآة لا وقفة عابرة أو بقصد مشط الشعر أو الحلاقة، ولكن لتحدق في عينيك وتتأمل انعكاس شخص خلال المرآة. تأمل ماذا يجول بذهنك عندما تتفحص بعض صورك. هل تتساءل: كيف أبدو للناس؟ هل تدفعك غريزة حب التطلع إلى التفكير في مواطن النقص والكمال والقبح والجمال؟ بل إننا نلاحظ ردود فعل حتى عند بعض الحيوانات عندما ترى نفسها في المرآة.

إن جسدك يحتلّ مساحة معينة هي ملكك بدون منازع. ومن هذا المركز الاستراتيجي، وسواء كنت مستلقيًا، جالسًا، راكضًا أو نائمًا، تنطلق جميع عملياتك تجاه العالم الخارجي. وهذه النشاطات وردود الأفعال هي المظاهر الخارجية لوجودك والتعبير الواضح عن شخصيتك.

ونحن نتلقى باستمرار بواسطة البدن، وحتى خلال فترات النوم، معلومات ومؤثرات، وما نتخذه من قرارات وما نراه من تخيلات وأحلام وما نقوم به من تصرفات كل ذلك يتأثر بهذه المعلومات وبمختلف الاحساسات التي تنساب خلال البدن.

ومع كل أهمية البدن في حياة الإنسان فإن العلماء لم يشرعوا في إعطائه عناية علمية ودراسة الجسد كظاهرة نفسية إلا منذ حوالي ربع قرن. فمنذ قرون درس العلماء البدن من الناحية البيولوجية والتركيب والصحة والمرض، تاركين الاعتبارات النفسية لأهل المعرفة في مجالات أخرى من فلاسفة وكتاب وفنانين.

وتحظى بعض الفلسفات الشرقية بعناية متزايدة من الغرب (مثل اليوغا) لما يقال من أنها تعرف الإنسان على بدنه بتوجيه تركيزه نحو الاحساسات الجسدية. ومن هذا القبيل ما يدعيه متعاطو المخدرات من شعور بأن أجزاء من جسمهم قد انفصلت عنهم، أو فقدان الشعور بالحدود بينهم وبين العالم الخارجي، وما ينتج عن ذلك من الإحساس بالاضمحلال والذوبان في المحيط وهذه تجربة بدنية بجانب كونها نفسية.

ولا يختلف عن ذلك الشخص العادي أو الأمي أو المثقف. فكل فرد يشعر ويعترف بالدور الذي يلعبه بدنه وبما يحيط بذلك من عواطف وانفعالات والتأثير المتبادل بين الجسد والعاطفة. إن الإنسان الطبيعي مهتم بالانطباعات التي يتركها مظهره لدى الآخرين. وهو يبدي تخوفات، وتساوره وساوس عندما يكون بدنه معرضًا للأمراض

والمخاطر. وهو يقوم بحسابات مبنية على قدراته البدنية قبل أن ينازل فلانا أو ينخرط في مغامرة أو يتقبل عملاً ما. ومنذ القدم ما انفك الإنسان يصرف جزءًا من وقته للعناية بجسده، فهو ينظف ويجمل ويكسو ويحلق ويقوم بتمارين رياضية ويحاول إنقاص وزنه أو زيادته إلى غير ذلك، هادفًا إلى اكتساب بدن سليم وقوي. وقد تطورت وازدهرت الصناعات التي تنتج المواد والآلات المستعملة لتجميل البدن وتقويته. وتصرف الملايير سنويًا لجعل الجسد أكثر رونقًا ونظافة، وألطف منظرًا وأطيب رائحة وأقوى جاذبية وشبابًا.

ونلاحظ اهتمام الطفل منذ صغره بالتعرف على أعضائه وحسن استعمالها، غير أنه سرعان ما يصطدم، في بعض الحضارات، بتعاليم البالغين ونهيهم وأوامرهم بخصوص المناطق التي يجوز الحديث عنها والتي يمنع الحديث عنها، وما يمكن لمسه أو كشفه وما لا يمكن. وتزداد حيرة الطفل عندما يجد أنه لا يستطيع أن يشاهد النصف الخلفي من جسده بصفة مباشرة.

ويستمر الولد في محاولة تكوين صورة ذهنية حول بدنه، بينما تستمر النصائح والتقاليد تعلمه وتوجهه إلى الابتعاد عن التجارب الجسدية والتركيز على الإمكانيات والملكات الذهنية ومراقبة النزعات البدنية. وهكذا تدريجيًا يجد الولد نفسه منساقًا إلى تقبل ما يرضى التقاليد والابتعاد عما يغضبها.

ومن بديهي القول أن أعز وأغلى ما يملك الإنسان هو بدنه. وبالرغم من أن المرء يستعمل بدنه وأعضاءه أكثر من أي شيء آخر في

حياته، فإن تصوره لبدنه غالبًا ما يبقى منحرفًا وناقصًا. وقد قام العلماء بتجارب بينت بأنه عندما يطلب من الشخص العادي أن يصف بعض أعضائه أو يصدر أحكامًا بشأنها فإنه يقع في أخطاء ويبتعد عن الدقة.

ومن جملة ما يزيد في صعوبة وصف الإنسان لبدنه وصفًا دقيقًا التغيير الذي يطرأ عليه من نحافة أو بدانة أو شيخوخة. وأنت عندما تلتقي بصديق بعد مدة طويلة فإنك تقارن بين تلك الصورة التي بقيت عالقة بذهنك منذ خمسة عشر سنة مثلاً وصورة صديقك كما هو أمامك اليوم وهنا تلاحظ فروقًا لا يشعر بها هو بدقة.

وكل إنسان يحمل في مخيلته صورة لبدنه قد تكون هذه الصورة مطابقة للحقيقة أو أكثر أو أقل. ولهذا المفهوم الذي يكونه المرء حول جسمه تأثير كبير على تصرفاته. فالشخص الذي يتصور أن بدنه نحيلاً ضعيفًا متعبًا يتصرف بحذر أكثر من الذي يرى في نفسه مثل الخشونة والقوة. ومن الملاحظ أن الشخص الذي يصد عن بدنه لضعف أو قبح به أو نقص أحد أعضائه ينصرف إلى التعويض عادة في النشاط العقلي أو الأعمال الرياضية.

وقد أصبح من المؤكد أن التجارب الجسدية السلبية أو الإيجابية في حياة الفرد تؤثر على تصرفه وتوجه ردود فعله والأحكام التي يصدرها على العالم الخارجي.

أجرى أحد العلماء التجربة التالية في المخبر. أخذ عددًا من

صور الفتيات في لباس السباحة وطلب من عدد من الرجال أن يصنفوها حسب درجة الجمال والجاذبية. أخبرهم بأن دقات قلوبهم ستسجل خلال قيامهم بعملية الانتقاء. وأضاف قائلاً ولكنه، بسبب خلل في جهاز التسجيل سيتمكن كل منهم من سماع نبضات قلبه وهي تسجل. غير أن الخبير عمد إلى الحيلة وأسمع كلاً من الرجال نبضات كانت قد سجلت مسبقًا بقصد التجربة. وكان العالم يغير نبضات القلب عندما تمر أمام الرجل المخبر صورة معينة من صور الفتيات. وجاءت النتيجة كما كان يتوقع. فقد اختار الرجال تلك الصورة التي مرت أمامهم عندما ارتفعت نبضات القلوب المزيفة ووصفوها بأنها أكثر جمالاً وجاذبية. وتؤكد هذه التجربة وتجارب أخرى تشابهها النظرية القائلة بأن تصور الإنسان لما يجرى في داخل بدنه يؤثر على أحكامه ويلون نظرته لما يجري في العالم الذي يحيط به.

وقد أظهرت تجارب أخرى بأن حكم المرء على مدى بعد الشيء أو قربه قد تختلف تبعًا لما يتصوره من علاقة هذا الشيء بجسده. وأن شعور الإنسان بلطافة الآخرين نحوه كذلك ترتبط بمدى اعتقاده بسلامة بدنه وإحساسه بالأمن تجاههم.

ومن الأشخاص من هو أكثر تركيزًا على منطقة خاصة من جسمه. ووجد العلماء أن كل ناحية من نواحي الجسم يجري التركيز عليها مرتبطة بموضوع صراع نفسي. فالشخص الذي يولي قلبه اهتمامًا خاصًا هو شخص شديد الشعور بالذنب، ومن يوجه انتباهه إلى ظهره يشغل نفسه عادة بإظهار العواطف العدائية تجاه من لا يثق

بهم، ومن تشتد حساسيته بالقسم الأيمن من بدنه مقابل القسم الأيسر هو شخص يشعر عادة بالخجل أمام الجنس اللطيف.

ويدل تقدم البحث وتوسع التجارب على أنه أصبح ممكنًا معالجة بعض الأمراض النفسية بالتأثير على التجارب البدنية والصور الخيالية للبدن. يمكن للعالم مثلاً أن يغير هذه الصور ويجعل الفرد أكثر شعورًا بجسده وأدق تقويمًا لإمكانياته، وأكثر ثقة بحركاته ودفاعه وسلامة ووحدة جسمه إلى غير ذلك. والخلاصة أنه من الحكمة أن يتفقد الإنسان الصورة التي رسمها الخيال عن بدنه ويحاول أن يجعلها أقرب ما أمكن إلى الحقيقة. فقد ثبت بدون ريب مدى تأثير هذه «الصورة البدنية» على تصرفاته. وتزداد إمكانيات نجاح المرء كلما كانت هذه الصورة أكثر واقعية والعكس صحيح.

10-07-72

*****

البقاء: سبعة أسئلة حول المستقبل

تأليف : أرنولد توينبي

عرض : الأزرق بن علو

(1)

لأي هدف يعيش الإنسان؟ كيف يعالج صراع الجيلين الجيل الحاكم والجيل الناشيء؟ كيف نساعد الفرد على القيام بواجباته في مجتمع الغد المعقد؟ ما مستقبل العلاقات بين العالم المصنع والنامي؟ لماذا يهمل الغرب واجباته نحو العالم النامي؟

هل يمكن إنقاذ العالم من الدمار بإنشاء حكومة عالمية موحدة؟

هل مواردنا الطبيعية في خطر؟

ما هو تأثير التقدم التقني على دور المرأة؟ وعلى حياة الإنسان بصفة عامة؟ هل الزواج والعائلة مؤسسات اجتماعية ضرورية؟ ما مستقبل الديانات؟

هذه بعض الأسئلة التي يحاول المؤلف أن يجيب عنها في كتابه (البقاء)، الذي نشر في صيغته الأصلية باللغة اليابانية وبشكل مقالات تشتمل على سبعة وستين سؤالاً وجوابًا.

يقول الكاتب في المقدمة (إني أعرف الشباب بصفة ملموسة، واقعية ومباشرة لأن لي تسعة أحفاد ما زالوا بين سن السابعة عشرة والسادسة والعشرين، وأحفادي يمثلون في عيني جميع شباب العالم).

ولذلك فهو يوجه اهتمامه للجيل الناشئ، ويعتقد بأن الأسئلة تعبر عن تساؤلات وآمال وشكوك ومخاوف هذا الجيل. ولا ينسى المؤلف أن يؤكد بأن موضوع كتابه يهم جيل الآباء أيضًا، إذ أن الجيل الناشيء بحاجة إلى مساعدة هؤلاء في التجاوب معه وتفهم مواقفه وردود أفعاله في حالات القلق والثورة التي يجتازها.

وعلى الشباب أن يرحبوا بعبئهم وواجباتهم وأن لا يقلدوا دور (هاملت Hamlet):

«في حقده وشكوكه وتردده»، لأنهم إذا نجحوا خلصوا الإنسانية من الدمار، وإذا فشلوا لم يبق من يرث الأرض بعدهم.

ويتحدث توينبي "Toynbee" بشيء من التخوف والتشاؤم حول الظروف العسيرة والخطيرة التي تنتظر الإنسانية في ميادين الصراعات بين الدين والعلم والتقليد والرقي، والفرد والمجتمع والأغنياء والفقراء. ولكنه يفعل ذلك بتعقل واعتدال.

إننا حسب رأي المؤلف، نعيش في عالم أصبحت فيه شخصية الفرد وشخصية المجتمع مهددتين بالانحلال. غير أنه بإمكان التربية، في أوسع معانيها، أن تساعد الإنسان على استرداد شخصيته، وعلى

خلق نوع من الانسجام بين الفرد والمجتمع بل وإن توحد الجنس البشري على المستوى العالمي.

ولا شك، كما يقول الكاتب، بأن تقدم العلم والتقنية زاد في قدرة الإنسان على تقرير مصيره بنفسه رغم قوى الطبيعة المحيطة به، وقوى رقابته وسلطته على محيطه وعلى الكرة الأرضية. أصبح الإنسان قادرًا على أن يحرر نفسه كما أصبح قادرًا على أن يزيد في أغلاله أو أن يحطم النوع البشري، لقد أصبح سيدًا للتقدم التقني كما أصبح عبدًا له في نفس الوقت.

يقول توينبي "ToyNBee" أن الإنسان يعيش من أجل ثلاثة أشياء: **ليحب وليدرك ولينتج**. الحب رغبة والرغبة نوعان: نوع يجذب الفرد خارج نفسه، فيهديها للآخرين، للإنسانية للحقيقة الروحية التي تغمر العالم. والنوع الآخر يدفع الفرد لاستغلال العالم، لجلب كل شيء نحو نفسه بغية الانتفاع منه. ونوع الحب الذي يعنيه الكاتب هو النوع الأول طبعًا. ذلك الحب الذي يضحي بالذات من أجل أهداف إنسانية سامية.

إنه حب ينكر (الآنا) كما برهن على ذلك مؤسسو الديانات العظمى.

وهنا يتساءل المؤلف فيما إذا كان استغلال الإنسان للكائنات الحية لإشباع رغباته مناف للحب كما يعنيه. ويذكر أمثلة من الهند حول التعايش السلمي بين الإنسان والحيوانات والحشرات.

أما فيما يتعلق بالسبب الثاني الذي يدفع الإنسان للحياة وهو الإدراك فيشير المؤلف إلى كون الإنسان المخلوق الوحيد الذي يتمتع بقوة العقل والتفكير. ومعنى ذلك أنه يتمتع بالقدرة على الاختيار. إذا ينبغي على الإنسان أن يستعمل هذه الميزة الإنسانية لتوجيه حبه توجيهًا سليمًا.

أما بخصوص السبب الثالث وهو الإنتاج أو الخلق فذلك يعني في رأي توينبي (محاولة تغيير هذا العالم لإصلاحه بقدر الإمكان).

فمنذ أن استيقظ الحيوان، فأصبح إنسانًا مفكرًا شاعرًا بدأ يؤثر على محيطه ويغيره: ألف النباتات والحيوانات، وشيد المباني والمصانع، وأنتج أشياء متنوعة لها قيمة علمية وفنية وثقافية.

غير أن هناك عراقيل عديدة تتسبب في الخلاف والصراع الموجود بين مثلنا العليا أو ما ينبغي أن تكون عليه الأمور، وبين الواقع. وهنا يتطرق المؤلف إلى الصراع بين الأجيال أو الجيلين الناشئ والحاكم، فيقول إن الجيل الناشئ يتهم الآباء بالنفاق والتقصير والخيانة والتهاون تجاه حقوقهم إذ يخشى الجيل الصاعد أو الشباب أن تؤدي أخطاء الجيل الحاكم إلى حرمان من يخلف هؤلاء من حياة أفضل.

12-10-75

*****

البقاء: سبعة أسئلة حول المستقبل

(2)

من جملة المشاكل التي يعالجها المؤلف في كتابه «البقاء» الذي نشرنا عنه حلقة في العدد الماضي.. قضية الدين والتقنية، فيقول: «إن التقنية تجهز الإنسان وتمكنه من القوة المادية غير أن القوة المادية التي لا توازنها قوة روحية مثل الحكمة والمحبة تصبح نقمة لا نعمة».

ويبدو للكاتب أن الإنسان في حاجة إلى قوة أخلاقية تحميه من نفسه ومن بنى جنسه. لذلك سادت تعاليم بوذا، وكونفوشيوس، ولاوتسو، وجميع الأنبياء والرسل فأشبعت تعاليمهم الحاجة وملأت الفراغ الأخلاقي في نفوس البشر.

ويتأسف توينبي لكون الدين بدأ يفقد من قيمته وسلطته. ذلك لأن العلم يقدم للناس البراهين الملموسة على نظرياته. إن الإنسان يولد فيجد نفسه في حيرة وفي عالم متشابك الأسرار. وتساعد الديانات الإنسان فتمده بأجوبة كثيرًا ما تبعد حيرته وتساعده على تقبل بعض الحوادث الغامضة مثل الموت، أو على الأقل تساعده على مواجهتها.

وإذا نظرنا إلى الإنسان اليوم وهو يجهد نفسه للحصول على المزيد من الثروة والقوة، وإذا عرفنا أن نجاح الإنسان في هذا الميدان

لم يزل تعاسته وحيرته، ذهبنا مع المؤلف إلى القول بأن التقدم التقني، عندما يطلب كغاية في حد ذاته، فإنه يسلب من المرء إنسانيته ويبعده عن النجاح الحقيقي.

لذلك نرى الكاتب يستنتج أنه لا يمكن للعلم ولا للتقنية أن تستغنى عن الدين بمعناه العام، إذ لا تقدر أي منهما أن تشبع الرغبات الروحية. فالعلم يقدم أجوبة نهائية لا جدال فيها. ونحن نعرف أن كثيرًا من المشاكل العويصة التي تواجه الإنسان ليس لها حلول وأجوبة مؤكدة ونهائية. للعلم حدود، والمعرفة نسبية. وهذا لا ينقص من قيمة ما حققه العلم في ميدان التطور والنمو.

وهل استطاعت التقنية والتقدم والثروة أن تحلّ مشاكل مثل القلق والخيبة والشعور بالذنب وفقدان الأمن؟ وهل عالجت أنانية الإنسان التي تكاد تقضي على وجوده؟ لقد استطاع العلم أن يشكك في الدين أحيانًا، ولكنه لم يقدر على ملء الفراغ الذي خلقه هذا الشك.

يبدو أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف أنه سيموت. «وقد عجز الثراء والسلطة أمام الموت». هذا ما يقوله المؤلف وهو يتساءل عما إذا كان الدين ضرورة أبدية. ويضيف: «هل نتوقع أن ينجح العلم في جعل الإنسان مخلوقًا خالدًا؟ لنفرض ذلك، أن كون الإنسان يعيش حياة أبدية لا نهاية لها في هذا العالم، هو في نهاية الأمر، يشبه كونه يموت بعد أجل معين». وهنا يذكر بأنه يمكن قياس قيمة ديانة ما بمعرفة مدى تأثيرها على موقف الفرد في مواجهة الموت.

وفي مجال الحديث عن الثقافة بمعناها العام يعتقد المؤلف بأن

ثمار العلم والتقنية يجب أن توزع على جميع الناس، كما ينبغي أن تنسى شعوب عصرنا الفكرة القائلة بأن المنتج المباشر لثمار العلم هو المالك لها وصاحب الحق في استغلالها. وفي رأيه أن المنتج المباشر قد حصل على مساعدة المجتمع منذ دخوله للتعليم الابتدائي. لذلك ينبغي أن يكون شعار الناس لكل حسب حاجته لا حسب إنتاجه. وهنا يذكرنا توينبي مرة أخرى بأن الجانب المادي في طبيعة الإنسان لا ينبغي أن يكون غاية في حد ذاته وأن هدف الحياة الحقيقي روحي.

ويقدم الكاتب الشهير أفكارًا واقتراحات إنسانية شاملة تدل على بعد النظر، وتخرج عن نطاق سياسات الاستغلال والرأسمالية الضيقة، فيحذر من خطر الحرب، وينادي بتدمير الأسلحة الفتاكة، واستعمال الأموال التي تنفق على التسلح للنهوض باقتصاد ونمو الدول الفقيرة. ويدعو إلى تكوين حكومة عالمية لمنع نشوب الحروب بين الدول، ولتوزيع خيرات الأرض توزيعًا عادلاً بين الشعوب.

وفي معرض الحديث عن الإنسان وحياته الاجتماعية يقول توينبي: «إن الإنسان مخلوق مشاكس تتحكم فيه نوازعه. وهو يثور ضد محاولات تنظيمه وتأديبه. ولكنه لا يمكن أن يعيش حياته الاجتماعية دون الخضوع لأنظمة وتقاليد وقوانين معينة، تحمي المصلحة الجماعية والفردية معًا».

ويدلل على ذلك بمثال بسيط هو الأنظمة التي يخضع لها سائقو السيارات. فلو ساق كل حسب هواه لأصبحت الطرق خطرًا على كل فرد. إذًا لا بد من النظام والقانون. ومثال آخر هو تلك الجماهير التي

بنت الأهرام، وشيدت حضارة بابل وغير ذلك، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك لو لم يخضعوا لتكييف وتنظيم سابق. ومثال ذلك حالة الجنود الذين يرسلون للحرب. ويلعب الدين والوطنية والحرية دورًا كبيرًا في تكييف الناس وإعدادهم نفسيًا للقيام بمهام كثيرة لا تؤتي ثمارها إلا في المستقبل البعيد.

ويرى المؤلف أن الفرد أصبح اليوم يئن تحت عبء «الضخامة» من ناحية العدد والحجم، عدد سكان الأرض مثلاً وضخامة الإنتاج والمدن والعلوم. وقد أدت هذه الضخامة إلى تنظيم الناس حول آلات مثل التلفزيون والعقل الإلكتروني. ثم إن الشركات التي تنتج الآلات الحديثة أصبحت ضخمة بحيث تعادل أو تفوق سلطتها سلطة الحكومات، وبالنتيجة تجد الحكومات نفسها مضطرة للتدخل لتحل محل الشركات.

ومن جملة الأنظمة الضرورية للمحافظة على الفرد والمجتمع ظاهرة العائلة. فالخروف أو الحصان سرعان ما ينهض بعد ولادته ويركض وراء أمه، بينما يحتاج الإنسان إلى سنوات عديدة قبل أن يصبح قادرًا على القيام بحاجاته. والفرق الواضح هنا هو أن الحيوان يعتمد على غريزته، والإنسان يعتمد على ما يرثه من تربية وثقافة، وكلما تقدم المجتمع في الحضارة تطول فترة إعداد الطفل للحياة. هذا ما يقوله المولف بصدد الحديث عن أهمية العائلة كمؤسسة ضرورية في بناء المجتمع.

وينتقل للحديث عن تغيير دور المرأة في المجتمع، وأنه ضرورة من ضرورات التقدم العلمي والتطور الاقتصادي. والواقع أن دور المرأة

يتبدل نحو الأحسن. فلو سئل التاريخ لأجاب أنه صنع وكتب من طرف الرجال في معظمه، وكان العالم (وما يزال في أغلب الدول) عالم رجال. وعاشت المرأة وما زالت تعيش مهضومة حقوقها.

ومما أثر على حقوق المرأة وجعلها معزولة عن معترك الحياة في رأي الكاتب كون الرجل أقوى بدنًا من المرأة. فقد سيطر الرجل على المرأة خلال التاريخ لأنه هو الذي كان يحارب لحماية القبيلة وهو الذي كان يشتغل في الزراعة.

أما اليوم، في العصر التقني فقد حلت الطاقة الكهربائية محل العضلات، واستبدلت قوة الرجل والحيوان بقوة الطبيعة، وبذلك بدأت المرأة تتحرر من ضعفها البدني النسبي.

19-10-75

*****

صدمة المستقبل

تأليف : ألفين توفلر
عرض : الأزرق بن علو

يقول أحد العلماء الأمريكيين: «إن عالم الستينات يختلف عن العالم الذي ولدت فيه بالدرجة التي يختلف بها العالم الذي ولدت فيه عن عالم يوليوس قيصر: وبهذا أكون قد ولدت في منتصف تاريخ الإنسانية. ذلك لأن أهمية الحوادث التي وقعت منذ ميلادي تعادل أو تتجاوز ما حدث في تاريخ الإنسانية، ما بين ميلادي وعهد قيصر».

ويوضح مؤلف كتاب «صدمة المستقبل» هذه الحقيقة فيقول: إذا قسمنا الخمسين ألف سنة المنصرمة من تاريخ البشرية إلى عدد من حياة أشخاص، وجعلنا معدل كل حياة يعادل اثنين وستين سنة، فإننا نحصل على ثمان مائة حياة (أي 800 × 62 = 49.600 سنة).

وقد قضت البشرية أكثر من أربعين ألف سنة في الكهوف. ولم يصبح الإنسان قادرًا على نقل أخباره ونشاطاته للجيل اللاحق إلا خلال السبعين حياة الماضية، عندما استعمل الكتابة والقراءة. ولم تتمكن جماهير الناس من قراءة ما يكتب وينشر بواسطة الطباعة إلا خلال (الست حياتات) الماضية. ومنذ حوالي مائة وثلاثين سنة فقط بدأ الإنسان يستعمل المحرك الكهربائي. والأغلبية الساحقة من المواد والآلات التي نستعملها اليوم صنعت خلال الستين سنة الأخيرة.

وبهذا يشرح لنا المؤلف كيف ولماذا يعتبر القرن العشرون نقطة فاصلة بين ماضي الإنسانية وحاضرها. فخلال هذا القرن انعكست علاقة الإنسان بالموارد. ويبدو هذا واضحًا في مجال الزراعة التي ظلت، خلال عشرات القرون، مورد الحياة الأساسي. بينما نجد اليوم عددًا متزايدًا من الدول يستخدم طاقة أقل من 12٪، من مجموع القوة الوطنية العاملة، في الزراعة. وتصل هذه النسبة إلى 4٪ في أمريكا.

كما أن مظاهر التغير والتبدل أصبحت أعمق وأوسع اليوم. تغيرت الحدود وزالت الحواجز واتسعت الآفاق. فحادثة تقع فوق أرض فيتنام مثلاً تحدث تحالفات في واشنطن. وتقوم مظاهرات في اليابان أو البرازيل فتتأثر السوق المالية في زوريخ إلى غير ذلك. ولم يكن الأمر كذلك في العصور الغابرة.

وهدف المؤلف أن يلفت انتباهنا لأهمية وسرعة ما يحدث اليوم. فكتابه «صدمة المستقبل» يعالج تأثير التغير المستمر على مجتمعاتنا ومنظماتنا ومنتوجاتنا وما يحدث من ضغط في حياتنا وتأثير ذلك على العلاقات والمعاملات الإنسانية، وعلى أساليب الحياة العائلية، وعلى الصداقة والحب والزواج والولادة والعمل والاستجمام... إلخ.

لقد كتب الشيء الكثير عن المستقبل. وبعض ما كتب يهتم بالناحية الآلية والتقنية أكثر من الناحية الإنسانية. ولكن «توفلر» يحاول أن يركز اهتمامه على الأشياء اليومية. فيتحدث عن المساكن في المستقبل، وعن الأغذية والملاهي وعن هذه الكميات الهائلة من العلب والغلافات والمنتوجات التي يرميها الإنسان فيلوث بيئته. كما يتحدث

عن نوعية أسواق المستقبل، وعن دور الثقافة وتأثرها بالأدمغة الإلكترونية، وعن هذا الإنسان الذي يتعرض إلى عدد متزايد من المنبهات والمثيرات. وقد يصبح يومًا ما عاجزًا عن الانسجام والتلاؤم مع كل ذلك.

إن التغير كما يقول المؤلف عبارة عن عملية هجوم المستقبل على حياتنا بأشياء جديدة. إذًا لا بد من مواجهة هذا التغير ليس فقط من زاوية دراسية نظرية بل من وجهة نظر الأشخاص الذين يحيون اليوم تجربة التغير. فتزايد واستمرار سرعة التغير يترك آثارًا لا تنكر في حياة الفرد والمجتمع.

ويهتم المؤلف بتحليل النتائج النفسية والمادية لهذا التغير. وفي رأيه أن مرور الزمن قد يجعل قدرة الإنسان على التلاؤم أقل فعالية.

ويهدف السيد «توفلر»، ولو أنه لم ينجح إلا في حدود ضيقة، - إلى مساعدة القارئ على فهم المستقبل وتوسيع معلوماته بغية زيادة طاقاته الانسجامية. ويدعو إلى زيادة تبصر الإنسان بملكاته وقدراته وردود فعله تجاه التغيرات التي تهاجم حياته. وبالإضافة للأهداف والاتجاهات التي يقودنا نحوها التغير والتقدم التقني، يجب أن نهتم بالسرعة وبمعدل التغير الذي نعيشه؛ إذ لا ينبغي أن نهمل المحافظة على التوازن بين سرعة تغير وبين قدرة الإنسان الانسجامية وردود أفعاله.

ويلاحظ المؤلف أنه صدم لما لاحظ من جهل أولئك الذين ينادون

بالتغيير بدعوة القدرة التلاؤمية لدى الإنسان، وفي رأيه أن «صدمة المستقبل» ليست بمشكلة «سوف» تحل بل أنها خطر قد بدأنا نشاهد بعض آثاره. ويمكن وصف هذه الحالة بأنها نفسية - بيولوجية ومحيطية، وبأنها ناتجة عن سرعة ونوعية التغير التكنولوجي.

كثير من الناس في البلاد الغربية خاصة، يشكو من أن الحوادث تتحرك بسرعة أكثر مما تسمح لهم قدراتهم الإنسانية بمتابعتها. فالطبيب يشكو من أنه لا يستطيع أن يساير ما يجد في مجال اختصاصه. ورجل الأعمال يقضي جزءًا كبيرًا من وقت راحته ليطلع على المعلومات المتعلقة بنشاطات شركته، والمهندس مضطر باستمرار لقراءة مقالات وبحوث لتجديد معلوماته.

ويشير الكاتب إلى أن أحد أهداف كتابه هو التأثير على القارئ، ولو بطريقة غير كاملة، ليتخذ موقفًا جديدًا تجاه المستقبل. وكأنه يرمي لتقوية شعور القراء بأهمية حوادث المستقبل وبالدور الذي يلعبه الفرد في تحديد نوعية هذه الحوادث.

ولا ينسى أن يشير إلى بعض الاحتياطات المتعلقة بتكهناته حول المستقبل، منها:

- سرعة فناء الحقائق. نحن نعيش في وقت التغير والتحول السريع. فكم من بحث أو دراسة أو كتاب تجاوزته الحوادث قبل أن ينشر. وكم من آلة تفقد قيمتها، وكم من اختراع يفقد فعاليته بسبب ظهور شيء أفضل. فالعالم اليوم كله عبارة عن قصة

تتطور حوادثها بسرعة. ولا يستثنى المؤلف كتابه من هذه الحقيقة. فقد أمضى خمس سنوات في البحث، وزار عشرات الجامعات والمخابر والوكالات الحكومية، وأجرى محادثات مع عدد كبير من العلماء حول موضوع كتابه. ومعنى هذا أنه عندما طبع كتابه في سنة 1970 كان قد مضى حوالي خمس سنوات على المعلومات التي جمعها.

- ونقطة أخرى هي أنه لا يمكن التحدث عن المستقبل بالدقة والتأكيد. ومعنى هذا أن كل حكم يرد في الكتاب، حول المستقبل، هو مصحوب بشروط واستثناءات ضمنية. وعدم القدرة على التحدث عن المستقبل بدقة لا تبرر السكوت ولا ينبغي أن تقيد الفكر في افتراضاته.

ويقول السيد «توفلر»:

«ليس من الضروري أن تكون النظريات جميعها صالحة لتكون مفيدة. فللخطأ فائدته. فالخرائط التي وضعت في القرون الوسطى تبدو لنا اليوم مضحكة. غير أن عددًا كبيرًا من الاكتشافات اعتمد عليها».

لقد اعتاد العلماء أن يدرسوا الماضي لإلقاء الأضواء على الحاضر. ويحاول مؤلف «صدمة المستقبل» أن يتفهم المستقبل ويكون صورة عنه ثم يرجع لتحليل الحاضر، مستعيناً بصورته تلك، ويحاول إيجاد أفضل السبل المؤدية إلى مستقبل أفضل.

15-10-75

*****

المجتمع السليم

تأليف الدكتور: إريك فروم

عرض : الأزرق بن علو

في هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن الحياة المادية والنفسية لدى الدول الغربية. يقدم عددًا من البراهين المستمدة من الحياة الواقعية ليدلل على أن المجتمعات الغربية، ولو كانت أكثر تقدمًا وأوفر مادة صناعية، لا تتمتع بالسلامة العقلية والراحة النفسية.

يقول: «إننا نعتبر الاضطرابات الفكرية المنتشرة قضايا شخصية وفردية، ولكننا نتعجب لكثرة الذين يعانون منها». ويأتي الكاتب بعدد من الإحصاءات لمختلف الدول الغربية تظهر مدى انتشار الأمراض النفسية وتكاليفها السنوية.

وبعد أن يشير إلى ما أنتج العالم الغربي من ثراء مادي، خلال المائة سنة الماضية، ينتقد بكل صراحة نظام المجتمع الغربي وأساليب حياته الاستغلالية فيشير إلى أن الدول الغربية قد تسببت في قتل الملايين من مواطنيها في حروب اعتقد كل طرف بأنه يدافع عن الشرف والعقيدة والحياة الفضلى.

ومن ذلك أن العالم الغربي يعيش في نظام اقتصادي قاس لا إنساني. تعتبر زيادة الإنتاج السنوي من محصول ما أزمة اقتصادية. فيلجأ لتحديد وتقنين الإنتاج لاستقرار السوق. كل ذلك في وقت «نرى

فيه ملايين البشر يموتون جوعًا وهم في حاجة للمواد التي نتلفها أو نحدد من إنتاجها».

كما يذكر ما تنفقه الدول الغربية من مبالغ تعد بعشرات الملايير لإنتاج الأسلحة المدمرة بدلاً من صرفها لبناء المساكن والمرافق الحيوية.

«وعندما ننتقد هذه التصرفات، يعتبروننا خطرًا على الحرية والمبادرة الفردية».

«أما مجالات ووسائل الإشهار والدعاية والجرائد والإذاعات ودور السينما.. فتسمم عقول الناس بأشياء لا علاقة لها بالثقافة السليمة» هكذا يرى الكاتب استغلال طبقة لأخرى بتوجيهها لخدمة مصالحها عن طريق الإشهار.

كما يعارض المؤلف فكرة توفير الوقت الفارغ بإنقاص ساعات العمل لسكان العالم الغربي، ذلك لأنه حسب رأيه، أصبح الناس يفتشون عن شتى الوسائل والفرص لقتل الوقت، وأصبح يبدو عليهم الملل والقلق.

وهو بهذه الانتقادات وهذا الموقف يعارض الأغلبية من علماء الطب النفسي الذين يرفضون القول بأن المجتمع الغربي مجتمع مريض. ورأيهم أن مشكلة السلامة النفسية والفكرية في مجتمع ما، إنما هي مشكلة عدد من الأفراد الذين عجزوا عن التلاؤم مع المحيط وليس فقدان الانسجام في الحضارة نفسها.

غير أن ما يهم الكاتب في تحليلاته ليست الاختلالات النفسية الفردية، بل أنه يعالج «باثولوجية» المجتمع الغربي المعاصر.

وعندما يقدم إحصاءات عن عدد وأنواع الأمراض النفسية في العالم الغربي وعن حوادث الانتحار والسكر والقتل.. يستخلص بأن الدول الغربية «الأكثر تقدمًا وديموقراطية» هي التي تعاني نسبة أكبر من الاضطرابات العقلية.

ويتساءل الدكتور فروم:

«هل يمكن أن تكون حياة الرفاهية والترف والوفر هي التي جعلتنا نشعر بالملل والقلق النفسي؟ وأن السكر والانتحار والمغامرات العدوانية ما هي إلا وسائل للتخلص من هذا الملل؟».

وهو لا يأتينا بجديد عندما يوضح بأن جنس الإنسان لا يمكن تعريفه بعبارات مادية فيزيولوجية فقط، بل لا بد من اعتبار الصفات النفسية الأساسية والقوانين التي تنظم العمليات الفكرية والعاطفية، والعلاقات الإنسانية والاجتماعية التي تسود بين الفرد والمجموعة التي يحيا في وسطها.

إلا أن المؤلف يؤكد أن السلامة الفكرية والنفسية تعتمد على مفهوم طبيعة الإنسان، لأن حاجياته ومشارعه تنبع من ظروف تكوينه الخاص. فالإنسان يشارك الحيوان في حاجات بيولوجية كالجوع والعطش والرغبة الجنسية. ولكن إشباع هذه الحاجات وحدها لا يكفي للحصول على السلامة النفسية. بل هناك صفات إنسانية ضرورية مثل الانتماء لقوم ومكان، والتمتع بذاتية متميزة والتعامل مع الناس، والتسامي، والسير نحو هدف ما... إلخ.

وكما يقول المؤلف إن حل الحاجات الفيزيولوجية أقل تعقيدًا من المشاكل النفسية . لأن هذه الأخيرة ترتبط بعوامل شتى مثل نوعية التنظيم الاجتماعي، وطريقة ضبط العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع.

ويضيف:

«إن السلامة العقلية والنفسية لا تناقش كصفات مجردة لأشخاص خياليين. إذ لابد أن نناقش الحالة الفكرية للرجل الغربي المعاصر، وأن نبحث عن العوامل المختلفة التي تتدخل في حياته فتجعل الواحد سليمًا متوازنًا والآخر عليلاً قلقًا - لا ننكر أن هناك عوامل تقود للجنون وأخرى تساعد على التفكير السليم. ولذلك لا بد من دراسة الظروف الاجتماعية والسياسية وطرق الإنتاج ونوعية الحياة وتأثير ذلك على الطبيعة الإنسانية».

وهو يعتقد بأن العالم الغربي ليس في حاجة إلى مثل عليا وأهداف روحية جديدة. فمعلموا الإنسانية العظماء قد وضعوا نماذج وقوانين الحياة السليمة.

وإن ظهرت تناقضات في تعاليمهم فذلك من صنع أناس شوهوا مبادئهم واستغلوا تعاليمهم لنيل أهداف شخصية.

ولا يساعد النظام التربوي في الدول الغربية، على تكوين المواطن السليم لأن هدف هذا النظام هو إعداد أشخاص لينجحوا في بناء حضارة مادية صناعية. ولذلك يهتم النظام التربوي بتكوين أشخاص

تتوفر فيهم متطلبات هذه الحضارة مثل المنافسة والطموح واحترام السلطة والتعاون مع الغير.. وغير ذلك.

ومن رأى المؤلف أن يوجه التعليم أولاً لتكوين وتنمية الناحية الإنسانية في المواطن، وإلى مساعدته على تَعلُّم مهنة عملية مفيدة وهو يقول بهذا الصدد:

«ليس سن الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة هو أحسن سن للتعليم كما يعتقد البعض، فقد يمكن تعلم اللغة أنئذ ولكن تعلم الأدب والتاريخ والفلسفة لا يكون كامل الفائدة في هذه السن المبكرة. لذلك ينبغي على المجتمع أن يساعد الأشخاص الذين يرغبون في تغيير مهنتهم في حوالي سن الثلاثين مثلاً وأن يساعدهم على تعلم مهنة أخرى».

فالتعليم في رأي المؤلف سواء كان يتمثل في تحصيل معلومات أو يهدف للتكوين الأخلاقي ينبغي أن يوجه لخدمة الفرد والمجتمع. والإنسان لا ينبغي أن يتفهم العالم بفكره فحسب بل وبجميع حواسه ينبغي أن يمثل ببدنه ويسجل بيديه ما يفكر فيه دماغه. فإذا أدرك الإنسان العالم على حقيقته وانسجم معه فإنه يصبح قادرًا على خلق العلوم والفنون التي تغني حياته وتجعلها حياة سليمة.

21-01-77

*****

مشاهدة أفلام الرعب وتأثير ذلك على الجمهور

يقول رأي قديم بأن التمثيل على المسرح يساعد المشاهدين ، بفعل اندماجهم مع الممثلين والحوادث الجارية على المسرح، على إشباع بعض انفعالاتهم المكبوتة، دون إحداث ضرر أو المساس بالأمن. ذلك أن المسرحية بما تثير حوادثها من خوف وشفقة وإغراء، تُطّهّر المتفرجين من مثل هذه الانفعالات.

أما اليوم، وقد مكنت دور السينما والتلفزة مئات الملايين من مشاهدة عمليات العنف، فقد أصبح العلماء والمسؤولون يتساءلون عن تأثير ذلك على الحياة الاجتماعية.

تقول وجهة نظر بأن مشاهدة عمليات القسوة والوحشية مفيدة لأنها تطهر نفس المتفرج من نزعة الاعتداء، وتمكنه من إشباع رغبته في الانتقام ممن تسببوا في فشله، باستعمال خياله، وعن طريق الاندماج مع ما يجري على الشاشة.

وهناك اتجاه آخر يؤكد بأن أفلام العنف مدرسة للجنوح. فالمنحرفون يتأثرون بسهولة بما يشاهدون من وحشية على الشاشة. والشباب ينقاد للمغريات ويميل للتعبير عن انفعالاته بصفة عدوانية عندما تزين له الأفلام ذلك، تكسوه بمظهر الشهرة والبطولة.

ولجأ بعض العلماء إلى مخابرهم فبحثوا وجربوا وكان مما استنتجوا:

1 - إمكانية القول بأن مشاهدة أعمال العنف على الشاشة هي أقرب إلى الإغراء بالأعمال العدوانية منها إلى إشباع الميول الاعتدائية لدى الشخص.

2 - أن هناك متضمنات اجتماعية للتجارب التي قاموا بها، تتعلق هذه المتضمنات بالمغزى الأخلاقي الذي يهدف إليه الفيلم.

ويدعى المنتجون لهذا النوع من الأفلام أن الهدف هو إقناع الجمهور بأن عاقبة الاعتداء لا تحمد، وأن المعتدي لا بد أن يلقي جزاءه. ويقولون أن إقبال جمهور المتفرجين على مشاهدة أفلام العنف دليل على تقبلهم لمبدأ العين بالعين والسن بالسن، الذي يطبق على الشاشة. كما أن هذا النوع من القسوة «العادلة» تسمح لهم بالترويح على أنفسهم والتعبير على انفعالاتهم بالاندماج مع القصة.

غير أن الوقائع تظهر بأن مشاهدة عمليات وحشية على الشاشة لا تتوقف عند هذا الحد من البراءة والخيال. إنها كثيرًا ما تؤدي إلى نشاطات تضر بالأمن ويذهب ضحيتها الأبرياء. فأفلام العنف وإن كانت توحي بأن المعتدي يدفع ثمن اعتدائه، فإن المغزى الواضح هو أن أعمالاً وحشية تقابل بالقتل والانتقام. ولا يخفى ما في ذلك من تبرير للعنف كوسيلة لحل المشاكل والقضاء على الخصوم.

تعرض قصة على شاشة التلفزة، وهي تشتمل على بطل ومجرم،

أو ظالم ومظلوم، أو سلطة وجماعة متمردة، وبعد الملاحقة والكر والفر وإطلاق الرصاص وتبادل اللكمات، تنتهي القصة بانتصار الحق والعدالة. فليس في هذا، ظاهريًا، ما يشجع المجرم بصفة مباشرة على الاستمرار في عملياته. ولكن الخطر يكمن في أن محتوى الفيلم يرفع معنويات عدد من المشاهدين ممن يظنون أنفسهم مظلومين أو محرومين فيزداد الحماس ويصبح البعض أكثر استعدادًا للانتقام.

كما أن مثل هذه الأفلام تفتح مجالات للمنحرفين وتزيد في ميل من لهم ميل أو استعدادات نفسية للقيام بأعمال عدوانية.

ولا يخفى ما لبعض الكتاب من إمكانيات يستثيرون بها خيال المتفرجين، وهم يتفننون في اختراع الحيل المغرية والمشاهد المؤثرة. وقد سمعنا عن أشخاص قاموا بعمليات عدوانية بعد مشاهدتها على الشاشة.

من ذلك ما نقلته إحدى الجرائد الأمريكية من أن ثلاثة مراهقين قبضوا على طفلة فوضعوا منديلاً في فمها وربطوها إلى شجرة وتركوها.

وأجريت تجارب على الأطفال، عرض في إحداها فيلم كارتون يتضمن مشاهد عنف ووحشية على عدد من الأطفال في سن الخامسة. وبعد الفيلم مباشرة قدمت لهم لعب متنوعة فأظهر الأطفال نشاطات عدوانية أكثر من المعتاد تجاه لعبهم. ونحن نعرف أن الأطفال يقلدون في بعض الأحيان ما يشاهدون على الشاشة كما يقلدون الكبار في حياتهم اليومية.

أما بخصوص البالغين فقد أجريت تجارب منها التالية:

أخذت مجموعتان من العاملات في أحد المستشفيات وعرض على الأولى فيلم يحتوي على مشاهد عنف متعددة وعلى الثانية فيلم خال من أي عنف. وبعد تكرار التجربة مع مجموعات أخرى لاحظ الخبير بأن بعض أفرادالمجموعة الأولى كن يظهرن مشاعر عدوانية ويعاملن من يعاكسهن بخشونة خلال فترة قصيرة بعد مشاهدة الفيلم.

وفي تجربة أخرى عرض خبير فيلمًا يتضمن حوادث عنف ووحشية على مجموعة من الرجال وترك مجموعة أخرى محايدة من أجل المقارنة. ثم طلب من أفراد المجموعتين إنزال عقوبات على شخص صوّروه لهم بأنه مجرم. وكان العقاب يتمثل في تصويب شحنات كهربائية «للمجرم» المزعوم. وكانت الشحنات الكهربائية لا تصل للشخص الجالس إلى طاولة في نهاية القاعة بل إلى آلة تسجيل. وكانت النتيجة أن وجهت المجموعة التي شاهدت فيلم العنف شحنات أكثر وأقوى قصد إنزال العقوبة بالمجرم.

ويستخلص من ذلك أن نوازع الفرد العدوانية تستمر حتى بعد مشاهدة عمليات عنف، رغم ما قد يحصل عليه المتفرج من متعة. فالنزعة نحو الانتقام لا تزول بمشاهدة حوادث وحشية تمثل على الشاشة. ففي القصة نشاهد شخصًا يقسو على شخص لا علاقة للمتفرج به. كما لا يكفي الإنسان عندما يكون ساخطًا أو غاضبًا أن يفرغ سخطه على شخص بريء، إذ لا بد ، لإشباع الرغبة العدوانية، من الانتقام ممن كان سببًا لمتاعبك. وهذا يضعف رأي القائلين بأن مشاهدة العنف تفيد في الإقلال منه أو القضاء عليه.

ومن جهة أخرى لا يجوز القول بأن كل فيلم يحتوي على مشاهد وحشية هو غير صالح. بل يجب اعتبار نوع العنف ودرجته ومدى تكراره ومغزاه ودرجة ثقافة ونضج المتفرج.

ونحن نلاحظ في الواقع أنه ليس كل شخص يشاهد فيلمًا من هذا النوع يقوم بأعمال عدوانية. فالقصة تثير الميل أو الرغبة ولا يتحول الميل إلى اعتداء إلا إذا وجدت الظروف المساعدة.

إننا نعيش في عالم كثرت فيه الاعتداءات وحاولت فيه الدول القوية استغلال العنف للتسلط على غيرها. وليست حروب الفيتنام والجزائر وغيرها ببعيدة. وقد شاهدت الشعوب الكثير من الأعمال الوحشية على شاشة التلفزيون. شاهدوا المظاهرات والقتل والتدمير. وما زلنا نقرأ عن شرور الأسلحة الفتاكة وقد زاد ذلك من قلق الإنسان إذ أنه أصبح يملك القدرة على تدمير الحياة فوق الكرة الأرضية في ساعات.

02-06-78

*****

بين الأرض والقمر

منذ القديم حلم الإنسان بالقمر وتمنى اكتشافه أو النزول فوق سطحه، أما اليوم فقد تحققت الأماني، وأصبحت الأحلام حقائق وستظل الأجيال القادمة تقرأ حول مغامرات رجال الفضاء واكتشافاتهم.

لقد قطعت المراكب الفضائية المسافة بين الأرض والقمر عدة مرات، وبانتهاء مشروع أبولو تكون قد انتهت صفحة من أعظم وأغلى صفحات الاكتشافات في تاريخ الإنسان، بذلك يكون قد نزل على سطح القمر اثنا عشر رجلاً، أقاموا هناك مددًا مختلفة، وجمعوا من أحجاره وترابه عشرات الكيلوات ليدرسها العلماء، وتركوا على سطحه آلات ستظل تسجل معلومات لعدة سنوات.

أما بالنسبة للأمريكان فإن الظروف التي وضعت فيها برامج ومشاريع اكتشاف القمر ظروف مهمة، كان ذلك في عهد الرئيس السابق كندي في عام 1961 كانت أمريكا عندئذ لم تصب بعد بهزات الأزمات الاجتماعية مثل ثورة السود، وأزمة البطالة، وتذمر الشباب، ومشاكل التلوث، والأزمات داخل المدن، وكانت لم تذق بعد آلام حرب فيتنام وخزيها، وكان الزعماء الأمريكان آنئذ ينظرون إلى مجتمعهم، بأنه مجتمع ثري يعيش في رخاء، فخافوا أن يصيبه الكسل والانحلال،

لذلك راحوا يبحثون عن أهداف يوجهون إليها اهتمام الأمريكان وعنايتهم، وبذلك حصل الرئيس كندي على موافقة الكنغرس، وتشجيع الشعب لجعل هدف النزول على القمر هدفًا قوميًا. وكانت في تلك السنوات قد حدثت ثورة في جزيرة قرب ساحل الولايات المتحدة الجنوبي تدعى «كوبا» فدق الحكام الأمريكان نواقيس الخطر في نفوس مواطنيهم، محذرين إياهم من انتشار «الشيوعية» في الدول المجاورة كما أن تهديدات خروتشوف المتكررة، بقهر أمريكا في المجالات العلمية، والاقتصادية، خلقت شيئًا من الخوف الممزوج بالتحدي، وبذلك وجدت الحماسة الكافية لمنافسة الاتحاد السوفياتي في مجالات غزو الفضاء.

أما اليوم فقد أصبحت أمريكا تحاول التخفيف من حدة الحرب الباردة، وتسعى للتقارب مع الاتحاد السوفياتي، كما أصبحت تعترف أن لا خطر عليها من كاسترو، وأن كبرياءها قد أنقذ بعد إرسال عدة مراكب إلى القمر، اليوم، وبعد عشر سنوات من قرارات كندي بخصوص الوصول إلى القمر، أصبح الزعماء الأمريكان يعتقدون أن مستقبل أمريكا ليس فقط في نقل «الأحجار» من القمر ولا في منافسة الاتحاد السوفياتي، ولكن أيضًا في العمل على حل المشاكل الداخلية مثل الصراع العنصري، والقضاء على الفقر ومشاكل الحياة في المدن.. إلخ.

ومن الأسئلة التي يكررها كثير من الأمريكان اليوم هي إذا كنا نستطيع أن نرسل أشخاصًا إلى القمر فلماذا لا نحل مشاكلنا هنا فوق

الأرض؟ لماذا لا ننظف هواءنا، ونهتم بمشاكل البطالة والمواصلات.. إلخ وهؤلاء الأمريكان يستهزئون بالفكرة القائلة بأن الاكتشافات الفضائية قد أدت إلى تقوية الروابط بين سكان الأرض، وجعلهم يشعرون بأن مصيرهم واحد مرتبط بتلك الكرة الأرضية المنعزلة في الفضاء المظلم، بل يعتقد هؤلاء الأميركان أن المبالغ التي صرفت على «مشاريع القمر» وهي تتجاوز خمسة وعشرين مليارًا من الدولارات، كان من الأحرى أن تصرف على مشاريع أكثر نفعًا مثل القضاء على الجوع والمرض ومساعدة المنكوبين واللاجئين والقيام بمشاريع لتحسين الحياة فوق الأرض.

ولكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن أمريكا بتنفيذها لمشاريع النزول على القمر، قد حققت أروع الأحلام وبلغت شأنًا عظيمًا بين الدول، ويضيفون أن رحلات رجال الفضاء قد أفادت البشرية كلها وأبلغتها رسالة مهمة وهي أن الروابط التي تجمعها هي أقوى من الخلافات التي تفصلها إلى غير ذلك.

ورأى هؤلاء أن الصناعة الأمريكية قد استفادت كثيرًا من تقدم التكنولوجية الفضائية خلال العشر سنوات الماضية ومن ذلك صناعة الـ«مينكومبيوتر» والـ«ميكرو إليكترونيك» وتكنولوجية الحرارة المرتفعة جدًا، والبرودة الشديدة التي أصبحت الآن تطبق على المعادن والبلاستيك والمواد الكيماوية، ومنها الفوائد العلمية التي تخص الأرض والجو والمحيط والنظام الشمسي بأجمعه.

إذًا يكون المستفيد الأول هو الاقتصاد الأمريكي والصناعة الأمريكية، فالأموال الضخمة إنما صرفت في أمريكا لا في القمر لأن

جميع الآلات صنعت في أمريكا، فخلقت أعمالاً للمواطنين الأمريكان من المهندس إلى المحاسب.

وعلى كل فإن الاكتشافات الفضائية لا تهدف للقمر فحسب، وسوف لا تنتهي هناك، سواء أرضي الفقراء والمتذمرون أم لم يرضوا، فمن جملة أهداف الرحلات الفضائية الاعتقاد بأن الإنسان يستفيد من توسيع آفاقه العلمية، والحصول على معلومات قد تستعمل للأغراض العسكرية.

وقد قرأت في إحدى الجرائد حوارًا خياليًا ممتعًا، أرغب في نقله ببعض التصرف، إلى القارئ الكريم، تخيل الكاتب «أن رجلاً قمريًا» رحب برواد أبولو 17 ثم سأل أحدهم:

ما هي أخبار الأرض؟

- فأجاب رجل الأرض:

ما زالت المحادثات جارية في باريس لتسوية الحرب.

- رجل القمر: الحرب؟!! ما معنى الحرب؟

- رجل الأرض: الحرب هي.. هي عندما تذهب أمريكا لمساعدة دولة ثم تشرع في تدمير دولة أخرى بالقنابل، أعني أننا نحن الأمريكان نحافظ على الديموقراطية والشرف (الكاتب يستهزئ) بواسطة القنابل.

وهنا تدخل رجل الأرض الثاني قائلاً:

- «هذا بحر السلام والهدوء» مشيرًا إلى المكان الذي يقفون فيه، «إنه اسم جميل ولطيف، ولكن من وجهة نظرنا نحن أهل الأرض لا يوجد بحر بدون مياه».

- «ما معنى مياه؟» كان سؤال رجل القمر:

- رجل الأرض: «المياه هي خليط من الهيدروجين والأوكسجين، وهو سائل، والمياه مهمة جدًا على الأرض، فلولاها لما استطعنا أن نعيش أو أن نسبح أو أن نتخلص من النفايات.

- رجل القمر: النفايات؟! وما علاقتها بالماء؟

- رجل الأرض: المياه تجرف النفايات إلى الأنهار والبحيرات، ولكن مع الأسف لقد أصبحت أكثر أنهار وبحيرات أمريكا ملوثة.

- رجل القمر: ملوثة؟! هي كلمة طيبة أو خبيثة؟

- رجل الأرض: هي كلمة غير طيبة، ولكنها ما زالت تتسع بانتشار الصناعة.

- رجل القمر: هل يوجد مثلكم كثير فوق القمر؟

- رجل الأرض: تعني فوق الأرض؟ نحن نسمي قمرنا بالأرض، نعم، قريبًا سيبلغ عددنا أربعة ملايير.

- رجل القمر: وهل عندكم أكل كاف؟

- رجل الأرض: «هذا يتوقف على المنطقة التي يعيش فيها الإنسان، نحو ثلثي سكان الأرض لا يجدون ما يكفيهم، ولكن هذا لا يحدث في بلادي».

وهنا يأخذ رجل الأرض خريطة ويشير إلى الشمال شارحًا لرجل القمر البلاد الغنية، ثم يشير إلى دول الجنوب فيقول:

- رجل الأرض: إننا نسمى هاته الدول «نامية» أنهم لا يملكون المصانع مثلنا، لقد جاؤوا متأخرين إلى هذا العالم الجديد، ولكن من مصلحة القسم الشمالي من الأرض أن تظل هذه البلاد الجنوبية متأخرة، ليمكن استغلالهم...

20 ديسمبر 1970

*****

ولد يوم 4 يوليو (جويلية)

رونْ كوفيك شاب كاثوليكي من لونجْ إيلاندْ، كان معجبًا بجون كندي وبالبحرية الأمريكية. ولد عام 1946. تطوع للجندية خدم دورتين في فيتنام. أصابته شظايا قنبلة فمنعته من إتمام الدورة الثانية. وخلفت فيه مجموعة من العاهات وعجزًا جزئيًا.

إن رون كوفيك اليوم شخص آخر. اندمج في معركة جديدة. لا يمكنه أن يتخلى عن هذه المعركة لأن جسمه محطم ولأنه لا يشعر ولا يتحرك من أسفل الصدر.

لقد كتب مقالات حماسية كشف فيها عن ويلات وآلام حرب فيتنام، وعما قاساه خلال الفترة التي قضاها هناك. ذلك هو مضمون كتابه «ولد يوم 4 جويلية». هذا الكتاب سجل شخصي حافل بما يكشف عن جنون بعض القادة الأمريكيين وعن جهلهم لمغبات الحوادث.

لم يكن رون في البداية معارضًا للحرب. بل قضى الفترة الأولى في فيتنام ثم تطوع لقضاء دورة ثانية. وخلال هذه الدورة أصيب بجراح بليغة. تغيرت آراؤه وأصبح من ألد أعداء الحروب أينما كانت.

يقول في كتابه أنه رفع مرارًا وهو جالس في كرسيه (بعد أن أصبح مقعدًا) ووضع على المنصة خلال اجتماعات عقدها المناصرون

للحرب في فيتنام. ولم يترك ذلك أي أثر في نفسه ولم يشعر بشيء إلا كما تشعر السيارة عندما ترفع لتنظف.

وما زال رون يتجول صحبة كرسيه عبر القارة الأمريكية. ما زال يأمل أن تتحسن حاله. وما زال يعجب بنفسه عندما يجلس داخل الطائرة وينظر إليه الناس وهم لا يعرفون أنه مقعد ولا يعرفون شيئًا من قصته.

ويتحدث في كتابه عن ويلات الحرب ودمارها. عن العمليات الجراحية التي تجرى للجنود، عن أكياس الدم والبول وهي تنتظر الفحص، عن ندم الجنود الأمركيين ودموعهم وصرخاتهم، عن تعاطيهم للمخدرات، عن الجثث المحروقة وعن القرى التي تحولت إلى أفران..

وهو يتحدث بإسهاب عن تدريباته العسكرية وكيف وصل للمشاركة في حرب فيتنام، ويتحدث عن التجربة التي دفعته لمعارضة هذه الحرب وإلى الانضمام للمنظمات المعادية للحرب في فيتنام.

كما يصف في كتابه تجربته خلال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري عام 1972 الذي رشح نيكسون للرئاسة. ويذكر كيف شارك المتظاهرين وتحدث إلى الصحفيين وساعد على إفشال الموتمر وحمل لافتات تطالب بإيقاف الحرب. وكيف أن شرطيًا هجم عليه فأخذ منه لافتة وبزق على وجهه وشتمه. كل ذلك بعد أن جعلته حرب الفيتنام مقعدًا، لا يتحرك بدون كرسيه وعربته.

إذا كنت تريد السلم فاستعد للحرب، هذا هو شعار الكثير من

الزعماء الغربيين. إن أولئك الذين يبدأون الحرب يعتقدون في البداية أنهم محقون، ثم عندما ينتبهون إلى غلطاتهم تصبح مواصلة الحرب قضية شرف وكبرياء.

يقول المؤلف: «يعتقد الضباط في أمريكا أن الحرب هي فرصتهم للترقي في سلم الوظائف، وضراوة الحرب تقتضي ممن يسيرونها أن يظلوا بمنأى عنها».

تسود مثل هذه الأفكار في الولايات المتحدة. وهناك أناس مختصون في توجيه الدعايات السايكولوجية لتبرير الحرب أو لغسل الأدمغة من آثارها. وعندما تنتهي الحرب يغني الناس أناشيد الربيع بدلاً من تذكر حوادث المذابح والنابالم.

ويقول: «كتب جندي لأمه من فيتنام، إني لا أنزع السيكارة من فمي عندما أكتب على أسمائهم عبارة «توفى». وكتب آخر: «نحن الذين بقينا لا بد أن نوحد صفوفنا ونضيق عليهم الخناق، لنحقق الحرية للعالم»».

ادعت أمريكا في البداية، وهي تشن الحرب على فيتنام، بأنها تقف ضد الشيوعية، وبعد سنين لاح في الأفق شبح العملاق الأمريكي العاجز، فبدأ الحديث عن إحلال السلام إذا كان ذلك لا يمس بشرف أمريكا.

زعزعت حرب فيتنام ثقة الشعب الأمريكي بنفسه. نصحهم ماكارثر بعدم التدخل. ونصحهم ديغول بالانسحاب. وأشار زعماء

عديدون بنفس الرأي. وقامت مظاهرات الشباب المعارضين للحرب في أمريكا. واستمرت الحرب، وادعى جونسون ونيكسون بأنهما أوسع حكمة وأصوب رأيًا.

يقول المؤلف ساخرًا: «ربما تقوم أمريكا الآن باستعدادات أخرى لشن حرب أخرى.. ربما هي تسعى لتحطيم الجنس البشري. ولكن لا ضير علينا ما دمنا نفعل ذلك بنوايا حسنة وطرق لبقة ودوافع إنسانية».

هذه كلمات شاب شارك في حرب فيتنام بحماس ثم عارضها بحماس أشد، بعد أن أصبح مقعدًا لا يكاد ولا يستطيع أن يفارق عربته.

11-03-77

*****

الأمم المتحدة

أنشئت هيئة الأمم المتحدة في 24 أكتوبر 1945، وهي منظمة دولية تعمل للمحافظة على السلام والأمن العالميين.

- ميثاق الأمم المتحدة:

الميثاق هو دستور الأمم المتحدة، ويشتمل على الخطة التي تنظمها ، والقواعد التي تحكمها، ويوافق جميع الأعضاء على تنفيذ متطلبات الميثاق الذي يحتوي على 19 فصلاً مُقسمة على 111 مادة تُوضّح الغايات والمبادئ والمعتقدات الأساسية والطرق التي تعمل الأمم المتحدة بموجبها.

تسبق نص الميثاق ديباجة تعبّر عن الروح التي توجه منظمة الأمم المتحدة، وتتضمن ما يلي:

نحن شعوب الأمم المتحدة، لقد آلينا على أنفسنا

أن ننقذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب التي جلبت على الإنسانية مرتين، في خلال جيل واحد، أحزانًا يعجز عنها الوصف. وأن نُؤكد من جديد إيماننا بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الفرد وقيمته، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية.

وأن تُوفر المناخ الملائم الذي يمكن في ظله تحقيق العدالة والاحترام للالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي . وأن ندفع بالرُّقي الاجتماعي قدمًا ونرفع مستوى المعيشة تحت ظل حرية أرحب.

وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا

أن نأخذ بالتسامح ونعيش معًا في سلام وحسن جوار.

وأن نوحِّد قوتنا للمحافظة على السلام والأمن الدوليين.

وأن نضمن، بقبولنا لمبادئ ووضعنا لوسائل، عدم استعمال القوة المسلحة إلا في سبيل المصلحة المشتركة.

وأن نُوظف طرقًا دولية لدفع عجلة التقدم الاقتصادي والاجتماعي لجميع الشعوب.

قد قررنا توحيد جهودنا لتحقيق هذه الأهداف

ولهذا فقد ارتضت مختلف حكوماتنا، عبر مندوبين اجتمعوا في سان فرانسيسكو ، وأبرزوا وثائق تفويض كامل مستوفية للشروط، ميثاق الأمم المتحدة هذا، وأنشأت بموجبه هيئة دولية تسمى الأمم المتحدة.

فروع الأمم المتحدة الرئيسية الستة: تقرر في الميثاق إنشاء ستة فروع رئيسية لهيئة الأمم المتحدة، وتم تحديد واجبات وسلطات وطرق مباشرة كلٍّ منها لأعمالها.

فالجمعية العامة هي الفرع الرئيسي الوحيد الذي يتألف من جميع أعضاء الأمم المتحدة ويجوز لها بموجب الميثاق أن تناقش مسألة أو أمرًا يدخل في نطاق أعمال الهيئة، وأن تقدم توصياتها بالإجراء الذي ترى اتخاذه بوساطة الأعضاء أو بوساطة الفروع الأخرى. ويضطلع **مجلس الأمن** بأهمِّ مسؤوليات الأمم المتحدة للمحافظة على السلام. وتقوم **الأمانة العامة** بمسؤولية معاونة الفروع الأخرى في أداء واجباتها بأعلى كفاءة ممكنة. وقد ألقى الميثاق على عاتق **المجلس الاقتصادي والاجتماعي** عدة أعباء كالنهوض بحقوق الإنسان ومعاونة الشعوب لتحقيق مستوى أعلى للمعيشة. وتباشر **محكمة العدل الدولية** مسؤولية النظر في المنازعات القانونية الدولية. ولقد تم إنشاء **مجلس الوصاية** بموجب الميثاق للإشراف على عدة أقاليم لم تكن تتمتع بالحكم الذاتي عند إنشاء الأمم المتحدة.

وقد أنشأت الأمم المتحدة العديد من الوكالات واللجان والهيئات الأخرى منذ صدور الميثاق، إلا أن الفروع الرئيسية الستة هي أجهزة الأمم المتحدة الوحيدة التي تعمل وفقًا لأحكام ورد النصُّ عليها في الميثاق.

الجمعية العامة:

هي الجهاز الرئيسي الوحيد الذي تُمثّل فيه جميع الدول الأعضاء. ولكل عضو الحق في إيفاد خمسة مندوبين، وخمسة مندوبين احتياطيين وأي عدد يراه من الاستشاريين، إلا أن كل دولة تملك صوتًا واحدًا فقط.

تقوم الجمعية العامة بانتخاب رئيس جديد وعدد من نواب الرئيس في بداية كل دورة سنوية. وواجب الرئيس الأساسي هو رئاسة جلسات الجمعية وتوجيه أعمالها.

السلطات: تعتبر الجمعية العامة مسؤولةً بطريقة ما عن جميع فروع الأمم المتحدة الأخرى. فهي التي تنتخب أو تلعب دورًا في انتخاب أعضاء الفروع الرئيسية الأخرى، وتُوجه نشاطات بعض أجهزة الأمم المتحدة، كما تتولى إدارة ميزانية الهيئة، وتحدد نصيب كل عضو في النفقات، كما تقوم بتحديد مقدار المبلغ المخصص لكل جهاز من أجهزة الأمم المتحدة.

وللجمعية العامة الحق في مناقشة أي مسألة تهمُّ الأمم المتحدة، وتتخذ قراراتها بالتصويت، ولها الحق في تقديم التوصيات للدول الأعضاء والأجهزة الأخرى للهيئة. وقرارات الجمعية العامة المتعلقة بالميزانية هي القرارات الوحيدة - وفقًا للميثاق - المُلزمة لجميع الأعضاء، وتعدُّ جميع قرارات الجمعية العامة الأخرى مجرد توصيات.

وتأتي مسؤولية الجمعية العامة في حفظ السلام في المرتبة الثانية بعد مسؤولية مجلس الأمن مباشرة. وقد ازدادت قوة إجراءات حفظ السلام التي يجوز للجمعية العامة اتخاذها منذ صدور الميثاق. وفي سنوات الأمم المتحدة الأولى، أدى الخلاف الحاد في مجلس الأمن إلى شل قدرة المجلس على التصرف في كثير من الحالات. وفي عام 1950م وافقت الجمعية العامة على قرار (إعلان رسمي) يسمى **الاتحاد من أجل السلام**. وأعطى هذا القرار الجمعية سلطة التدخل

متى ما كان هناك تهديد للسلام، إذا فشل مجلس الأمن في التصرف. وفي مثل هذه الحالة الطارئة يجوز للجمعية التوصية بالإجراءات التي يجب على الأمم المتحدة اتخاذها بما في ذلك استعمال القوة إذا دعت الضرورة.

مجلس الأمن:

يضّطلع مجلس الأمن بمسؤولية حفظ السلام وفقًا للميثاق. ويتكون المجلس من 15 عضوًا، منهم خمسة دائمون هم الصين وفرنسا وروسيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. وكان مقعد روسيا في المجلس يشغله الاتحاد السوفيتي السابق حتى سنة 1991م. أما الأعضاء العشرة غير الدائمين فتنتخبهم الجمعية العامة لمدة سنتين. ولكلٍّ من الخمسة عشر عضوًا مندوب واحد في المجلس.

السلطات: لمجلس الأمن سلطة تحديد الإجراءات التي يجب على الأمم المتحدة اتخاذها لتسوية النزاعات الدولية، وينصُّ الميثاقُ على صدور جميع قرارات المجلس باسم جميع أعضاء الأمم المتحدة الذين يجب عليهم قبولها وتنفيذها. ويُشجّع المجلس التسوية السلمية للنزاعات بدعوة الأطراف المتنازعين للتوصل إلى حلٍّ، أو قد يطلب من الطرفين أو الأطراف قبول تسوية توصَّلت إليها دولٌ أو أفرادٌ أو مجموعات أخرى.

ويجوز للمجلس أن يتحرّى بنفسه عن أسباب النِّزاع، ويقترح طرق تسويته، كأن يطلب من أعضاء الأمم المتحدة وقف التجارة مع الدولة

التي تهدد الأمن والسلام. وقد يطلب من الأعضاء قطع وسائل الاتصال مع هذه الدولة، أو إنهاء العلاقات مع حكومتها. وإذا لم تكن هذه الإجراءات فعَّالةً يجوز لمجلس الأمن أن يطلب من أعضاء الأمم المتحدة تجهيز قوات عسكرية لتسوية النزاع.

الأمانة العامة:

تقوم الأمانة العامة بإدارة أعمال الأمم المتحدة اليومية، ومهمتُها الأساسية هي الإشراف على شؤون فروع الأمم المتحدة الأخرى. وتتكون الأمانة من الأمين العام وإداريين آخرين يساعدهم كتبة وسكرتيرون ومختصون.

الأمين العام: له سلطات أوسع من أيِّ مسؤول آخر في الأمم المتحدة، وهو الإداري الرئيسي الذي يقوم بتقديم تقرير سنوي عن مشاكل الهيئة وإنجازاتها للجمعية العامة، كما يُسدي النُّصح للحكومات، ويستعمل نفوذ منصبه للمساعدة في حلِّ الكثير من المشاكل. والأهمُّ من ذلك سلطته، بموجب الميثاق، في أن يعرض على مجلس الأمن أي موقف يهدد السلام العالمي.

تقوم الجمعية العامة بتعيين الأمين العام بناءً على توصية مجلس الأمن لمدة خمس سنوات، ويجب أن يوافق جميع الأعضاء الخمسة الدائمين على المرشح قبل أن يتمَّ اختياره. وبعد أن يتم الاختيار يقوم المجلس بتقديم التوصية للجمعية العامة التي تقوم بتعيينه أمينًا عامًا بأغلبية الأصوات.

ميثاق جامعة الدول العربية

يتألف الميثاق من عشرين مادة، تتعلق بأغراض الجامعة، وأجهزتها، والعلاقات فيما بين الدول الأعضاء، وغير ذلك من الشؤون. ويتصف الميثاق بالشمولية والتنوع الواسع في تحديد مجالات العمل العربي المشترك، ويفتح الباب أمام الدول الراغبة فيما بينها، في تعاون أوثق، وروابط أقوى مما نص عليه الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض. ويجوز تعديل الميثاق بموافقة ثلثي الدول الأعضاء، وذلك لجعل العلاقات فيما بين الدول الأعضاء أوثق وأمتن، ولإنشاء محكمة عدل عربية، ولتنظيم العلاقات بين الجامعة والمنظمات الدولية التي تسعى لصون السلم والأمن الدوليين. ويردف الميثاق ويكمله وثيقتان رئيسيتان: معاهدة الدفاع العربي المشترك (إبريل 1950) وميثاق العمل الاقتصادي القومي (نوفمبر 1980).

ميثاق جامعة الدول العربية

مادة (1)

تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الموقعة على هذا الميثاق.

ولكل دولة عربية مستقلة الحق في أن تنضم إلى الجامعة، فإذا

رغبت في الانضمام، قدمت طلبًا بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة، ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب.

مادة (2)

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية، تحقيقًا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها، والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها.

كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونًا وثيقًا بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون الآتية:

1 - الشؤون الاقتصادية والمالية، ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك، والعملة، وأمور الزراعة والصناعة.

2 - شؤون المواصلات، ويدخل في ذلك السكك الحديدية، والطرق، والطيران، والملاحة، والبرق، والبريد.

3 - شؤون الثقافة.

4 - شؤون الجنسية، والجوازات، والتأشيرات، وتنفيد الأحكام وتسليم المجرمين.

5 - الشؤون الاجتماعية.

6 - الشؤون الصحية.

مــادة (3)

يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة، ويكون لكل منها صوت واحدٌ مهما يكن عدد ممثليها.

وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة، ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار إليها في المادة السابقة، وفي غيرها.

ويدخل في مهمة المجلس كذلك، تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام، ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

مــادة (4)

تؤلف لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة. وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه، وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها، تمهيدًا لعرضها على الدول المذكورة.

ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية الأخرى، ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين، وقواعد التمثيل.

مــادة (5)

لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من

دول الجامعة، فإذا نشب بينهما خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها، ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف، كان قراره عندئذ نافذًا وملزمًا.

وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته.

ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة، وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها، للتوفيق بينهما. وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء.

مادة (6)

إذا وقع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة، أو خشي وقوعه فللدولة المعتدي عليها، أو المهددة بالاعتداء، أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فورًا. ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء، ويصدر القرار بالإجماع، فإذا كان الاعتداء من إحدى دول الجامعة، لا يدخل في حساب الإجماع رأي الدولة المعتدية.

إذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدي عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس، فلممثل تلك الدولة فيه، أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة. وإذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة، حق لأي دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده.

مــادة (7)

ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزمًا لجميع الدول المشتركة في الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزمًا لمن يقبله. وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقًا لنظمها الأساسية.

مــادة (8)

تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى، وتعتبره حقًا من حقوق تلك الدول، وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام فيها.

مــادة (9)

لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق، وروابط أقوى، مما نص عليه هذا الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض. والمعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها، أو التي تعقدها فيما بعد، دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى، لا تلزم ولا تقيد الأعضاء الآخرين.

مــادة (10)

تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية، ولمجلس الجامعة أن يجتمع في أي مكان آخر يعينه.

مــادة (11)

ينعقد مجلس الجامعة انعقادًا عاديًا مرتين في العام، في كل من

شهري مارس وسبتمبر، وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناء على طلب دولتين من دول الجامعة.

مادة (12)

يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين، وعدد كاف من الموظفين. ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة، الأمين العام، ويعين الأمين العام، بموافقة المجلس، الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة.

ويضع مجلس الجامعة نظامًا داخليًا لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين. ويكون الأمين العام في درجة سفير، والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوضين، ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة.

مادة (13)

يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة، ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل بدء كل سنة مالية.

ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات، ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء.

مادة (14)

يتمتع أعضاء مجلس الجامعة، وأعضاء لجانها وموظفوها الذين

ينص عليهم في النظام الداخلي، بالامتيازات وبالحصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم. وتكون مصونة حرمة المباني التي تشغلها هيئات الجامعة.

مـادة (15)

ينعقد المجلس للمرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية، وبعد ذلك بدعوة من الأمين العام. ويتناوب ممثلو دول الجامعة رئاسة المجلس في كل انعقاد عادي.

مـادة (16)

فيما عدا الأحوال المنصوص عليها في هذا الميثاق يكتفي بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة في الشؤون الآتية:

أ - شؤون الموظفين.

ب- إقرار ميزانية الجامعة.

ج - وضع نظام داخلي لكل من المجلس، واللجان، والأمانة العامة.

د - تقرير فض أدوار الاجتماع.

مـادة (17)

تودع الدول المشتركة في الجامعة، الأمانة العامة نسخًا من جميع المعاهدات الاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها.

مـادة (18)

إذا رأت إحدى دول الجـامـعـة أن تـنـسـحـب منهـا، أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة.

ولمجلس الجامعة أن يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة، وذلك بقرار يصدره بإجماع الدول عدا الدولة المشار إليها.

مـادة (19)

يجـوز بموافـقـة ثلثي دول الجـامـعـة تعـديل هـذا الميـثـاق. وعلى الخـصـوص لجـعل الروابط بينهـا أمتن وأوثق ولإنشـاء مـحكمـة عـدل عربيـة ولتنظيم صـلات الجامعـة بالهيئات الدوليـة التي قـد تنشـأ في المسـتـقـبل لكفـالة الأمن والسـلام. ولا يبت في التـعـديل إلا في دور الانعـقـاد التـالي للدور الذي يقـدم فيـه الطلب. وللدولة التي لا تقـبل التعديل أن تنسحب عند تنفيذه، دون التقيد بأحكام المادة السابقة.

مـادة (20)

يصدق على هذا الميثاق وملاحقه، وفقًا للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة، وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة، ويصبح الميثاق نافذًا قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يومًا من تاريخ استلام الأمين العام وثائق التصديق من أربع دول.

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ 8 ربيع الثاني سنة 1364هـ (22 مارس سنة 1945) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة. وتسلم صورة منها مطابقة للأصل لكل دولة من دول الجامعة.

*****

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

فيما يلي نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة في 10 ديسمبر عام 1948.

الديباجة: لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم. ولمَّا كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة.

ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان، لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم.

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية، وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قُدُمًا وترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح. ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها. ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا

التعهد، فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه الشعوب والأمم كافة، حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم، والتربية، واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها، وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها.

المادة الأولى: يُولد جميع الناس أحرارًا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميرًا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء.

المادة الثانية: لكل إنسان حقُ التمتّع بكل الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز؛ كالتمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي السياسي، أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أي تفرقة بين الرجال والنساء، وفضلاً عما تقدم، فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد، سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلاً، أو تحت الوصاية، أو غير متمتع بالحكم الذاتي، أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود.

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الرابعة: لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويُحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكل أشكالها.

المادة الخامسة: لا يعرَّض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملة القاسية، أو الوحشية، أو الحاطة بالكرامة.

المادة السادسة: كل إنسان أينما وجد له الحق في أن يُعترف بشخصيته القانونية.

المادة السابعة: كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة دون أي تفرقة، كما أن لهم جميعًا الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخِل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.

المادة الثامنة: لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

المادة التاسعة: لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفًا.

المادة العاشرة: لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تُنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرة عادلة علنيًا للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية تُوجَّه إليه.

المادة الحادية عشر: 1- كل شخص متهم بجريمة يُعتبر بريئًا إلى

أن تثبت إدانته قانونًا بمحاكمة علنية وتُؤمَّن له الضمانات الضرورية للدفاع عنه. 2 - لا يُدان أي شخص من جراء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل، إلا إذا كان ذلك يُعتبر جُرمًا وفقًا للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشدّ من تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة.

المادة الثانية عشرة: لا يعرَّض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة، أو أسرته، أو مسكنه، أو مراسلاته، أو مساس بشرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة الثالثة عشرة: 1 - لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة. 2 - يحق لكل فرد أن يغادر أي بلد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليها.

المادة الرابعة عشرة: 1 - لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى، أو يحاول الالتجاء إليها هربًا من الاضطهاد. 2 - لا ينتفع بهذا الحق من قُدِّم للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الخامسة عشرة: 1 - لكل فرد حق التمتع بجنسية ما. 2- لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفًا أو إنكار حقه في تغييرها.

المادة السادسة عشرة: 1 - للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج، حق التزوج وتأسيس أسرة، ولهما حقوق متساوية عند الزواج، وفي أثناء

قيامه وعند انحلاله. 2 - لا يُبْرم عقد الزواج إلا برضاء الطرفين الراغبين في الزواج رضاءً كاملاً لا إكراه فيه. 3 - الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

المادة السابعة عشرة: 1 - لكل شخص حق التملك بمفرده، أو بالاشتراك مع غيره. 2 - لا يجوز تجريد أحد من ملكيته تعسفًا.

المادة الثامنة عشرة: لكل شخص الحق في حرية التفكير، والضمير، والدين، ويشمل هذا الحق حرية: تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم، والممارسة، وإقامة الشعائر والطقوس، ومراعاتها، سواء أكان ذلك سرًا أم مع الجماعة.

المادة التاسعة عشرة: لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

المادة العشرون: 1 - لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية. 2 - لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

المادة الحادية والعشرون: 1 - لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بوساطة ممثلين يُختارون اختيارًا حرًا. 2 - لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد. 3 - إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة

الحكومة، ويُعبَّر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تُجرى على أساس الاقتراع السري، وعلى قدم المساواة بين الجميع، أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

المادة الثانية والعشرون: 1 - لكل شخص بصفته عضوًا في المجتمع الحق في الضمان الاجتماعي، وفي أن تُحقَّق، بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولي، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته وللنموّ الحرّ لشخصيته.

المادة الثالثة والعشرون: 1 - لكل شخص الحق في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أن له حق الحماية من البطالة. 2 - لكل فرد دون أي تمييز الحق في أجر مساوٍ للعمل. 3 - لكل فرد يقوم بعمل، الحقُ في أجر عادل مُرض يَكْفُلُ له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية. 4 - لكل شخص الحق في أن ينشئ نقابات وينضم إليها حماية لمصلحته.

المادة الرابعة والعشرون: 1 - لكل شخص الحق في مستوىً من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية، والملبس، والمسكن، والعناية الطبية، وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة، وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته. 2 - للأمومة والطفولة الحق

في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم شرعية أم غير شرعية.

المادة الخامسة والعشرون: لكل شخص الحق في مستوى معيشي مناسب لصحته ومصلحته ومصلحة أسرته بما في ذلك الطعام والملبس والمسكن والرعاية الطبية والخدمات الاجتماعية الضرورية، والحق في التأمين في حالات البطالة والمرض والتعويق والترمل والتقدم في السن وغير ذلك، مما يصيبه من افتقار إلى العيش بسبب ظروف أقوى مما يستطيع التغلب عليها.

المادة السادسة والعشرون: 1 - لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأوّلي إلزاميًا، وينبغي أن يعمّم التعليم الفني والمهني، وأن يُيسر القبول بالتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة. 2 - يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءً كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام. 3 - للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

المادة السابعة والعشرون: 1 - لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكًا حرًا في حياة المجتمع الثقافي، وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم والاستفادة من نتائجه. 2 - لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

المادة الثامنة والعشرون: لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي، تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققًا تامًا.

المادة التاسعة والعشرون: 1 - على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يُتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نموًا حرًا كاملاً. 2 - يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامه، ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي. 3 - لا يصح بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الثلاثون: ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أن يخوّل لدولة، أو جماعة، أو فرد أي حق في القيام بنشاط، أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه.

*****

سلسلة عالم الثقافة

12

بحوث ومقالات
من فضاء السبعينات

الحكم والمواعظ
على ألسنة الحيوانات

المختصر المفيد

أضواء
على مسرح الحياة

كلمات تنعش الحياة

الشعر والحياة

حصاد الأيام
أدب .. فلسفة .. تاريخ

الانسان والقلق

نفحات من الأدب العالمي

الرحلة
[أساطير . تاريخ . أدب . حكايات]

منارات
في رحاب الأدب العالمي

قلائد الذهب
في الحكمة والأدب

نُبذة عن المؤلف

ولد الأزرق بن علو في الجزائر، وحصل على:

- ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بلغراد (1961).
- ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن (1966).
- عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971).
- مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975).
- موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ (1979).
- من مؤلفاته :
  - كلمات تنعش الحياة.
  - الشعر والحياة.
  - حصاد الأيام (أدب . فلسفة . تاريخ).
  - الإنسان والقلق.
  - نفحات من الأدب العالمي.
  - الرحلة (أساطير - تاريخ - أدب - حكايات) .
  - منارات في رحاب الأدب العالمي .
  - قلائد الذهب في الحكمة والأدب .
  - أضواء على مسرح الحياة .
  - المختصر المفيد .
  - الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات .

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 22621365 /02 تليفون 24025777 /02

محمول 01223140315 /002

E-mail:modern_qubaa@hotmail.com info@qubaaelhadetha.com

www.qubaaelhadetha.com